لويزا ماي ألكوت

مؤلفة رواية «نساء صغيرات»

مكتبة ياسمين

ثمانية أبناء عمومة

رواية

ترجمة: مي مصطفى

مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الكتاب: ثمانية أبناء عمومة، رواية

تأليف: لويزا ماي ألكوت

ترجمة: مي مصطفى

عدد الصفحات: 288 صفحة

الترقيم الدولي: 978 - 614 - 472 - 236 - 7

الطبعة الأولى: 2023

هذه ترجمة لرواية

EIGHT COUSINS

تأليف: Louisa May Alcott

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2023

الناشر

دار التنوير

الهوامش صفحة 328

الفصل الأول

فتاتان

تقف روز وحيدة في غرفة الاستقبال الكبيرة ومنديلها الصغير جاهز لالتقاط أول دمعة، تفكر في الصعوبات التي عليها مواجهتها. سوف تستحيل تلك الدمعة إلى نهر من الدموع. اعتبرت هذه الحجرة مكانًا جيدًا لتعيش بؤسها، مكان مظلم وجامد، مليء بالأثاث القديم والستائر القاتمة والمنسدلة على كافة الجوانب، ومليء بلوحات لرجال قدامى تبدو عليهم الرصانة والهيبة يعتمرون شعرًا مستعارًا، وسيّدات بأنوف حادّة وقبّعات ثقيلة على رؤوسهنّ، وأطفال يحدّقون وهم يرتدون معاطف ثقيلة من الفراء وفساتين قصيرة مقوّسة عند الوسط. إنه مكان ممتاز للبؤس؛ مطر ربيعيّ متقطّع يتطاير على زجاج النافذة، ويبدو كبكاء. «ابكِ بعيدًا وأنا معك».

لدى روز حقًا أسباب عديدة للحزن. يتيمة الأم وفقدت أباها مؤخرًا أيضًا. تركها من دون منزل، وهي الآن تعيش مع عمّاتها النبيلات، تُقيم معهنّ منذ أسبوع فقط. بذلت عمّاتها عظيم جهدهنّ لإسعادها غير أنهنّ لم ينجحنَ. فلم تكن روز كأيّ طفل رأينه من قبل، وشعرنَ كما لو كنّ يعتنين بفراشة حزينة.

لقد منحتها عمّاتها كامل حريتها في المنزل، ولمدّة يوم أو اثنين كانت تسلّي نفسها بالتجوّل فيه، كان قصرًا قديمًا، مليئًا بالزوايا الغريبة، غرف جذابة، ممرات غامضة،

مكتبة ياسين

نوافذ مكسورة في أماكن غير متوقعة، شرفات رومانسية تطلّ على حديقة، صالة علوية طويلة مليئة بمقتنيات من جميع أنحاء العالم، فقد كان جميع أفراد عائلة كامبل قباطنة سفن منذ أجيال.

سمحت العمّة بلينتي لروز بالتفتيش في خزانتها البورسلين المغربية والتي تحتوي على أشياء محبّبة لجميع الأطفال، لكنّ روز لم تعِر تلك المغريات أيّ اهتمام، ولمّا خاب هذا المسعى استسلمت العمة بلينتي يائسة. جرّبت العمّة بيس اللطيفة أن تعرض عليها حياكة بعض المشغولات الجميلة بالإبرة وصمّمت خزانة لدمية قد تخطف قلب أيّ طفل حتى لو كان أكبر سنًّا، لكنّ روز لم تبدِ سوى اهتمام بسيط بالقبعات الساتان الوردية والمشغولات الدقيقة. ورغم أنها حاكت بجدّ، فقد لاحظت عمّتها أنها تمسح دموعها في بطانة فستان زفاف، وبهذا الاكتشاف كانت نهاية ورشة الحياكة.

تكاتفت السيدتان الكبيرتان معًا من أجل إحضار طفلة مثاليّة من الحيّ لتلعب مع ابنة أخيهما، لكنّ آنابيل بليس كانت أسوأ اختيار على الإطلاق. بالنسبة لروز لم تحتمل حتّى النظر إليها، ووصفتها بعروسة الشمع وراودتها رغبة أن تلكزها لترى إن كانت ستصدر صريرًا، ولم يكن أمام العمتين سوى أن أعادتا آنابيل الصغيرة إلى منزلها. وهكذا فإنّ العمتين المنهكتين قرّرتا ترك روز لألعابها ليوم أو اثنين. ولكنّ روز، بسبب سوء أحوال الطقس، ظلّت في المنزل وقضت أغلب وقتها في المكتبة التي تحتوي على كتب أبيها. قرأت كثيرا

وبكت قليلًا وحلمت بالعديد من الأحلام البريئة التي اهتدى إليها خيال الطفولة الممتلئ بالراحة والسرور.

كان هذا ما يناسبها أكثر من أيّ شيء آخر، لكنّه لم يكن جيدًا لها، فهي تكبر بشحوب في وجهها وبعينين مثقلتين مجهدتين رغم أنّ العمّة بلينتي أعطتها من الحديد ما يكفي لصنع موقد للطهو، وداعبتها العمّة بيس كما لو كانت كلبًا صغيرًا. رؤيتها على هذا الوضع، جعلت العمّات المسكينات يعتصرن أدمغتهن لإيجاد وسيلة تسلية جديدة وصمّمن على الدخول في مغامرة كبيرة على الرغم من عدم توقّعهن نجاحها. لم يقلن شيئًا لروز بشأن خطّتهن بعد ظهر يوم السبت بل إنهنّ تركنها بمفردها حتى يحين وقت المفاجأة الكبيرة. حلم صغير يخامرهن بأنّ هذه الطفلة الغريبة ستجد سعادتها في الأماكن الأكثر بُعدًا عن التوقّع.

قبل أن تخرج دمعتها الأولى، جاء صوتٌ كسر السكون، وخزّ أذنيها. لم يكن سوى التغريد الناعم لطائر، لكنّه بدا وكأنه تغريد طائر موهوب بشكل غريب، فبينما كانت تستمع إلى صوتٍ ناعم تحوّل وبلحظة إلى صفير حيّ، ثم إلى زغردة، هديل، زقزقة وانتهى بخليط موسيقيّ من كلّ النوتات. كما لو أنّ الطائر انفجر من الضحك. ضحكت روز أيضًا ونسيت بؤسها وقفزت قائلة بشغف: «هذا طائر ساخر، أين هو؟»، وجرت في الصالة الطويلة تختلس النظر من كلا البابين، لكنّها لم تر كائنًا مكسوًّا بريش بل دجاجة متسخة الذيل تحت ورق الأرقطيون. أصاخت السّمع

مكتبة ياسين

مرة أخرى فبدا الصوت وكأنه في المنزل.

ذهبت بعيدًا، سعيدة بمطاردة الصوت وتتبُّع النغمات المتغيّرة التي قادتها إلى باب الخزانة البورسلين. قالت: «أهو هناك؟ كم هو مضحك!». لكن عندما دخلت لم يكن هناك أيّ طائر، فقط بعض طيور السنونو الخزفية على لوح بورسلين من كانتون موضوعة على الرفوف. لمع وجه روز بشكل مفاجئ، وبهدوء فتحت المغلاق ونظرت في المطبخ، لكنّ الموسيقى توقفت وكلّ ما رأته كان فتاة في مريلة زرقاء تنظف الموقد. حدّقت روز بها لدقيقة ثم فاجأتها بالسؤال:

- «هل سمعتِ هذا الطائر الساخر؟».

أجابت الفتاة وهي تنظر إليها بوميض في عينيها السوداوين:

«ينبغي أن أسمّيه طائر فيبي».

- «أين ذهب؟».

- «إنه مازال هنا».

- «أين؟».

- «في حلقي، هل تريدين سماعه؟».

- «أوه، نعم سأدخل».

تسلّلت روز إلى جانب المطبخ الآخر عند الرّف الكبير وهي في عجلة من أمرها، تلفّها الحيرة.

مسحت الفتاة يديها ورفعت قدميها من وسط بحر من رغوة الصابون حتى الجزء الجاف من السجادة،

مكتبة ياسين

ثم بعد ذلك وبشكل مؤكّد، خرج من حلقها النحيف تغريد السنونو، صفير طائر الروبن(1)، صيحة القيق الأزرق(2)، غناء طائر السمنة(3)، هديل حمام الغابة والعديد من أصوات النوتات المألوفة. كل ذلك ينتهي بالنوتة الموسيقية نفسها التي سمعتها في المرة الأولى مع غناء طائر الممراح(4) وهو يتأرجح بين الأعشاب في المرج في يوم مشرق من أيام يونيو.

كانت روز مندهشة للغاية لدرجة أنّها أوشكت على السقوط من مقعدها، وعندما انتهت الحفلة الموسيقية الصغيرة صفّقت بسعادة.

- «أوه، كم كان جميلًا، من علّمكِ ذلك؟».

أجابت الفتاة بابتسامة وهي تشرع في العمل مرة أخرى: «الطيور».

- «إنّه رائع، إنّني أستطيع أن أغنّي لكنّه غناءٌ لا يشبه غناءك أبدًا، من فضلك ما هو اسمك؟».

- «فيبي مور».

- «لقد سمعت عن طيور الفيبي لكنّني لا يمكن أن أصدق أنّهم يغنّون مثلك في الحقيقة».

ضحكت روز وأضافت وهي تشاهد باهتمام انتشار رغوة الصابون على الأرضيّة:

- «هل من الممكن أن أبقى هنا وأشاهدك وأنتِ تعملين؟ إنّ غرفة الاستقبال موحشة جدًّا».

- «أجل، بالطبع يمكنك ذلك لو أردت». أجابتها فيبي

مكتبة ياسين

وهي تعصر ملابسها بطريقة محترفة أبهرت روز كثيرًا.

ردّت روز وقد استهواها هذا العمل الجديد: «من المؤكد أنّه شيء ممتع أن تحصلي على كل هذه الرغوة من الصابون، أحبّ أن أفعل ذلك جدًّا لكنّني أظن أنّ عمّتي لن تحبّ ذلك».

- «لو فعلتِ ستتعبين. من الأفضل أن تظلّي مرتبة ونظيفة».

- «أظنّ أنّكِ تساعدين أمّك جيدًا».

- «ليست لديَّ عائلة».

- «لماذا؟ أين تعيشين إذًا؟».

- «سأعيش هنا، وأتمنى ذلك. ديبي أرادت شخصًا يساعدها وأنا سأجرب العمل لمدة أسبوع».

قالت روز التي مالت بشكل مفاجئ للفتاة التي تغنّي كطائر وتعمل كسيدة: «أتمنى لو تقيمين هنا لأنّني أشعر بالكآبة».

- «أتمنى ذلك، إنّني في الخامسة عشرة من عمري وكبيرة بما يكفي لكسب لقمة العيش، أنتِ جئتِ إلى هنا لقضاء فترة معينة، أليس كذلك؟».

سألتها فيبي وهي ترفع بصرها إلى الضيفة وتتساءل كيف يمكن أن تكون كئيبة حياة فتاة ترتدي فستانًا من الحرير ومريلة مزركشة مثيرة للإعجاب، وقلادة جميلة وشعرها مربوط بمشدّ قطيفة بديع.

- «أجل، يتوجّب عليّ أن أبقى هنا حتى يأتي عمّي،

مكتبة ياسين

فهو الوصيّ عليّ، غير أنّني لا أعرف ما الذي سوف يفعله معي. هل لديك وصيّ؟»».

- «وصيّ... لا بالطبع، فقد تُركتُ رضيعة على درج منزل فقير وأُعجبت الآنسة روجرز بي فبقيت هناك منذ ذلك اليوم، لكنّها ماتت الآن وعليّ أن أعتني بنفسي».

سألتها روز المغرمة بقصص اللّقطاء الذين قرأت عنهم الكثير: «يا لها من حكاية شيّقة! إنّها تشبه أرابيلا مونتجمري في «طفل الغجر(5)» هل قرأت هذه القصة الجميلة؟»».

أجابت فيبي بينما تنهي عملًا وتبدأ بالآخر: «ليس لديّ أيّ كتب لأقرأها. في وقت فراغي أذهب للركض في الغابات، هذا يعطيني شعورًا مريحًا أكثر من القصص».

راقبتها روز وهي تُخرج وعاءً كبيرًا من الفاصولياء مندهشة من حياة كلّها عمل ليس فيها أيّ وقت للّعب. بدا أنّ فيبي تفكر حاليًا في أنّه قد حان دورها لتطرح أسئلة فقالت بحزن:

- «لديك الكثير من الدروس لتنجزيها على ما أظن».

- «أوه، أجل مع الأسف! التحقت بمدرسة داخلية منذ قرابة العام وأنا منهكة من كثرة الدروس. وكلّما أحرزت المزيد، أعطتني الآنسة باور أكثر، وكنت بائسة لدرجة أنّني بكيت بشدّة. أبي لم يعطني أبدًا أشياء صعبة أفعلها، وكان دائمًا يعلّمني بسرور كبير حتّى أنّني أحببت الدراسة. أوه، لقد كنّا سعيدَين ومغرمين ببعضنا البعض،

مكتبة ياسين

لكنّه الآن رحل وتركني وحيدة».

الدمعة التي لطالما انتظرتها روز قد حان وقت نزولها، وصارت دمعتان تدحرجتا على خدّيها، تعبّران عن الحبّ والحزن أكثر مما يمكن لأيّ كلمات أن تفعل.

لدقيقة لم يعُد يُسمع في المطبخ سوى صوت نحيب الفتاة الصغيرة وسقوط المطر المتعاطف. توقفت فيبي عن تنقية الفاصولياء ونقلها من وعاء لآخر وعيناها تمتلئان بالشفقة بينما تستقرّان على الرأس ذي الشعر المجعّد المنحني على ركبتي روز، لأنها رأت القلب تحت القلادة الجميلة يتألم من خسارته. وبالمريلة الأنيقة راحت تجفف دموعاً حزينة أكثرمن أيّ دموع كانت قد ذرفتها من قبل.

على أيّ حال، كانت فيبي سعيدة بمعطفها القطني البنّي والمريلة الزرقاء ذات المربعات. فتبدّل حسدها إلى تعاطف، ولو كانت الجرأة قد واتتها لعانقت ضيفتها البائسة. لكنّها خشيت أن يكون ذلك تصرّفًا غير مناسب، فقالت بصوتها المبتهج:

- «أنا متأكدة أنّك لن تكوني وحيدة ولديك كلّ هؤلاء الأقارب وجميعهم أغنياء وماهرون، وتقول ديبي إنك ستصبحين فتاة مدلّلة لأنّكِ الفتاة الوحيدة في العائلة».

كلمات فيبي الأخيرة جعلت روز تبتسم رغم كلّ دموعها وبانت من وراء مريلتها بوجه مشرق وهي تقول بنبرة ساخرة بائسة:

مكتبة ياسين

- «هذه هي واحدة من مشاكلي، لديّ ستّ عمّات وكلّهن يردنني وأنا لا أعرف أيّ واحدة منهن جيدًا، سمّى أبي هذا المكان تلّ العمّات، الآن عرفت لماذا سمّاه كذلك».

ضحكت فيبي معها وقالت بشجاعة:

- «الكلّ يسمّيه هكذا، وهو اسم جيّد بصراحة لكلّ أولئك السيّدات، فأفراد عائلة كامبل يعيشون معًا في تناغم، والجميع يأتي ليرى أولئك السيدات المسنّات وهنّ يعشن معًا».

- «يمكنني أن أتحمّل العمّات، لكن هناك العشرات من أبنائهن، أغلبهم صبيان مخيفون وأنا أكره الصبية! بعضهم جاء لرؤيتي يوم الأربعاء الماضي لكنّني كنت مستلقية وعندما جاءت عمّتي لتستدعيني، دخلت تحت اللحاف وتظاهرت بأنّني نائمة. ينبغي أن أراهم لبعض الوقت لكنّني أخاف من ذلك جدًا».

أصابت روز رعشة عندما تخيّلت نفسها تعيش مع أبٍ مزيّف، ولا تعرف أيّ شيء عن الصبية وتعتبرهم نوعًا من الحيوانات المفترسة.

- «أوه! أظن أنّك قد تحبينهم، لقد رأيتهم يمرحون عند مجيئهم من موطنهم أحيانًا في قواربهم وأحيانًا على ظهور الخيل. لو كنت تحبّين القوارب والخيل ستستمتعين لأقصى درجة».

- «لكنّني لا أحبّ ذلك! فأنا أخاف من الخيل، والقوارب تشعرني بالدوار، وأكره الصبية!».

مكتبة ياسين

شبكت المسكينة روز يديها لتعبّر عن هذا الشيء المروّع. شيء واحد فقط من هذه الأشياء المروعة يمكنها تحمّله، لكن كلّ هذه الأشياء معًا كثيرة عليها، بدأت تفكر في عودة سريعة إلى المدرسة الكريهة. ضحكت فيبي رغم آلامها حتّى تراقصت حبات الفاصولياء في الطاسة لكنّها حاولت أن تخفّف عنها باقتراحها شيئًا يهدئها:

- «ربما يأخذك عمّك بعيدًا إلى مكان ليس فيه أيّ صبيان، تقول ديبي إنّه رجل طيّب ويُحضِر دائمًا أكوامًا من الأشياء اللطيفة عندما يأتي».

- «أجل، لكن هناك مشكلة أخرى وهي أنّني لا أعرف العم أليك مطلقًا، فهو نادرًا ما يأتي ليرانا رغم أنّه يرسل لي أشياء جميلة عادة. الآن أنا تابعة له ويجب أن أكون كذلك حتّى أبلغ الثامنة عشرة من عمري. قد لا أحبّه ولو قليلًا، وأنا قلقة بشأن ذلك طوال الوقت».

- «حسنًا، أنا لن أقلق من دون داعٍ وعليكِ أن تستمتعي بالوقت الجيد، أنا متأكدة بأنني سأعيش في ترف لو كنت أحظى بأقارب ومال، ولن أفعل أيّ شيء سوى الاستمتاع».

لم تستطرد فيبي في حديثها بسبب الصخب والجلبة في الخارج التي جعلتهما تقفزان. قالت فيبي:

- «إنه رعد».

- «لا، إنه سيرك».

صاحت روز التي استطاعت من مقعدها المرتفع أن تختلس نظرات إلى عربة مبهجة وأحصنة صغيرة

مكتبة ياسين

بأعراف وذيول متطايرة.

تلاشى الصوت وكانت الفتاتان على وشك الاستطراد في حديثهما لولا أن ظهرت ديبي العجوز التي بدت منزعجة وناعسة بعد غفوتها.

- «يطلبونك في غرفة الاستقبال يا آنسة روز».

- «هل أتى أحد؟».

- «الفتيات الصغيرات لا يسألن أسئلة، بل يفعلن ما يُطلب منهن».

كان هذا كلّ ما قالته ديبي.

قالت روز ذلك وهي تستعدّ للرجوع إلى المكان الذي جاءت منه:

- «أتمنى بالفعل ألّا تكون العمّة ميرا، فهي تخيفني دائمًا من نفسي وتسألني كيف حال سعالي وتتأفّف كما لو كنت على وشك الموت».

فُتح الباب لدخول الديوك الرومية والحلويات من أجل الكريسماس. كانت فتحة تتّسع بما يكفي لمرور فتاة نحيلة.

تذمّرت ديبي التي تعتقد أنّ من واجبها توبيخ الأطفال في كلّ مناسبة وقالت: «أعتقد أنكِ حينما ترين من جاء ستتمنّين لو كانت العمّة ميرا. لا تدعيني أراكِ في المطبخ مرّة أخرى وإلا سوف أعاقبك بشدة».

مكتبة ياسين

الفصل الثاني
العشيرة

الحركة في المنزل جعلت روز تندفع خارجةً مسرعة بقدر استطاعتها. صادف وجود ديبي في طريقها، فرسمت لها تعبيرات تجهميّة على وجهها، ثم استجمعت نفسها واستدعت شجاعتها، وزحفت إلى الصالة تختلس النظر إلى غرفة الاستقبال. لم يظهر أحد، بل كان السكون يسود. تأكّدت أنّ الجميع في الطابق العلوي، لذا اجتازت بجرأة الأبواب نصف المفتوحة القابلة للطيّ لتجد على الجانب الآخر مشهدًا كاد أن يحبس أنفاسها.

سبعة صبيان من كلّ الأعمار ومن كلّ الأحجام يقفون في صفٍّ واحد، شعورهم صفراء وعيونهم زرقاء ويرتدون الزّيّ الاسكتلندي التقليدي الكامل، يبتسمون ويهزّون رؤوسهم قائلين في صوت واحد «كيف حالك يا ابنة الخال؟»». خرجت شهقة صغيرة من روز ونظرت بغرابة حتى بدت كما لو أنها تريد أن تطير من خوف مبالغ فيه من الصبيان السبعة. بدت الحجرة مليئة بهم، وقبل أن تقرّر الجري هاربةً خرج أطولهم من الصفِّ وقال بكلّ سرور:

- «لا تخافي، ها هي العشيرة وقد جاءت لترحّب بك، وأنا زعيمهم أرشي في خدمتك»».

مدّ يده بينما يتكلم، فوضعت روز يدها بخجل في كفّه البنيّ الذي أغلقه على كفّها الأبيض الصغير ورفعه كزعيم، ثم أكمل تقديمه للبقية قائلًا:

مكتبة ياسين

- «لقد جئنا بزيّنا الكامل، فنحن نرتدي دائمًا ملابس موحّدة في المناسبات الكبرى، أتمنى لو أحببت هذا الزيّ. الآن سأخبرك مَن هؤلاء الفتية ثم تصبح الأمور أكثر وضوحًا. هذا الضخم هو الأمير تشارلي، ابن الخالة كلارا، ليس لديها غيره لذلك هو شخص جيّد للغاية. هذا الرفيق الكبير هو ماك، دودة كُتب ويسمّى باختصار الدودة. هذا المخلوق الجميل هو ستيف (الداندي) (٥)، انظري من فضلك إلى قفازاته وربطة عنقه، إنهما أبناء الخالة جين وثنائيّ نفيس صدقيني. وهؤلاء الأطفال هم، إخوتي: جوردي وويل وجيمي الرضيع. الآن يا رجال، اخرجوا وأظهروا أخلاقكم الحسنة».

بعد هذا الأمر، وما زاد من ذعر روز، أنّ ستّ أيادٍ قُدمت إليها وكان عليها أن تصافحها جميعها. لحظة عسيرة بالنسبة لطفلة خجولة مثلها، لكنّها تذكرت أنّهم أقاربها وجاءوا جميعًا ليرحبوا بها، فبذلت قصارى جهدها لترد التحية بحرارة.

انتهى هذا الحفل المؤثر وانفضّ صفّ العشيرة واكتظّت الحجرتان بالصبية، وبسرعة انزوت روز على كرسيّ كبير تشاهد الغزاة ونتساءل متى ستأتي عمّتها لتنقذها. أمّا الصبية، فكما لو أنّهم ملزمون بأداء واجبات الرجال، بالأحرى كأنّهم مرغمون على التصرّف كالرجال، كان كلّ فتًى فيهم يتوقف بجوار كرسيّها إبّان تجواله ليلقي ملاحظة مختصرة ويستقبل منها إجابة أكثر اختصارًا ثم يبتعد وعلى وجهه تعبير الارتياح.

مكتبة ياسين

هكذا جاء أرشي أولًا وانحنى على ظهر الكرسي قائلًا بنبرة أبويّة:

- «أنا سعيد بمجيئك يا ابنة الخال وأتمنى لو تجدين تلّ العمّات جميلًا ومريحًا».

- «أعتقد ذلك».

أزاح ماك شعره عن عينيه وتعثّر بمقعد وسأل بغتة:

- «هل أحضرتِ أيّ كتب معك؟».

- «أحضرت أربعة صناديق ممتلئة. إنّها موجودة في المكتبة».

اختفى ماك من الحجرة ووقف ستيف بجديّة وكأنّما يعرض زيّه وقال مع ابتسامة لطيفة:

- «نتأسف لعدم رؤيتك الأربعاء الماضي، أتمنى أن تكوني بصحّة أفضل بعد نزلة البرد».

- «أجل شكرًا لك».

وبدأت ابتسامة تغمر فم روز فقد تذكرت أنها اختبأت تحت غطاء السرير.

شعور ستيف بأنّه حظي باهتمام مميز جعل قنزعته تبدو أعلى ممّا هي عليه إبّان تجوّله في الحجرة.

تجنّر الأمير تشارلي قائلًا بنبرة بسيطة:

- «أرسلت أمّي محبتها إليكِ وتتمنى أن تكوني بصحة جيدة بما يكفي لقضاء يوم معنا الأسبوع القادم، فبالتأكيد الوضع هنا مملّ لشيء صغير مثلك».

صاحت روز متغافلة عن خجلها ومستاءة من إهانة

مكتبة ياسين

مراهَقتها: «أنا في الثالثة عشرة والنصف من عمري بالرغم من أنّني أبدو صغيرة».

- «سامحيني سيّدتي، ما كان يجب عليّ قول ذلك».

ثم انفرط في الضحك مسرورًا أنه أشعل الشرارة في ابنة خاله الوديعة. أتى جوردي وويل معًا، وهما طفلان صلبان في الحادية عشرة والثانية عشرة من عمرَيْهما، وكانا يثبتان النظر بعيونهم الزرقاء الدائرية على روز. أطلقا سؤالًا عليها كأنّهما في مباراة إطلاق نار، وهي الهدف.

- «هل أحضرتِ القرد؟».

- «لا، فقد مات».

- «هل ستشترين قاربًا؟».

- «لا أتمنى ذلك».

هنا تحرك الاثنان فجأة بعيدًا وطلب جيمي الصغير بصراحة طفولية:

- «هل أحضرتِ أيّ شيء لطيف لي؟».

- أجابته روز: «أجل، كثيرًا من الحلوى».

عندها صعد جيمي على حِجرها وقبّلها قبلة رنّانة معلنًا حبّه الكبير لها. أذهل هذا الفعل روز ونظر الفتيان الآخرون إليهما وضحكوا، فارتبكت روز وقالت على الفور للمبتزّ الصغير:

- «هل رأيت السيرك وهو يمرّ؟».

صاح كلّ الصبية في الحال بدهشة كبيرة: «متى؟

مكتبة ياسين

وأين؟»».

- «قبل مجيئكم بالضبط. على الأقل ظننت أنّه سيرك، فلقد رأيت عربة حمراء وسوداء اللون وكثيرًا من الأحصنة الصغيرة و...»».

لم تكمل حديثها لأنّ صيحة عالية صدرت منهم جميعًا جعلتها تتوقف فجأة ففسّر أرشي ذلك قائلًا وهو مستمرٌّ في الضحك:

- «إنها عربة الكلاب الجديدة خاصتنا وأحصنة شتلاند(7)، أنتِ لن تتذكري آخر مرة رأيتِ فيها سيركًا يا ابنة الخال».

حاولت روز تبرير خطئها: «لكنّ الكثير من العربات كانت هناك وكانت تجري بسرعة كبيرة، والعربات كلّها بلونٍ أحمر داكن».

صاح الأمير: «تعالي وشاهديها».

وقبل أن تعرف ماذا يحدث، حُملت بعيدًا إلى الحظيرة، وفي جوٍّ من الصخب قدّموا إليها ثلاثة أحصنة طويلة الشعر وعربة كلاب جديدة مبهجة. لم تزر هذه المناطق من قبل وكان لديها شكوك حول إمكانية وجودها في مكان كهذا الآن، وعندما قالت: «ربما عمّتي لا تحبّ ذلك»، انطلقت صرخة كبيرة:

- «إنّها هي مَن طلبت منّا أن نسليكِ، ووجودنا في الحظيرة سيمكّننا من فعل ذلك أفضل بكثير من المنزل».

ردّت روز التي أحبّت البقاء لكنّها شعرت أنّها لا

مكتبة ياسين

تنتمي إلى هذا المكان: «أخشى أن أصاب بالبرد من دون معطفي».

- «لا، لن تصابي بالبرد، سوف ندفئك». صاح الفتيان. ووضع أحدهم قبعته فوق رأسها، وربط الآخر سترة ثقيلة حول رقبتها، والثالث غطاها ببطانية جاء بها من العربة، والرابع فتح باب العربة القديمة التي تقف هناك قائلًا بكل فخر:

- «تعالي سيدتي واستريحي بينما نقدّم لكِ بعض المرح».

جلست روز مستمتعة وفي حالة من النشوة، وبدأ الفتيان يرقصون (هاي لاند فلنج)(8) بروح ومهارة إلى درجة جعلتها تصفّق وتضحك كما لم تفعل طوال الأسابيع الماضية.

- «ما رأيكِ يا فتاة؟»، سألها الأمير ووجوههم جميعًا محمّرة وأنفاسهم لاهثة بعدما انتهت الرقصة.

- «يا له من رقص بديع! لم أذهب إلى المسرح سوى مرة واحدة، ولم يكن الرقص بنصف جمال رقصكم. يا لكم من صبيان ماهرين!»، قالت روز وهي تبتسم لأقاربها كما لو كانت ملكة مع رعاياها.

أجاب تشارلي وقد بدا مبتهجًا جدًا من مديحها: «أوه، نحن أفضل من ذلك بكثير. هذا فقط أوّل المرح، فنحن لم نأتِ بمزاميرنا لذا لن نستطِع أن نقدّم لكِ عرضنا المسرحيّ أو نغنّي لكِ (لحن دولسي)(9)».

قالت روز التي بدأت تشعر كما لو أنّها تركت أمريكا

مكتبة ياسين

خلفها: «لم أكن أعرف أنّنا اسكلنديين. لم يقل لي أبي أيّ شيء بخصوص ذلك، حتى إنّه لم يبد عليه الاهتمام باسكلندا عدا أنه كان يدَعني أغني الأغاني الشعبية القديمة».

- «ولا نحن، إذ لم نعرف إلّا في الآونة الأخيرة. عندما قرأنا روايات اسكلندية تذكرنا أنّ جدّنا كان اسكلنديًّا، لذا بحثنا عن القصص القديمة وحصلنا على مزمار القربة وارتدينا وشاحًا على الطراز الاسكلندي وذهبنا بقلبنا وروحنا من أجل مجد العشيرة. لقد كنّا كذلك وما زلنا حتى الآن، وهي متعة عظيمة. جماعتنا أحبّوه وأعتقد أننا مجموعة جذّابة حقًا». قال أرشي وهو يجلس في العربة القديمة بينما يتسلّقها الآخرون من الأمام والخلف لينضموا للحوار مثل الباقين.

ثم أضاف الأمير:

- «أنا (فيتزجيمس) (10) وهو(رودريك ده) وسوف نعطيكِ سيفًا كبيرًا للمبارزة يومًا ما، إنّه شيء عظيم صدقيني».

فصاح ويل من صندوق متلهفًا ليعبّر عن نفسه في الحوار ويذكر إنجازاته:

«أجل وينبغي عليكِ أن تستمعي إلى ستيف وهو يلعب على المزامير، فهو يجعلها تصدح بطريقة جميلة».

انضم جوردي للحوار قائلا كلمة طيبة في حقّ (الدودة) الغائبة:

- «ماك هو الرفيق الذي يبحث عن القصص القديمة

مكتبة ياسين

ويخبرنا كيف نرتدي الملابس المناسبة ويختار الأجزاء المثيرة لنا لنتحدّث عنها ونغنّي».

- «وماذا ستفعل أنتَ وويل؟».

سألت روز جيمي الجالس إلى جوارها كأنّما قرّر أن يظل يراقبها حتى تأتي بهديته التي وعدته بها.

- «أوه، إنّني خادم صغير وأنجز مهامًا، ويل وجوردي هما الجنديان إبّان المسير، وهما الوعلان أثناء الصيد، وهما الخائنان عندما نريد قطع الرؤوس».

- «إنهما متعاونَان جدًّا، أنا متأكدة من ذلك»، قالت روز.

وكان «الرجال متعدّدو المهام» مبتهجين بتواضع وعاقدي العزم ليكونوا مثل والاس ومونتروز(١١) قدر المستطاع من أجل تسلية ابنة خالهم.

صاح الأمير وهو يتأرجح بابتسامة مشرقة ويصفع ستيف على كتفه: «دعونا نلعب لعبة المطاردة».

على الرغم من قفازاته، اندفع داندي وراءه بينما اندفع البقيّة في كلّ اتجاه كما لو كانت لديهم النّية في كسر أعناقهم وخلع مفاصلهم بأسرع وقت ممكن. لقد كان مشهدًا جديدًا ومذهلًا ومنعشًا لروز بعيدًا عن المدرسة الداخلية المتشدّدة، فتابعت ما يقوم به الفتيان النشيطون باهتمام لاهث.

مشى ويل كقائد منتصر مكلّل بالمجد، مظهرًا رأسه من مكان عالٍ أولًا، وقد عاد سالمًا. في تلك اللحظة ظهرت فيبي وبيدها معطف وغطاء للرأس وحذاء للمطر

مكتبة ياسين

ورسالة من العمّة بلينتي: «على الآنسة روز أن تأتي في الحال».

أجاب أرشي: «حسنًا، سوف نأتي بها».

وأصدر بعض الأوامر الغامضة التي أطاعها الجميع في الحال. وقبل أن تستطيع روز الخروج من العربة، كان الصبية قد أمسكوا بعموديّ العربة وجرّوها خارج الحظيرة، ملتفّين حولها بشكل بيضاوي يدفعونها إلى الباب الأمامي وبهتاف واحد تمّ إحضار قبعتين من النافذة العلوية، وتسبّب كلّ هذا المشهد بصراخ ديبي عليهم من الشرفة الخلفية:

- «هؤلاء الصبية الطائشون سيتسببون بموت المخلوقة الصغيرة الرقيقة بكلّ تأكيد».

لكنّ «المخلوقة الصغيرة الرقيقة» بدت مستمتعة بتلك الرحلة، وكانت تبدو، وهي تصعد الدّرج، مشرقة ومبتهجة وبشعر غير مرتّب. وبعد كلّ ذلك استقبلتها العمّة بلينتي بامتعاض راجية منها أن تذهب وتستلقي في فراشها حالًا.

- «أوه، من فضلك لا تفعلي، لقد جئنا هنا خصيصًا لنحتسي الشاي مع ابنة خالنا وسنتصرف بشكل رائع جدًا كالذهب لو سمحتِ لنا بالبقاء يا خالتي»، صاح الصبية مؤيدين، ليس فقط دعمًا 'لابنة خالنا'، لكن أيضًا ليس لديهم أيّ استعداد لأن يخسروا العشاء واحتساء الشاي، ذلك أن اسم العمّة بلينتي نادرًا ما أظهر طبيعتها المعطاءة والسخية.

مكتبة ياسين

قالت السيدة العجوز: «حسنًا يا أعزائي، يمكنكم البقاء لكن كونوا هادئين واتركوا روز تذهب لتصفّف شعرها وترتّب هندامها، وبعدها يمكننا أن نرى ما الذي تمّ إعداده للعشاء».

وبينما كانت تمشي مغادرةً ظلّت متبوعة بوابل من الطلبات من أجل المأدبة الوشيكة:

- «مربى فواكه يا عمّتي».

- «مزيد من كعكة البرقوق من فضلك».

- «أخبري ديبي أن تقدّم الكمثرى المخبوزة».

- «أنا على استعداد أن أفعل أيّ شيء من أجل فطيرة ليمون، سيدتي».

- «هل عندك فطائر؟ ستحبها روز».

- «أظنّ أنّها ستفضل فطائر الفاكهة، أعلم ذلك».

بعد خمس عشرة دقيقة، نزلت روز ترتدي مريلتها وشعرها مصفّف من دون كسرة واحدة. وجدت الصبية يتسكعون في الصالة الطويلة، وما إن وصلت حتى توقفوا في منتصفها ليتفحّصوها، وراحت روز تنظر في وجوههم، فهي حتّى الآن لم تكن قد دقّقت في أبناء عمومتها الجدد. لاحظت وجود تشابه عائليّ قوي بينهم غير أنّ بعض الرؤوس كانت أكثر صفرةً من الأخرى. بعض الخدود بنية بدلًا من كونها مشرقة، وتتنوع الأعمار بين أرشي الذي يبلغ السادسة عشرة من عمره وجيمي الذي يصغره بعشرة أعوام. لم يكن أحد فيهم جذابًا سوى الأمير، لكن بالمقابل جميعهم كانوا

مكتبة ياسين

فتيانًا طيبين وسعداء. قرّرت روز أن هؤلاء الفتيان لم يكونوا مخيفين مثلما توقّعت أن تجدهم.

كانوا يتعاونون بشكل رائع، ولم تستطع روز فعل أيّ شيء سوى الابتسام في وجوههم. أرشي وتشارلي صديقان حميمان يتحركان إلى الأعلى والأسفل، كتفًا بكتف ويصفران «بوني دندي»(12). ماك يقرأ في زاوية من الصالة وكتابه قريب من عينيه حسيرتي النظر. دندي يرتّب شعره أمام المرآة البيضاويّة بجوار حامل القبعات. جوردي وويل يستكشفان الشكل الداخلي للساعة على شكل قمر. جيمي يدقّ بكعبيه على السجادة عند أسفل الدرج طالبًا من روز الحلوى التي وعدته بها. خمّنت روز نواياه وأدركت مطلبه فأسقطت في يده حفنة من (البرقوق بالسكر)(13).

على إثر صياحه فرحًا، رفع الصبية بصرهم وابتسموا تلقائيًا لقريبتهم الصغيرة التي تقف هناك بشكلها الجذّاب وعينيها المخجلتين الناعمتين وشعرها اللامع ووجهها الضاحك. ذكّرهم الثّوب الأسود بخسارتها وملأ قلوبهم برغبة في أن يكونوا طيبين مع «ابنة خالنا» التي لم يعد لها منزل سوى هذا.

- «ها هي ابنة خالنا الطيّبة»، صاح ستيف وهو يرسل لها قبلة في الهواء.

وأضاف الأمير بشجاعة: «تعالي يا فتاة، العشاء جاهز».

- «ينبغي عليّ أن أرافقها».

ومدّ أرشي ذراعه بفخر عظيم فتسبّب هذا التكريم في

مكتبة ياسين

جعل روز تحمرّ خجلا كالكرز، وتمنّت لو تركض عائدةً إلى الطابق العلويّ مرة أخرى.

لقد كان عشاءً مرحًا، وأضاف إليه الصبيّان الكبيران المزيد من المرح عبر تلميحاتهما السّاخرة عن الأحداث المهمّة الوشيكة الحدوث، وأعلن الجميع أنّ تلك الأحداث لطيفة لكن بطريقة غير مألوفة، كلّ ما في الأمر أنها تبدو غامضة في الوقت الحاضر.

سأل جيمي: «هل رأيته؟».

- «لا أذكر، لكنّ ماك وستيف رأوه وأحبّوه كثيرًا»، أجاب أرشي الذي تسبّب كلامه في إهمال المذكورَين أعلاه لفطائر ديبي اللّذيذة لعدّة دقائق بينما كانا يعتصران أدمغتهما في التّذكر.

سأل ويل وفمه مليء بمربى الفواكه: «من الذي سيحصل عليه أولا؟».

- «أخمّن أنّها الخالة بلينتي».

سأل جوردي وهو يقفز من مكانه بفارغ الصبر: «ومتى ستحصل عليه؟».

- «في وقت ما من يوم الاثنين».

- «يا قلبي! ما الذي يتحدث عنه الصبيّ؟».

صاحت السيدة العجوز من خلف إناء طويل لا يُظهر سوى الجزء الأعلى منها.

سألوا جميعًا بصوت واحد: «ألا تعرف الخالة؟».

- «لا، وهذا أفضل ما في المزحة فهي مغرمة به

مكتبة ياسين

للغاية».

سألت روز لتنضمّ للمرح: «ما لونه؟».

- «أزرق وبنيّ».

سأل جيمي: «هل هو صالح للأكل؟».

أجاب تشارلي ضاحكًا لدرجة أنّه سكب الشاي: «بعض الناس يعتقدون ذلك لكن لا ينبغي عليَّ أن أجرّبه».

وتدخّل ستيف: «لأيّ الفئات ينتمي؟».

حدَق أرشي والأمير في بعضهما البعض بذهول لمدة دقيقة ثم أجاب أرشي بغمزة من عينه جعلت تشارلي ينفجر مرة أخرى: «إلى الجدّ كامبل».

كان لغزًا يئسوا من حلّه، لذا أكّد جيمي لروز أنه لن يستطع العيش إلى يوم الاثنين لو لم يعرف هذا الشيء الغريب.

انفضّت العشيرة بمجرد احتساء الشاي وهم يغنّون بأعلى الصوت «كلّ أغطية الرأس الزرقاء على السور»(14).

- «حسنًا عزيزتي، كيف وجدتِ أبناء عمومتك؟».

سألت العمّة بلينتي بينما كان يثب آخر مهر حول الزاوية وانتهت الضجة.

- «أحببتهم جدًّا يا سيدتي لكنّني أحبّ فيبي أكثر».

تسبّبت هذه الإجابة في جعل العمّة بلينتي ترفع يديها في الهواء بيأس، واندفعت لتخبر أختها بيس بأنّها لم تعد تفهم هذه الطفلة ومن الرحمة أن عمّها «أليك» سيأتي

مكتبة ياسين

قريبًا ويحمل هذه المسؤولية عنهم.

تكوّرت روز في ركن الكنبة لتستريح وتفكّر في حلّ اللّغز، بسبب الإرهاق من الأعمال غير المعتادة في فترة ما بعد الظّهر، وخمّنت أنّها ستعرف الحلّ قبل الجميع.

وفي وسط تأمّلاتها غرقت في النوم وحلمت أنّها كانت في منزلها مرة أخرى وفي سريرها الصغير. بدت كما لو أنها تستيقظ وترى أباها ينحني عليها وتسمعه يقول: «ابنتي الصغيرة روز»، وهي تجيب: «نعم يا أبي». ثم شعرت بأنّه يأخذها بين ذراعيه ويقبّلها برقّة. كان الحلم جميلًا جدًّا وبدا حقيقيًا إلى درجة أنّها بدأت تصرخ فرحًا إلى أن وجدت نفسها بين ذراعي رجل بنّي ملتحٍ يهمس بصوت يشبه صوت أبيها، فتشبّثت به بشكل لا إراديّ. «هذه هي ابنتي الصغيرة وأنا عمّكِ، العمّ أليك».

مكتبة ياسين

الفصل الثالث
الأعمام

استيقظت روز في الصباح، ولم تكن متأكّدة إن كان ما حدث الليلة الماضية قد حلمت به أم حدث بالفعل. مع أنّها صحت قبل ميعادها بساعة غير أنّها لم تستطع العودة إلى النوم، قفزت وارتدت ملابسها تملّكها رغبة قوية في أن ترى إن كانت حقائب السفر الكبيرة والأمتعة موجودة بالفعل في الصالة. تذكّر أنّها تعثّرت بها عند ذهابها إلى السرير بعد أن حرصت العمّات على إرسالها إلى النوم في موعدها تمامًا ليتمكنّ من الاستفراد بابن أخيهم اللّطيف.

كانت الشمس قد أشرقت، فتحت روز النافذة ليدخل هواء مايو المنعش قادمًا من البحر. وبينما كانت تنحني على شرفتها الصغيرة، وتشاهد طائرًا يحصل على دودة، وتتساءل إن كانت ستحبّ العم أليك، رأت رجلا يقفز عن سور الحديقة ويصفّر وهو يمشي. في البداية ظنّت أنّه معتد لكن بعدما ألقت نظرة ثانية عليه استطاعت رؤية عمّها وقد بدا عائدًا من غوص مبكر في البحر.

بالكاد تجرّأت على النّظر إليه الليلة الماضية، فكلّما حاولت ذلك رأت عينين زرقاوين حادّتين. الآن يمكنها أن تُمعن النظر إليه وهو يقترب متباطئًا، تنظر إليه بسعادة كما لو أنها ترى المكان القديم مرة أخرى.

رجل بنّي مبتهج في سترة زرقاء وشعر مجعّد بلا قبعة،

مكتبة ياسين

يهزّ رأسه بين الحين والآخر كما لو كان كلب بحر. له كتفان عريضان، رشيق في حركته، تظهر عليه القوّة والثبات، وهو ما أرضى روز رغم أنّها لا تستطع أن تفسّر الرّاحة التي انتابتها. قالت لنفسها بشعور من الارتياح: «أظنّ أنّني سأحبّه رغم كونه يبدو من النوع الذي يحب التحكم بالناس». عندما رفع عينيه رأى وجهًا متلهّفًا يطلّ عليه فلوّح بيده لها وأومأ برأسه وصاح بصوت مبتهج فيه شقاوة:

- «استيقظتِ باكرًا يا ابنة أخي الصغيرة».

- «استيقظتُ لأرى إن كنتَ قد جئت بالفعل يا عمّي».

- «ها أنتِ رأيتني. والآن انزلي وتأكّدي بنفسك».

- «غير مسموح لي بالخروج قبل الإفطار سيدي».

فقال وهو يهزّ كتفيه: «أوه، حقًا!، إذًا سآتي أنا إليكِ».

وما أثار دهشة روز أن العمّ أليك صعد على أحد أعمدة الفناء الخلفي، يدًا فوق يد حتى وصل إلى السطح وأرجح نفسه في الهواء حتى وصل إلى شرفتها، وبينما كان يهبط على سور الشرفة الواسع، قال لها: «هل لديكِ أيّ شكوك حولي الآن، سيدتي؟».

كانت روز مندهشة للغاية من طريقة نزوله، ولم تستطع الإجابة إلّا بابتسامة وهي تقترب منه.

- سألها وهو يأخذ يديها الصغيرتين الباردتين بين كفّيه الكبيرتين الدافئتين: «كيف حال فتاتي هذا الصباح؟».

مكتبة ياسين

- «بحالٍ جيد، شكرًا لك سيدي».

- «أوه، لكن ينبغي أن تكوني بأحسن حال، لماذا هو جيد فقط؟».

- «دائمًا أستيقظ وأنا مرهقة وأشعر بصداع».

- «ألا تنامين جيدًا؟».

- «أستلقي مستيقظة لفترة طويلة ثم أحلم ولا يريحني النوم كثيرًا».

- «ماذا تفعلين طوال اليوم؟».

- «أوه، أقرأ، أحوك قليلًا وآخذ غفوة وأجلس مع عمّتي».

- «ألا يمكنك الركض خارج المنزل أو المساعدة في أعمال منزليّة أو ركوب الخيل؟! كيف ذلك؟».

- «تقول العمّة بلينتي إنّني لست قويّة بما يكفي لممارسة الكثير من النشاطات، أخرج معها في بعض الأحيان لكنّني لا أهتمّ بذلك».

- «إنّ هذا لا يدهشني». قال العمّ أليك، وأضاف سريعًا: «مع من تلعبين؟».

- «لا أحد سوى أنّابيل بليس، لكنّها شخص سخيف ولا يمكنني تحمّلها. أمس أتى الصبية وبَدَوا لطفاء لكن بالطبع لا يمكنّني اللّعب معهم».

- «لِمَ لا؟».

- «أنا أكبر من أن ألعب مع الصبية».

- «ليس لهذه الدّرجة، اللّعب معهم هو ما تحتاجينه

مكتبة ياسين

بالضبط فأنتِ مدلّلة جدًّا. إنّهم فتيان جيّدون وسوف تختلطين معهم أكثر أو أقل لسنوات قادمة، لذلك ربّما ستصبحون أصدقاء ورفقاء لعب في الوقت نفسه. سوف أبحث لكِ عن بعض الفتيات أيضًا إذا استطعت أن أجد فتاة عاقلة لم يفسدها التّعليم غير الصحيح».

صاحت روز وقد تنبّهت فجأة: «فيبي فتاة عاقلة، أنا متأكدة من أنّني أحبّها رغم أنّني رأيتها أمس فقط».

- «ومن هي فيبي لو تسمحين؟».

بلهفة أخبرته روز بكلّ ما تعرفه، واستمع إليها العمّ أليك بابتسامة واسعة، غير مألوفة، لكنّ عينيه ظلتا رصينتين كما لو كانتا تريان الفتاة التي تحكي عنها روز. ثم قال:

- «أنا سعيد بأنّك لست أرستقراطيّة في ذوقك، لكنّني لم أفهم لماذا تحبّين هذه السيدة الصغيرة التي جاءت من بيت فقير».

- «ربما ستسخر منّي لكنّني بالفعل أحببتها، لا أستطيع أن أقول لماذا، لكنّها تبدو سعيدة جدًا ومشغولة وتغنّي بصوت جميل، وهي قويّة بما يكفي لأن تنظّف وتكنس وليس عندها أيّ صعوبات تزعجها».

قالت روز وهي تعرض مجموعة من الأسباب المضحكة، التي هي كلّ جهدها في التفسير.

- «كيف عرفتِ ذلك؟».

- «أوه، لقد أخبرتها بمشاكلي وسألتها إذا كانت عندها صعوبات فقالت: لا، لا أريد سوى الذهاب إلى

مكتبة ياسين

مدرسة، وأعني يومًا ما».

أومأ العمّ بالموافقة، وقال: «إذًا هي لا تعتبر أن الهجر والفقر والعمل الشاق صعوبات؟! إنّها فتاة صغيرة شجاعة وبالتأكيد سأكون فخورًا بمعرفتها».

كلامه جعل روز تتمنّى لو أنّها هي التي استحقّت هذا التنويه.

بعد دقيقة من الصمت، سأل العم أليك: «لكن ما الصعوبات التي تواجهك يا طفلتي؟».

- «من فضلك لا تسألني يا عمّي».

- «ألن تخبريني مثلما أخبرتِ فيبي؟».

نبرة في صوته جعلت روز تشعر أنّ من الأفضل أن تتكلم معه في كلّ شيء وتنتهي من الأمر. فأجابت وقد تغيّر وجهها فجأة وزاغت عيناها:

- «أكبر صعوبة واجهتني هي فقدان أبي العزيز».

عندما قالت ذلك، سحبها العم أليك وأحاطها بذراعيه وقال بصوت يشبه صوت أبيها:

- «هذه صعوبة لن أتمكن من علاجها يا طفلتي، لكنّني سأحاول جعل تأثيرها أقل. ماذا أيضًا يا عزيزتي؟».

- «أنا مرهقة وضعيفة طوال الوقت، لا يمكنني فعل الأشياء التي أريدها وهذا يغضبني».

تنهدت روز وهي تفرك رأسها كطفل غاضب.

- «أعرف كيف أعالج هذا وسنتمكن من تجاوزه».

مكتبة ياسين

قال عمّها وأومأ برأسه إيماءة جعلت شعر رأسه ينزل على جبينه فاستطاعت روز أن ترى الشعر البنيّ تحت شعره الرمادي.

- «تقول العمّة ميرا إنّ صحّتي ليست بخير ولن أكون قويّة أبدًا». عقّبت روز بنبرة متأنّية، كما لو أنّه شيء جيّد أن تكون غير صالحة لشيء.

- «العمّة ميرا هي...(تخنخ العمّ أليك) امرأة ممتازة ولكن هذه هوايتها، تحاول أن تجعل كلّ شخص يصدّق أنه يتأرجح على حافة القبر، وستغضب حقًا لو لم يقع الناس فيه. لكن سوف نريها كيف نعيد إنشاء بنية جديدة ونحوّل وجوه الأشباح الصغيرة الشاحبة إلى وجوه فتيات ورديّة اللون ومعبّرة. هذه هي وظيفتي، وستَرين».

أضاف الجملة الأخيرة بهدوء أكثر بعدما أذهل روز بثورته المفاجئة أوّل كلامه.

- «لقد نسيتُ أنّك طبيب، أنا مسرورة بذلك وأريد أن أكون بصحة جيدة، وأتمنى ألّا تعطيني أدوية كثيرة، فقد أخذت الكثير منها ولم أشعر بأيّ تحسّن».

كانت تكلّمه وتشير إلى منضدة صغيرة خلف النافذة عليها مجموعة من الزجاجات.

- «الآن سنرى ما الأذى الذي تسبّبت به أولئك السيدات المباركات».

ومدّ الدكتور أليك ذراعه على استقامته، ووضع الزجاجات على السور قبالته. تفحّص كلّ زجاجة

مكتبة ياسين

بحِرص، ابتسم لبعضها وعبس للبعض الآخر وقال وهو يضع آخر زجاجة:

- «الآن سأريكِ أفضل طريقة لترتيب هذه الفوضى».

وبسرعة البرق ألقى واحدة وراء الأخرى من على سور الشرفة فتهشمت جميعها.

بسبب ما فعله العم أليك، صاحت روز نصف خائفة ونصف سعيدة: «لكنّ العمّة بلينتي لن يعجبها هذا وستغضب العمّة ميرا، فقد أرسلت الكثير منها».

- «أنتِ منذ الآن مريضتي وسأتحمل المسؤوليّة. طريقتي في وصف الدواء بالتأكيد هي الأفضل وأنتِ بالفعل تبدين بحال جيد».

قال وهو يضحك بشدة لدرجة أنّ روز ضحكت مثله وقالت بوقاحة:

- «إذا لم أحبّ أدويتك أكثر من هذه الأدوية، سألقي بها في الحديقة حتى تتهشّم، عندها ماذا ستفعل؟».

- «عندما أصف مثل هذه القمامة، سأعطي لكِ الإذن بإلقائها في البحر. الآن ما الصعوبات الأخرى التي تواجهينها؟».

- «كنت أتمنى لو تنسى السؤال».

- «لكن كيف يمكنني أن أساعدك إذا لم أعرف تلك الصعوبات. تعالي ودعينا نرى رقم ثلاثة».

مكتبة ياسين

قالت روز في محاولة منها للتعبير عن مشاعرها كما لو كانت دجاجة تائهة وسط ستة أفراخ، جميعهم يقاقون في آن واحد: «إنه خطأ كبير على ما أظن، وكنت أتمنى في أحيان كثيرة ألا أفعل ذلك مع العمّات، كلهن رائعات معي وأريد إرضاءهن جميعا في الوقت نفسه لكنّهن مختلفات جدًا وأشعر بالتمزّق بينهن».

ضحك العمّ أليك كصبيّ ملقيًا رأسه للخلف. بالنسبة له استطاع أن يفهم جيدًا كيف أنّ أولئك السيدات الرائعات تحاول كلّ منهن التجديف في طريقها الخاص وسط هذا الماء الهائج ودهشة المسكينة روز.

- «الآن موعدك مع نظام الأعمام وسوف ترين كيف سيكون مناسبًا لصحتك العامّة، ستكونين مسؤولة بالكامل منّي فقط ولن يوجّه لك أحد أيّ كلمة إذا لم آذن له بذلك. ما من طريقة أخرى لحفظ النظام على ظهر المركب، وأنا سأكون قائدًا لهذا المركب الصغير لبعض الوقت على الأقل، وسنرى ما سيكون بعد ذلك.».

لكنّ روز ظلّت واقفة ووجهها يحمرّ بينما عمّها يحاول تخمين الصعوبة التي تخجل من البوح بها.

ثمّ قالت:

- «لا أعتقد أنّني أستطيع أن أخبرك بهذه الصعوبة، لن يكون هذا شيئًا مهذّبًا وأنا متأكدة أنها لن تظل صعوبة بعد الآن».

وبينما هي تحمرّ خجلا وتتلعثم في كلامها، نظر العمّ

مكتبة ياسين

أليك بعيدًا إلى البحر وقال بجديّة وبعاطفة شديدة لدرجة أنها أحسّت بكلّ كلمة وستظل تتذكرها.

- «طفلتي... لا أتوقع أنكِ سوف تحبينني وتثقين بي تمامًا ومرة واحدة، لكنّني أريدك أن تصدقي بأنّني سوف أمنح كلّ قلبي لهذه المهمة الجديدة، ولو حدثت أخطاء، وربما تحدث، لن يشعر أحدٌ بالمرارة أكثر مني. خطئي أن أكون غريبًا عنكِ في الوقت الذي يتوجّب عليّ أن أكون صديقك المفضل. هذا أحد أخطائي ولن أندم عليه أكثر مما أندم الآن بالفعل. كان بيني وبين أبيكِ مشكلة ذات مرة وظننت أنّني لن أسامحه، لذلك ظللت بعيدًا لسنوات، وأحمد الله أنّ هذه المشكلة انتهت عندما رأيته آخر مرة، وأخبرني وقتها أنّه لو اضطر أن يفارقك سيجعلني الوصيّ عليك كدليل وبرهان على حبّه لي. لا أستطيع أن أملأ مكانه لكن سأحاول أن أكون أبًا لكِ، وإذا تعلمتِ أن تحبّيني نصف الحبّ الذي كنتِ تكنّينه لأبيكِ، فسأكون فخورًا بنفسي وأكون رجلًا سعيدًا. ترى هل ستصدقين ذلك وتحاولين؟»».

شيء ما في وجه العمّ أليك لمَس قلب روز، وحينما رفع يده وفي عينيه تلك النظرة المرتبكة القلقة، مالت على يديْه وقبّلتهما بشفتيها البريئتين كما لو كانت تلك القبلة هي إمضاؤها على عقد بينهما. قرّبها إليه بذراعه القوية فتنهدت بارتياح كبير، ولم ينطق أحدهما بكلمة واحدة حتّى سمعا صوت طرق على الباب.

قالت روز «ادخل» وهي تمدّ رأسها عبر الغرفة، بينما فَرك الدكتور أليك عينيْه سريعًا بكمّه وعاود الصفير.

مكتبة ياسين

ظهرت فيبي ومعها كوبٌ من القهوة.

- «أخبرتني ديبي أن أحضر لكِ هذا الكوب وأساعدك على النهوض».

قالت فيبي وهي تفتح عينيْها السوداوين على اتساعهما كما لو كانت تتساءل كيف يا تُرى جاء هذا «الرجل البحّار» إلى هنا.

- «ارتديت ملابسي كلّها لذا لا أحتاج إلى مساعدة، أتمنى أن يكون ذلك جيدًا».

قالت روز وهي تنظر باشتياق للبخار المتصاعد من كوب القهوة. لكن قبل أن تمدّ يدها لتناوله، امتدّت يد بنيّة واستحوذت عليه وقال عمّها بسرعة:

- « دعيني أفحص هذه الجرعة قبل أن تتناوليها، هل تشربين كل هذه القهوة القويّة كل صباح يا روز؟».

- «نعم سيدي وأحبّها جدًا، تقول عمّتي إنها تقوّيني وأنا بالفعل أشعر بأنّني أفضل بعد تناولها».

- « هذا يفسّر سبب شحوب خديكِ بدلًا من احمرارهما. لا مزيد من القهوة لكِ عزيزتي، ومع التجربة سترين أنّني على حقّ. هل هناك حليب في الطابق السفلي يا فيبي؟».

- «نعم سيدي، هناك الكثير من الحليب الذي جاء من الحظيرة».

- «هذا هو شراب مريضتي، اذهبي وأحضري دورقًا وكوبًا آخر، فأنا عن نفسي أريد أن أشرب أيضًا. هذا

مكتبة ياسين

لن يؤذي (العسلة)(15) فليست لديها أعصاب».

وممّا زاد من انزعاج روز أن ميعاد تناول القهوة سيكون بعد الدواء. رأى الدكتور أليك نظرة المظلوميّة فلم يبدِ أيّ ملاحظة، بل حاول أن يزيل هذه النظرة بقوله بسرور:

- «لقد أحضرت كوبًا كبيرًا بين أمتعتي وسوف أعطيه لكِ لتشربي فيه الحليب. إنّه مصنوع من الخشب ومن المفترض أن يحسّن أيّ شيء يوضع فيه، إنّه شيء يشبه (كأس الكواسيا)(16)، وهذا يذكّرني بأنّ أحد الصناديق التي أرادت فيبي أن تسحبها إلى الطابق العلوي الليلة الماضية يخصّكِ. كنت أعلم أني سآتي إلى هذا المنزل لأرى ابنة جميلة، لذلك جمعت كل الأشياء البسيطة الجميلة من كلّ الأنواع على طول الطريق آملًا أن تجدي فيها ما تحبّينه. غدًا وفي وقت مبكر سيكون عندنا عملية تفتيش كبيرة. هذا هو حليبنا، أتمنى صحة جيدة وشرابًا هانئًا للآنسة روز كامبل».

من المستحيل أن تعبس روز أمام صندوق مبهج كهذا يتراقص أمام عينيها، فابتسمت رغم أنفها وهي تشرب مشروبها الصحّي ووجدت أن ليس من الصعب تناول الحليب الطازج كما كانت تتصوّر.

قال الدكتور أليك وهو يجهّز نفسه للنزول بالطريقة نفسها التي جاء بها: «الآن يجب أن أغادر قبل أن يمسك بي مرّة أخرى وتكشف فعلتي».

سألت روز وهي مندهشة من طُرقه الغريبة: «هل

مكتبة ياسين

تدخل وتخرج دائمًا مثل القطط يا عمّي؟»».

- «كنت أتسلّل من نافذتي عندما كنت صبيًّا، لذلك لا داعي لإزعاج العمّات، والآن أحب ذلك جدًّا لأنّه أقصر طريق وهو يبقيني رشيقًا. ألقاكِ عند الإفطار».

وكما صعد متسلّقًا، هبط واختفى بين أغصان العسلة المزهرة في الأسفل.

قالت فيبي وهي عائدة بالأكواب في يديها: «أليس حارسًا مضحكًا؟»».

- «إنّه شخص طيّب جدًّا على ما أظن».

أجابتها روز وهي تتبعها وتدور حول الصناديق الكبيرة محاولة أن تخمّن أيّ صندوق يخصّها.

عندما ظهر عمّها بعد صوت الجرس، وجدها تتفحّص بوجه قلق طبقًا جديدًا لونه داكن على الطاولة.

سألها عمّها وهو يمسّد على رأسها الناعم: «هل لديكِ صعوبة جديدة يا روز؟»».

ردّت روز بنبرة درامية: «هل ستجعلني آكل شوفانًا يا عمي؟»».

- «ألا تحبينه؟»».

- «إنّني أكرهه بشدّة».

قالت روز بكلّ ما يشير إلى مدى كراهيتها للشوفان... من أنف متأفّفة، وقشعريرة، وتأوهات.

- «أنتِ لست امرأة اسكتلندية إذا لم تحبّي (العصيدة) (17)، يا للأسف، لقد صنعتُها بنفسي واعتقدت أننا

مكتبة ياسين

سنقضي وقتًا جيدًا مستمتعَيْن بالكريمة التي تطفو عليها، حسنًا لا عليكِ».

وجلس وقد بدت عليه خيبة الأمل.

قررت روز أن تكون عنيدة بشأن هذا الأمر لأنّها تكره هذا الطبق من أعماق قلبها، غير أنّ العّم أليك لم يضغط عليها لتطيعه. ثمّ فجأة غيّرت رأيها وفكرت بأنّها تستطيع أكله.

قالت نصف نخلة من عذرها السخيف: «سأجرّبه لأرضيك يا عمّي لكنّ الناس دائمًا يقولون إنّه صحيّ، وهذا سبب كرهي له».

- «أريد منكِ أن تحبّيه لأنّي أتمنى أن تكوني فتاة جيدة وقويّة كأولاد العمّة جيسي الذين ترعرعوا على هذه الأطعمة القديمة الجيّدة، لا خبز ساخن ولا أشياء مقلية، وهم أكبر وأقوى أقرانهم. بارك الله فيكِ أيّتها العمّة وصباح الخير».

استدار الدكتور أليك ليخاطب السيدة العجوز. عندها، بتصميم حازم من روز، وكأنما ارتسم على وجهها: الأكل أو الموت، جلست لتأكل.

بغضون خمس دقائق نسيت ما تأكله وكانت مهتمة للغاية بالدردشة التي استمرت. استمتعت روز كثيرًا بسماع العمّة بلينتي تنادي ابن أخيها البالغ من العمر أربعين عامًا «أيّها الصبيّ العزيز». كان العمّ أليك مفعمًا بالحيوية، متحمسًا لأحاديث النميمة التي تدور حول الناس كلهم وبالأخص تلّ العمّات، وأنهت روز

مكتبة ياسين

العصيدة الكريهة من دون أيّ تذمّر أو شكوى.

قالت السيدة العجوز عندما انتهى الإفطار: «سوف تذهب إلى الكنيسة معنا، أتمنى ذلك يا أليك إذا لم تكن متعبًا».

- «لقد جئت من كلكتا من أجل هذا الغرض الواضح سيدتي، عليّ أن أرسل لأخواتي البنات جوابًا بخصوص وصولي، فهنّ لا يتوقعن مجيئي قبل الغد كما تعرفين، وسيكون هناك الكثير من الصخب في الكنيسة إذا رآني الصبية من دون إبلاغهم بوصوله».

- «سوف أرسل بن إلى التلّ ويمكنك الذهاب إلى ميرا بنفسك، سيسعدها ذلك كثيرًا وسوف يكون أمامك متسع من الوقت».

ذهب الدكتور أليك في الحال واختفى حتى رأوه في عربة قديمة عند الباب بانتظارهم للذهاب معًا إلى الكنيسة. كانت العمة بلينتي تحفّ بأفضل ملابسها في الطابق السفلي وروز وراءها كما لو كانت خيالًا داكنًا صغيرًا.

وبينما هما في العربة يتقدمان باتجاه الكنيسة، سقطت قبعة العم أليك من أعلى رأسه وكان كلّ من يجول في المكان يبتسم له ويحييه ويمنحه أمنيات مبهجة بيوم جميل.

من الواضح أنّ الإبلاغ كان فكرة حكيمة، فقد تجمّع الفتيان في حالة من الهياج لدرجة أنّ الكبار جلسوا في خوف من اندفاع غير مهذب يحدث في المكان. كان

مكتبة ياسين

من المستحيل إبعاد العيون الأربعة عشر عن العم أليك وقد تحدّث إبّان العظة عن أشياء مروّعة من الصعب تصوّر حدوثها.

لفترة قصيرة لم تجرؤ روز على النظر إلى أعلى، حيث كان هؤلاء الصبية السيئون الذين أزعجوها بتصرفاتهم حتّى شعرت بأحاسيس مختلطة بين التسلية والانزعاج، وبين الضحك والبكاء. تشارلي يغمز لها بانتشاء خلف المروحة التي تمسكها أمّه بيدها. ماك يشير إلى تمثال طويل بجوارها. جيمي يحدّق بثبات خلف مقعده لدرجة أن روز ظنّت أن عينيه المستديرتين ستتدحرجان من رأسه. جورج يجلس على مقعد وقد أسقط ثلاثة كتب من شدّة إثارته. ويل ينتزع صور البحارة والرجال الصينيين من على سوار قميصه النظيف ويعرضها أمام روز حتى أحسّت أنّها في مأزق كبير. ستيف أزعج الجميع تقريبًا حينما وضع الملح في أنفه فاحمرّ متظاهرًا أنّ ذلك نوع من المرح. حتى أرشي المحترم أهان نفسه عندما كتب في كتاب الترانيم: «أليس هو أزرق وبنّيّ» ومرّرها بأدب إلى روز.

كان خلاصها الوحيد هو تركيز انتباهها على العم ماك، رجل لطيف، بدين، بدا غير واعٍ تمامًا بآثام العشيرة ونام بسلام في ركن مقعده. هذا هو العم الوحيد الذي قابلته روز في السنوات الأخيرة. فالعمّان جيم وستيف وهما زوجا العمتين جيسي وكلارا، كانا في البحر، أمّا العمّة ميرا فهي أرملة. العم ماك تاجر، رجل ثريّ ومشغول وهادئ، لا يجرؤ أن يفتح شفتيه في حضور

مكتبة ياسين

السيدات ويترك لزوجته تولّي الأمر.

أحبّت روز الرجل الضخم، العطوف، الصامت، الذي جاء إليها عندما توفّى أبوها. وكان يرسل لها دائمًا صناديق من الأشياء الجيّدة للمدرسة، وغالبًا ما يدعوها لمخزنه الكبير الممتلئ بمختلف أنواع الشاي والتوابل والخمور وجميع أنواع الفاكهة الأجنبية، فكانت تأكل وتحمل معها كلّ ما تريد. كانت تتمنى بينها وبين نفسها أن يكون هو الوصيّ عليها، لكن عندما رأت العم أليك شعرت بأنّها أفضل، كما أنّها لم تكن معجبة بشكل خاص بالعمّة جين.

عندما انتهت مراسم الكنيسة، أسرع الدكتور أليك إلى الرواق وهناك عانقه الملاعين الصغار جميعًا في عناق واحد، وصافحته الأخوات ورحّبنَ به بوجوه مشرقة وقلوب سعيدة. كانت روز على وشك أن تُسحق وراء باب مسطح موجود في ممرّ بين المقعد والرواق، لكنّ العمّ أليك أنقذها ووضعها في العربة حفاظًا على سلامتها. قالت العمّة بلينتي وهي تتبع روز:

- «الآن يا فتيات أريد منكن المجيء إلى المنزل وتناول العشاء مع أليك وماك بالطبع، لكنّني لن أطلب ذلك من الصبية فلم نكن نتوقّع مجيء الرفيق العزيز قبل الغد، فكما تعلمون، لم أقم بأيّ استعدادات. أرسلوا الفتيان إلى المنزل ودعوهم ينتظرون حتّى يوم الاثنين، فإنّني في الحقيقة صدمت من سلوكهم في الكنيسة».

لو كانوا في مكان آخر لما كفّ الصبية عن الولولة والنواح، غير أنّهم تذمّروا واعترضوا بالفعل حتى سوّى

مكتبة ياسين

العمّ أليك هذه المشكلة بقوله:

- «لا عليكم أيّها الشباب الأقوياء، سوف أرتّب الأمور لكم غدًا لو تصرفتم بهدوء وإذا لم يحدث ذلك لن تنالوا أيّ شيء من صناديقي الكبيرة».

مكتبة ياسين

الفصل الرابع
العمّات

أحسّت روز طوال وقت العشاء بأنّها محور الحديث كله، وبعدها تأكّد هذا الشعور لديها، حيث إن العمّة بلينتي همست لها وهما في طريقهما إلى حجرة الاستقبال:

- «أسرعي واجلسي لفترة قصيرة مع الأخت بيس يا عزيزتي، فهي تحبّ أن تقرئي لها إبّان استراحتها، فنحن سوف نكون جميعًا منشغلين».

أطاعتها روز. في الأعلى تبدو الحجرات هادئة كما في كنيسة، لذا سرعان ما تكوّنت لديها مشاعر مزعجة. غير أنّها، وبشكل غير واعٍ، خامرها نوع من السعادة تجاه تلك السيدة الجميلة العجوز التي كابدت وصبرت لسنوات طوال حتى يندمل جرحها.

هذا الشعور الرومانسي طاف بمخيلة روز، وهو ما أعطى عمّاتها العظيمات سحرًا خاصًا لديها، عمّاتها اللاتي تحجبن حقًا. عندما كانت بيس في العشرين من عمرها، كانت على وشك الزواج وكان كلّ شيء جاهزًا، بدءًا من فستان زفافها حتى الورود التي ستضعها. ولما حانت الساعة المنتظرة، جاءها خبر وفاة حبيبها. ظنّوا جميعًا أن بيس الرقيقة ستموت أيضًا، لكنّها تحمّلت الموقف بشجاعة، ووضعت ملابس الزفاف بعيدًا وبدأت حياتها من جديد. كانت امرأة جميلة ووديعة، شعرها أبيض كالثلج وخداها شاحبان. لم ترتدِ الأسود، لكنّها ارتدت ألوانًا هادئة شاحبة كما لو كانت مستعدة دائمًا للزوج

مكتبة ياسين

الذي لن يأتي.

منذ ثلاثين عامًا تعيش بيس على هذا الحال، تذبل ببطء، لكنّها بشوشة ومنشغلة ومهتمّة بكل ما يجرى حولها في العائلة، خاصة الأفراح والأحزان للفتيات الصغيرات اللاتي يكبرن حولها. كانت مرشدةً لهنّ ومصدر ثقة وصديقة في كلّ تجاربهن ومسرّاتهن. حقًا، إنّها عذراء عجوز جميلة بشعرها الفضّي ووجهها الهادئ والراحة التي يشعر بها كلّ من كان في حضرتها.

العمّة بلينتي مختلفة تمامًا عنها، سيدة عجوز قويّة ونشيطة ولديها عينان حادتان ولسان مفعم بالحيوية ووجه مثل تفاحة الشتاء. سريعة الحركة، نشيطة وتدردش باستمرار. كانت أقرب ما تكون إلى القديسة مرتا(18)، منشغلة بهموم من حولها وسعيدة بهذا الانشغال.

كانت روز على حقّ، فبينما كانت تقرأ المزامير بصوت خافت للعمّة بيس، كانت السيدات الأخريات يتحدثن عنها.

- «حسنًا أليك، كيف ترى وصايتك؟».

بدأت العمّة جين حديثها واستقرّ كلّ واحد منهم في مكانه، بينما العم ماك استقرّ في ركن ليواصل غفوته.

- «أظن أنّني كنت سأحبّ مسألة الوصاية أكثر لو بدأتُ معها كلّ شيء من البداية، عندها ستكون بداية جيدة ننطلق منها. مسكين جورج، عاش حياة منعزلة تسبّبت في معاناة الطفلة بطرق عديدة، ومنذ أن توفّى والبنت في وضع مزرٍ، أنا أحكم من منطلق رؤيتي لها».

مكتبة ياسين

- «ولدي العزيز، لقد فعلنا ما كنّا نظنّ أنه الأفضل أثناء انتظارنا لتنهي أمورك وتعود إلى المنزل. لطالما أخبرت جورج أنّه كان مخطئًا في تربيتها بهذه الطريقة، لكنه لم يأخذ بنصيحتي، وها نحن الآن بين أيدينا هذه الطفلة العزيزة المسكينة. أنا على سبيل المثال لا أعرف كيف أتصرّف معها أكثر من معرفتي كيف أتصرّف مع الطيور الغريبة التي تأتي بها إلى المنزل من البلاد الأجنبية».

هزّت العمّة بلينتي رأسها في حيرة، فاهتزّت الحلقات المربوطة على الشريطة البنفسجية لقبّعتها كبراعم الزعفران، وقالت السيدة جين بقوة:

- «لو كانت قد عملت بنصيحتي، كانت ستبقى في المدرسة الممتازة التي ألحقتها بها، لكنّ عمّتنا اعتقدت أنّه من الأفضل إبعادها عن هذه المدرسة. ومنذ أن حدث ذلك وهي تتسكّع من دون هدف، حالة من الفوضى تمثّلها تلك الفتاة المدلّلة روز».

لم تغفر لأولئك السيدات العجائز استجابتهن لتوسلات روز بأن تنتظر حتّى وصول الوصيّ عليها لكي تبدأ فصلًا دراسيًّا آخر في المدرسة. من شأن مدرسة بليمبر أن تجعل روز سيدة مجتمع حقيقيّة.

- «لا أظن إطلاقًا أن تلك المدرسة مناسبة لطفل أحواله جيدة، أو وريث لثروة ضخمة مثل روز إنها مناسبة أكثر للفتيات اللاتي يكسبنَ عيشهن من التدريس أو شيء من هذا القبيل. كلّ ما تحتاجه هو عام أو اثنان في مدرسة حديثة راقية تخرج منها، وهي

مكتبة ياسين

في الثامنة عشرة من عمرها، بشهرة كبيرة».

أضافت العمّة كلارا، السيدة التي تمتلك قدرًا كبيرًا من الجمال ولا زالت سيدة أنيقة.

- «انتبهوا يا أعزائي، ما مدى قِصَر نظركم عند مناقشة خطط التعليم المستقبلية، في حين أنّ هذه الطفلة تعيسة كالقبر».

تنهدت العمّة ميرا وتنشّقت في كآبة وهي تهزّ قلنسوتها الجنائزية التي ترفض أن تخلعها لإصابتها بزكام مزمن.

قالت العمّة جيسي والدموع تلتمع في عينيها وفكرة أنّ أولادها بعيدون عنها تسيطر عليها كحال روز كما ظنّت: «الآن، من وجهة نظري، إنّ أكثر ما هي بحاجة إليه، الحرية والراحة والاهتمام، وهذا يظهر في نظرة عينيها التي تخترق قلبي، والتي تعني أنّها بحاجة إلى شيء لن يستطع أحد منحه لها ألا وهو الأم».

استدار العم أليك الذي استمع جيدًا لكلّ واحدة باسمها، حتى الأخت الأخيرة، ثم قال بإيماءة تدل على الموافقة:

- «أنتِ على حقّ يا جيسي، وبمساعدتكن أتمنى أن أجعل الطفلة لا تشعر بفقدان أمّها وأبيها».

اتجهت السيدة جيسي ناحيته بابتسامة، وبقلب مليء بمشاعر الأمومة وحسن النية، قالت: «سأبذل قصارى جهدي يا أليك، وأعتقد أنّك ستحتاجني لأنّني حكيمة مثلك وأنت لن تستطيع فهم مخلوقة صغيرة، حسّاسة ونجولة مثل روز كما يمكن لامرأة أن تفعل».

مكتبة ياسين

علّقت العمّة ميرا بجدّية مشوبة بالشجن: «لا يسعني إلا الشعور بأنّني الأنسب لتربية روز، فأنا الوحيدة التي أنجبت بنتًا، وأنا مندهشة للغاية بأنّ جورج لم يوكّلني وصيّة عليها». فهي بالفعل الوحيدة التي تمتلك ابنة في العائلة وشعرت أنّ هذا الشيء يجب أن يميّزها على الرغم من أنّ أناسًا سيئو الخلق أشاعوا أنها أعطت ابنتها جرعة كبيرة من دواء تسبّبت في موتها.

قالت السيدة جين بصوت قويّ: «في نهاية الأمر أنا لا ألومه، حينما أتذكّر التجارب المخيفة التي مررتِ بها مع كاري المسكينة...».

صاحت العمّة ميرا وهي تنهض كما لو كانت ستترك الغرفة: «جين كامبل.. لن أسمع كلمة بعد ذلك، ابنتي كارولين لها قدسيتها».

لحق بها الدكتور أليك، فقد شعر أنّ من واجبه حسم الأمر في الحال والمحافظة على إرضاء جميع الأطراف بذكاء إن كان يريد لمهمته الجديدة النجاح.

- «الآن يا عزيزاتي، لا تتشاجرن وتجعلن من روز سببًا للخلاف، وهي حقًا ليست سوى فتاة نحيلة ومسكينة. لقد كانت بينكن قرابة العام وفعلتنّ ما أحببتنّ، ولا أستطيع أن أقول بأن نجاحكن كان عظيمًا وذلك بسبب كثرة الأيادي في الفطيرة. الآن سأجرّب طريقتي لمدة عام وفي النهاية، إذا لم تكن في حال أفضل من التي عليه فسأتنازل عن القضية وأوكلها لشخص آخر، أظنّ أنّ هذا عادل».

قالت العمّة ميرا وهي تثني قفازيها السوداوين كما لو

مكتبة ياسين

كان كلّ شيء جاهز للجنازة: «حبيبتي المسكينة لن تكون هنا بعد سنة، لذا لن يكون على أحد أن يتحمّل تلك المسؤولية المخيفة في المستقبل».

صاح الدكتور أليك بلمعة مفاجئة في عينيه: «بحق جوبتير(١٩)! ميرا، أنت كفيلة بإطفاء حماسة القديسين، تشاؤمك هذا سيجمّد الدم في عروق الطفلة، فهي قطة خيالية وستتلاشى من كثرة المخاوف التي زرعتِها في رأسها، مثل فكرة أن صحّتها سيّئة، وهي أحبّت تلك الفكرة. لكن لو كانت صحّتها بهذا السوء لكانت وصفت 'بالقبر' فعلًا. هذه الصفة التي دائمًا ما تذكّرينها بها، وبهذه الطريقة لن يكون لعملي معها أيّ أثر، أرجوكِ افهمي ذلك. لذا دعيها وشأنها واتركيني أتحمّل مسؤوليتها وإذا احتجت المساعدة سوف أطلبها».

- «مهلا... مهلا».

جاء هذا الصوت من الزاوية التي كان فيها العم ماك غارقًا في نومه.

أجابته السيدة جين بتأفف: «لقد عُيّنتَ وصيًّا وانتهى الأمر ولم يعد بمقدورنا فعل شيء، لكنّني أتنبّأ أنّ هذه الفتاة ستكون فاسدة ومدلّلة جدًا».

- «أشكرك يا أختي. أظنّ أنّ لديّ فكرة حول هذا الأمر، إذا استطاعت امرأة مثلًا أن تربي ولدَين بشكلٍ مثالي مثلما فعلتِ، يمكن لرجل لو كرّس عقله كاملًا لهذا الأمر أن ينجح على الأقل في المحاولة مع فتاة واحدة».

مكتبة ياسين

ردّ الدكتور أليك بروح الدعابة التي تدغدغ الآخرين بشكل كبير، فقد كان معروفًا في العائلة أن أبناء العمّة جين أكثر الفتيان تدلّلًا.

- «الأمور بالنسبة لي بسيطة جدًا، فأنا أظنّ أن صحّتها العامّة ستتحسن مع أليك وعندما تنتهي هذه السنة يمكنها الذهاب إلى مدام روكابيلا وينتهي الأمر».

قالت العمّة كلارا وهي تعدّل من وضع خواتمها وتفكر بقناعة ورضا عن الوقت الذي ستصير فيه بنت أخيها جميلة وبارعة.

علقت السيدة جين منزعجة من تلميح أخيها عليها: «أظنّ أنك ستبقى هنا في هذا المكان القديم حتّى تفكر في الزواج، وأعتقد أنّ الوقت قد حان لفعل ذلك».

ردّ الدكتور أليك فورًا: «لا، شكرًا. تعالَ واشرب سيجارًا معي يا ماك».

تمتم العم ماك: «لا تتزوج، فقد اكتفينا من النساء في العائلة».

جاءت روز برسالة قبل أن تستأنف النساء حديثهنّ مرة أخرى: «العمّة بيس تريد رؤيتكنّ جميعًا».

تمتمت العمّة ميرا: «يا إلهي، أسرعوا، أسرعوا». وسقط ظلّ قلنسوتها الكئيبة على روز وأطراف قفازها الجافة لمست أعلى خد روز بينما كان الجميع يشاهد.

- «أنا سعيدة بهذه الضفائر الطبيعية الجميلة لكن مع الأسف سيضحون بها بلا فائدة بعد فترة قصيرة». أبدت العمّة كلارا ملاحظتها بعد أن شاهدت جانبًا

مكتبة ياسين

واحدًا فقط من رأسها.

فأضافت العمّة جين وهي تندفع خارج الغرفة ونتنفس الصعداء: «أنا سعيدة بعودة عمّك ولن أنتظر منكِ بعد الآن مراجعة دروس العام الماضي، أنا واثقة أنّكِ لن تضيعي وقتك كلّه في رياضات تافهة».

لم تقل العمّة جيسي كلمة واحدة لكنّها قبّلت ابنة أخيها الصغيرة بنظرة كلّها تعاطف ما جعل روز تتشبث بها لدقيقة وتتبعها بعيون ممتنّة إبّان إغلاق الباب وراءها.

بعد عودة كلّ شخص إلى منزله، خطا الدكتور أليك جيئة وذهابًا في الصالة لمدة ساعة، يفكّر باهتمام شديد لدرجة أنّه كان أحيانًا يعبس وأحيانًا أخرى يبتسم وأكثر من مرة يقف شارد الذهن. فجأة قال بصوت عال وكأنه قد اتخذ قراره:

- «قد أبدأ مرة واحدة وأعطي للطفلة شيئًا جديدًا تفكر فيه، فكآبة ميرا ومحاضرات جين جعلت الفتاة تبدو زرقاء كالحقائب النيلية الصغيرة».

غاص في إحدى الحقائب في الزاوية، وبعد تفتيش سريع أخرج منها وسادة من الحرير، مزركشة بشكل جميل، وكوبا جذّابًا من الخشب الداكن المنحوت. ثم قال وهو ينفش الوسادة وينفض الغبار عن الكوب:

- «سيكون هذا كافيًا لبداية جيدة، فليس من الجيّد البدء بنشاط شديد وإلا ستخاف روز. يجب أن أغويها بلطف ولين حتى أفوز بثقتها وبعد ذلك ستكون جاهزة

لأيّ شيء.»

في هذا الوقت، خرجت فيبي من غرفة السفرة ومعها طبق من الخبز البنّي، فلم يعد يسمح لروز بتناول البسكويت مع الشاي.

قال الدكتور أليك: «سوف أريحك من جزء كبير منه». وأخذ شريحة كبيرة وعاد لشرود ذهنه تاركًا فيبي تتعجب من شهيته.

كانت ستتعجب أكثر لو شاهدته وهو يصنع هذا الخبز البنّي من حبوب صغيرة غريبة وضعها في صندوق عاجيّ جذّاب للغاية كان قد أفرغه للتو من فتات الكرفس خاصته.

- «هناك... لو أصرّوا على الدواء سأحضر لهم هذا وحينها لن يقع أيّ ضرر. سوف أتبنّى طريقتي الخاصة، لكنّني سأحافظ على السلام في هذا المنزل قدر الإمكان وسأعترف، لو نجحت تجربتي، بأنّها كانت مزحة رائعة». يقول ذلك لنفسه وينظر كما لو كان صبيًا مشاكسًا ينسج خططًا بريئة.

كانت روز تعزف بنعومة على الأرغول الصغير الموجود في الصالة العلوية، والعمّة بيس كانت تنصت باستمتاع، وإيّان حديثه مع العمّات العجائز ظلّ يستمع إلى الموسيقى المتقطعة المنبعثة من روز ويفكّر في روز أخرى تعزف الموسيقى وتعيش في سلام.

وعندما دقّت الساعة الثامنة صاح العم: «لقد حان وقت ذهاب فتاتي لسريرها وإلا لن تستطيع الاستيقاظ

مكتبة ياسين

مبكرًا. وأنا عندي خطط مبهجة للغد، تعالي وشاهدي ما وجدته لكِ».

جَرّت روز إليه بوجه بشوش متنبّه تستمع لما يقوله العم أليك بطريقة مثيرة للإعجاب:

- «أثناء تجوالي في بقاع الأرض انتقيت بعض أشكال العلاج الممتازة، ولأنها مقبولة نوعًا ما أعتقد أنّني وأنتِ سنجربها معًا. هذه وسادة من الأعشاب أعطتها لي سيدة عجوز حكيمة عندما كنت في الهند، إنّها محشوة بالزعفران، الخشخاش وغيرها من النباتات المهدئة، لذا أريحي رأسك عليها طوال الليل وستنامين نومًا هانئًا من دون أحلام وتصحين من دون ألم».

- «أصحيح ما تقول؟»، وضغطت بأنفها عليها، وأضافت: «حقًا كم أنّ رائحتها جميلة!».

وبطواعية أخذت روز الوسادة الجميلة مستمتعة برائحتها الحلوة الهادئة بينما يُكمل الدكتور الشرح عن علاجاته.

- «هذا هو الكوب الذي أخبرتك عنه، نفعه يعتمد على الطريقة التي سيملأه بها الشارب، لذلك يجب أن تتعلّمي كيف تستفيدين منه إلى أقصى حد وسوف أعلّمك ذلك».

- «أخشى أنّني لن أستطيع أبدًا». قالت روز ذلك لكنّها بدأت تستكشف الكوب بامتنان ورأت كما لو كان عفريت صغير مضحك يرقص على مقبض الكوب كأنّه يستعد لأن يقفز برأسه في البحر الأبيض داخل الكوب.

مكتبة ياسين

- «ألا تعتقد أنّها بحاجة إلى شيء أقوى من الحليب يا أليك؟ أنا بالفعل قلقة من كونها لا تأخذ مقويّات أو شيئًا من هذا القبيل».

قالت العمّة بلينتي وهي تتفحّص أنواع العلاج الجديدة بشكل مريب، فهي تثق بعلاجها القديم أكثر من كلّ هذه الكؤوس السحريّة ووسائد الخشخاش من الشرق.

- «حسنًا يا سيدتي أنا على استعداد لأن أعطيها حبوبًا طبيّة لو كان في اعتقادك أنّ ذلك أفضل. هذا شيء بسيط جدًا وكميات كبيرة منه لن تحدث أيّ ضرر. هل تعرفين أن الحشيش(20) مستخلص من نبات القنب؟ حسنًا هو تركيبة من الذرة والشيلم(21) استُخدم كثيرًا في العصور القديمة وأتمنّى أن يستخدم مرة أخرى».

- «عزيزي.. كم هو فريد».

تقول العمة بلينتي وهي تحضر نظارتها لترى الحبوب بوجه مليء باحترام أكثر حتى ممّا يستحقه الدكتور أليك.

- «خذي واحدة في الصباح وليلة سعيدة لكِ يا عزيزتي».

قال وهو يودّع مريضته بقبلة من القلب ثم اختفت روز فوضع يديه في شعره ومزيج مضحك من مشاعر القلق والتسلية يسيطر عليه.

- «حينما أفكر في الواجبات التي عليّ الالتزام بها أشعر يا عمتي كما لو أنّني مضطر للهرب من هنا من دون

مكتبة ياسين

العودة مرة أخرى إلا وروز قد جاوزت الثامنة عشرة».

مكتبة ياسين

الفصل الخامس
صندوق وحزام

في الصباح التالي، خرجت روز من حجرتها والكوب في يدها، كان أوّل ما رأته هو العم أليك واقفًا على عتبة باب الحجرة المقابلة. كان يقف هناك بانتظارها ليعتني بها. وعندما سمع وقع خطواتها، استدار وبدأ في الغناء.

- «إلى أين أنتِ ذاهبة يا فتاتي الجميلة؟»».

أجابت روز وهي تلوّح بالكوب: «أنا ذاهبة لأملأه بالحليب»».

بعد أن انتهيا من الغناء معًا بشكل متناسق، وقبل أن يبدآ حديثهما، خرج من غرفة أسفل الصالة رأس بطاقية نوم كبيرة ومنقوشة لدرجة أنّها كانت تشبه الكرنب، وصاح بصوت مندهش: «ما الذي يمكن أن تفعلاه في وقت مبكر كهذا؟»».

قال الدكتور أليك وهو يخني لها انحناءة بحّار: «نجلو أصواتنا لنبدأ اليوم يا سيدتي، انظري هنا يا عمّتي هل يمكنني أن أشغل تلك الحجرة؟»».

- «خذ أيّ غرفة تحبّها، عدا غرفة الأخوات»».

- «شكرًا، وهل يمكنني التفتيش في الغُرف العليا وكافة الأماكن لأفرشها كما أحبّ؟»».

- «ولدي العزيز.. يمكنك أن تقلب المنزل رأسًا على عقب إذا كنتَ فقط ستبقى فيه»».

مكتبة ياسين

- «هذا عرض مناسب أنا متأكد، سأبقى يا سيدتي، فهنا ملاذي الصغير وأظنّ أنّني سأظلّ حتى تملّي مني».

- «هذا مستحيل! ارتدي سترتكِ يا روز. ولا ترهقها بهذه التفاهات يا أليك. نعم أختي سآتي حالا».

واختفى رأس الكرنب فجأة.

كان الدّرس الأول عن طريقة الحلّب مضحكًا، لكن بعد عدّة مخاوف، والعديد من المحاولات العبثيّة، تمكنت روز أخيرًا من ملء كوبها بينما يمسك بن بذيل كلوفر حتّى لا تتحرك، والدكتور أليك يحاول منعها من الاستدارة كي لا ترى البنت الجديدة التي تحلبها، غير أنّ البقرة كلوفر كانت تعترض على هذه الإجراءات بشدّة.

قال الدكتور بينما يخرجان من الحظيرة:

- «تبدين باردة، رغم كلّ الضحك الذي ضحكناه، خذي جولة حول الحديقة كي تحصلي على بعض الدفء».

قالت روز باحتشام: «لقد كبرتُ على الجري يا عمّي، الآنسة باور تقول إنّه لا يليق بالفتيات المراهقات الجري هكذا».

قال أليك: «سوف أسمح لنفسي بالاختلاف مع مدام (حكمة) (22)، وباعتباري طبيبك الخاص آمرك بالجري، انصرفي!». وأتبع كلامه بنظرة وإيماءة جعلت روز تنطلق مسرعة قدر استطاعتها.

حريصة على إرضائه، ركضت حول الأسرّة وعادت

مكتبة ياسين

إلى الشرفة حيث يقف، ثم نزلت على الدرج وعادت لتصعد، وجلست تلهث بخدود وردية مثل لون الشال الذي على كتفيها.

- «حسنًا، جهد طيّب يا طفلتي، أرى أنّكِ لم تفقدي أيًّا من أطرافك بالرغم من بلوغك سن المراهقة. هذا الحزام ضيق جدًا، حاولي توسيعه قليلًا، وسيكون باستطاعتك عندها التنفس من دون أن تلهثي».

- «ليس ضيّقًا يا سيدي، أستطيع أن أتنفس بشكل جيد».

بدأت روز محاولة تهدئة نفسها. كانت ردة فعل عمّها على هذا الكلام بأن رفعها وفك الحزام الجديد الذي كانت مخورة به. وعندما انفتح قفل الحزام وتوسّع عدة بوصات كان من المستحيل عليها إنكار الراحة التي أحسّت بها على الرغم من كل كلامها السابق.

شرحت روز منزعجة من هذا الاكتشاف: «لماذا لم أعرف أنّه ضيّق، لم أشعر للحظة بأنّه هكذا، بالطبع كان سينفكّ لوحده لو لهثت كما ألهث الآن، لكن لن يحصل ذلك لأنّني بالكاد أجري».

- «أرى أنكِ لا تملأين نصف رئتيكِ بالهواء، لذا أنتِ ترتدين هذا الشيء التافه من دون أن تشعري به. كيف يمكن تقييد خصر صغير بربطة صلبة من الجلد والمعدن في الوقت الذي من المفترض فيه أن ينمو».

قال الدكتور أليك وهو يفحص الحزام باستياء شديد بينما ينقل قفل الحزام للأمام عدة فتحات ما أدّى

مكتبة ياسين

إلى ارتباك روز التي كانت مخمورة بهيئتها النحيفة، فقد كان يسعدها أنّها لم تكن سمينة مثل لولي ميلر صديقتها السابقة في المدرسة، التي حاولت من دون جدوى التخلّص من سمنتها.

قالت روز بقلق وهي واقفة تراقب حزامها الثمين: «سوف يسقط إذا انفتح أكثر من ذلك».

- «لن يحدث ذلك لو تنفستِ بعمق وهو ما أريد منكِ أن تفعليه، وكلّما ملأتِ حزامك نقوم بتوسيعه حتى يصبح خصرك شبيهًا بهيبي إلهة الصحة وأقل شبهًا بعارضات الأزياء القبيحات».

- «كيف سيبدو شكله؟». نظرت نظرة استهزاء للحزام المفكوك المعلق حول خصرها. وأضافت:

- «سوف يضيع وساعتها سأشعر بالسوء فهو يُكلّف الكثير لأن معدنه حقيقي وجلده روسي. عليكَ فقط أن تشمّ رائحته».

قال أليك:

- «لو ضاع سأشتري لكِ واحدًا أفضل منه، حزامًا ناعمًا من الحرير يناسب طفلة جميلة مثلك أكثر من هذا اللّجام المطاطيّ. ولديّ الكثير من الأوشحة الإيطالية والأحزمة التركية بين أمتعتي، وهذا ما يجعلكِ تشعرين بأنكِ أفضل، أليس كذلك؟».

وقرصها من خدها الذي خالجته ابتسامة.

- «إنه أمر سخيف للغاية بالنسبة لي، لكن لا يسعني إلا أن أحبّ معرفة ذلك».

مكتبة ياسين

توقفت هنا واحمرت خجلا وأمسكت رأسها خجلة قبل أن تضيف:

- «هل تعتقد أنني جميلة؟».

لمعت ابتسامة في عينيّ الدكتور أليك، لكنّه قال بجديّة شديدة: «روز، هل أنتِ تافهة؟».

أجاب صوتٌ وديع جدًا من وراء شعرها الذي بدا كستارة تخبئ وراءها وجهًا شديد الاحمرار: «أخشى أنّني كذلك بالفعل».

وتنهد كما لو أنّه حزين من هذا الاعتراف. وقال:

- «هذا خطأ محزن».

- «أعلم أنه خطأ كبير، حاولت ألا أكون تافهة فعلًا لكنّ الناس يمتدحونني ولا أستطيع أن أمنع نفسي من محبة هذا المديح، أنا لا أعتقد أنّني قبيحة فعلا».

الجملة الأخيرة ونبرة الصوت المضحكة كانت أكثر من قدرة الدكتور أليك على الاحتمال فانفجرت ضحكته من دون إرادة منه.

- «أنا أتفق معكِ إلى حدّ ما، وفي حال رغبتِ أن تظلّي غير قبيحة كما تعتقدين، كفتاة جميلة مثل فيبي، عليكِ أن تنضجي».

نظرت روز بدهشة شديدة إلى عمّها الذي بدت عليه الجديّة الشديدة مرة أخرى: «فيبي!».

- «نعم فيبي، لديها ما تحتاجينه من الصحّة. لو أنكنّ فقط يا فتياتي الصغيرات تعرفن المعنى الحقيقي للجمال،

مكتبة ياسين

وأنه ليس قرص الخدود والحرمان من الطعام ووضع المساحيق الكيميائية، على الأقل ستوفرن الكثير من الوقت والأموال والألم. الروح المنطلقة السعيدة والجسم الصحيح هو الذي يبرز الجمال الحقيقي سواء للرجل أو المرأة، هل تفهمينني يا عزيزتي؟»».

أجابت روز وهي تشعر بسخف مقارنتها بفتاة جاءت من بيت فقير: «نعم سيدي». لكنّ كلام عمّها أغضبها، فأظهرت غضبها بقولها: «أظن أنكَ تريدني أن أكنس وأمسح الأرضيّة، وأن أرتدي فستانًا بنيًا قديمًا بأكمام مشمّرة كما تفعل فيبي؟»».

- «أريد ذلك بشدة. ليتكِ تستطيعين العمل مثل فيبي والكشف عن قوة ذراعيكِ مثلها. لم أر في صباح هذا اليوم صورة أجمل من منظرها وأكمامها مشمّرة حتى مرفقيها، تقف بين رغوة الصابون تغني كشحرورة في حين كانت تحك السلم الخلفي».

- «حسنًا، أنا بالفعل أعتقد أنّك أغرب رجل رأيته في حياتي».

كان هذا هو كل ما استطاعت روز أن تجده لتنطق به بعد هذا الكلام السخيف.

«أنا لم أبدأ حتى الآن في الكشف عن غرائبي، لذا عليكِ أن تستعدي لتري الأسوأ». قال ذلك بنظرة شقيّة.

أسعدها سماع صوت جرس الباب لأنّه منعها من التعبير عن رأيها بكل صراحة، وأن تقول له إلى أي

مكتبة ياسين

حدّ كان كلّ كلامه أباطيل وضلالات.

قال الدكتور أليك إبّان نهوضهما بعد أن أنهيا إفطارهما:

- «ستجدين الصندوق الخاص بكِ في غرفة العمّة، ويمكنك هناك تسليتها وتسلية نفسك بالبحث عما يجذبك، لقد قضيتُ الصباح بأكمله في تجهيز غرفتي».

سألته روز في محاولة منها لتكون مفيدة: «أتحتاج إلى مساعدتي يا عمّي؟».

- «لا، شكرًا لكِ سأستعير فيبي لفترة قصيرة إذا استغنت عنها العمّة بلينتي».

تدخلت العمة بلينتي على الفور:

- «أيّ شخص، أيّ شيء متاح لكَ يا أليك، أنا أعلم أنك ستحتاجني، سأعطي أوامر بخصوص العشاء وأتفرّغ لك».

وابتعدت السيدة العجوز وعلى وجهها يرتسم الاهتمام والإرادة.

«سيكتشف عمّي بأنّني أستطيع القيام بأعمال لا تقدر فيبي على القيام بها»، فكّرت روز وهزّت رأسها وهي تنطلق إلى العمّة بيس والصندوق الذي طال انتظاره.

كل فتاة صغيرة يمكنها بسهولة أن تتخيّل الوقت الرائع الذي ستحظى به عند غوصها في بحر من الكنوز وعثورها على أشياء جميلة الواحدة تلو الأخرى، حتّى إنّ الهواء امتلأ بالمسك وخشب الصندل، الحجرة مملوءة بألوان براقة، وروز في نشوة من الفرح. بدأت تغفر

مكتبة ياسين

للدكتور أليك نظام الشوفان الغذائي عندما رأت علبة أدوات التجميل المصنوعة من العاج الجميل. استسلمت لشعور عدم ارتداء الحزام عندما رأت كومة من الأحزمة الملوّنة بألوان قوس قزح. ولمّا وقعت يدها على زجاجات عطر الورد التي جذبت انتباهها، شعرت بأنّ الزجاجات كفّرت عن ذنب الدكتور أليك حينما صرّح بأنّ فيبي أفضل منها.

استغل الدكتور أليك حماسة العمّة بلينتي وقلَب المنزل رأسًا على عقب. بدا أن ثورة عارمة أصابت حجرة استقبال الضيوف، ستائر البروكار الدمشقي(2.3) متكوّمة على ذراع فيبي، بن يحمل على كتفه المدفأة في طريقها إلى غرفة التخزين، وأجزاء السرير العظيم العتيق الطراز في طريقها إلى الحجرة العلوية يحملها ثلاثة شيّالين. كانت العمة بلينتي تهرول بين حجرات التخزين، وصناديق الكافور والدواليب كما لو أن الترتيب الجديد للأشياء يدهشها ويسلّيها.

نصف مهام الدكتور أليك لم تكن واضحة، لكنّ روز لمحته من فوق صندوقها يتمشّى حاملًا كرسيًّا من الخيزران وزوجًا من مواقد الحطب المشتعل وشاشة يابانية غريبة وسجادة أو اثنتين، وأخيرًا حوض استحمام كبير على رأسه.

قالت بينما جلست لتستريح وتنعش نفسها بالحلوى اللذيذة: «يا لها من غرفة ستبدو عجيبة بكلّ تأكيد!».

أجابت العمّة بيس وهي ترفع بصرها بابتسامة عن قطعة من الحرير الأزرق والشاش الأبيض: «أعتقد أنّها

مكتبة ياسين

ستعجبك يا عزيزتي»».

لم تلحظ روز ابتسامتها، وفي اللحظة نفسها وقف عمّها عند الباب، فاندفعت أمامه لترقص قائلة بوجه مليء بالسعادة الطفولية:

- «انظر إليَّ! انظر إليَّ! إنّني رائعة، حتى إنّني لم أعرف نفسي، سوف أتجرأ وأقول إنّني لم أرتدِ هذه الأشياء بشكل صحيح لكنّني أحببت شكلها على أيّ حال»».

قال العمّ أليك وهو يتفحص الشخصيّة التي تقف أمامه باستحسان عظيم: «تبدين مبهجة كالببغاء بهذه العمامة وهذا الزيّ، وقد انتعش قلبي حينما رأيت هذا الظلّ الصغير الأسود يتحوّل إلى قوس قزح»».

لم يقل لها إنّها صنعت صورة أجمل بكثير من صورة فيبي وهي تقف أمام حوض الغسيل، لكنّه فكّر بذلك، لقد علّقت على رأسها الأشقر طربوشًا بنفسجيًّا، ربطت أوشحة ملوّنة عديدة حول خصرها، ارتدت سترة بديعة قرمزية اللون بشمس ذهبيّة مزركشة على الظهر وقر فضيّ من الأمام ونجوم بجميع الأحجام على الأكمام، كما زيّن زوج من الشبشب التركي قدميها وعقد مزخرف بالكهرمان والمرجان طوّق رقبتها بينما كانت تمسك في إحدى يديها زجاجة أملاح الشم(2.4) وفي الأخرى تمسك بصندوق مليء بالحلويات المميزة.

توقّفت عن الرقص كما لو أنّ الامتنان قيّد حركتها، وقالت:

مكتبة ياسين

- «أشعر كأنّني فتاة من «ألف ليلة وليلة» وأتوقع أن أجد بساط الريح أو تعويذة رائعة في مكان ما. أنا فقط لا أعرف كيف أشكركَ على كلّ هذه الأشياء التي أحببتها».

- «سوف أخبرك كيف تشكرينني. عليكِ أن تتركي هذه الملابس السوداء التي لا تليق أبدًا بطفلة وترتدي الملابس المبهجة التي أحضرتها لكِ والتي سترفع من روحك المعنوية وتنشر البهجة في رصانة هذا المنزل القديم، أليس كذلك يا عمتي؟». قال وهو ينظر ناحية العمّة بيس التي علّقت:

- «أظنّ أنّك على حقّ يا أليك، ومن حسن الحظّ أنّنا لم نبدأ في حياكة ملابسها الربيعية حتى الآن. فقد اعتقدت ميرا أنّه لا ينبغي عليها ارتداء أيّ شيء أكثر إشراقًا من البنفسجي لأنّها شاحبة جدًا.»

- «فقط اتركيني أذهب إلى الآنسة هيمنج لأقول لها كيف تحوك، ستدهشك خبرتي بالتفاصيل سواء في معالجة حواف الأقمشة أو عمل تقويرة الأذرع ولَمّ الزوايا».

كان يتكلم وهو يربّت على كومة من الشاش، والقماش والحرير بثقة الرجل العارف، فضحكت العمّة بيس بينما روز لم تستطع كتم ضحكتها، لذلك لم يستطرد في ذكر الأمور التي يعرفها حتى توقفتا عن الضحك فقال بحسن نيّة:

- «الضحك بهذا الشكل طريقة رائعة لملء هذا الحزام

مكتبة ياسين

يا (مرجانة) (25)، عليّ الآن أن أعود إلى عملي وإلا فلن انتهي أبدًا».

قالت روز وهي تستدير ناحية صندوقها بعد كلّ هذا الضحك الرائع: «لم أستطع أن أتمالك نفسي، فكلمة 'لمّ الزوايا' كانت مضحكة جدا». ثم أضافت بجديّة:

- «لكن في الحقيقة يا عمّتي أشعر كما لو أنّني لا يجب أن أمتلك الكثير من الأشياء اللطيفة، وأظنّ أنّه من غير اللائق أيضا أن أعطي فيبي بعضًا منها، ربما عمّي لن يحبّ ذلك».

أجابت العمّة بيس بشكل معتدل وبلهجة حكيمة تثير المشاعر بمثل هذه الحماسة للعمل الخيريّ: «لن يمانع لكنّها غير مناسبة لفيبي، بعض من الفساتين القديمة ستكون مناسبة لها إذا تنازلتِ عنها».

- «أفضّل أن أعطيها فساتين جديدة لأنّني أظنّ أنّ عندها الكثير من الكبرياء وربّما لن تحبّ الأشياء القديمة. لو كانت أختي لكنت أعطيتها إياها لأنّ الأخوات يقبلن مثل هذه الأشياء، لكنّها ليست أختي ممّا يجعل هذا الأمر يبدو سيّئًا كما تعلمين. إنّني أعرف كيف أقدّر تلك الأمور، سأتبناها...».

بدت روز لامعة على إثر تلك الفكرة الجديدة.

- «أخشى أنكِ لن تستطيعي فعل ذلك بشكل قانوني حتّى تكبري، لكن عليكِ أن تعرضي خطّتك عليها أولًا وتري إن كانت ستحبّها، وإلى أيّ حدّ يمكنك أن تكوني عطوفة معها، فعلى أيّ حال نحن جميعًا أخوات

مكتبة ياسين

ويجب أن نساعد بعضنا البعض».

هذا الوجه العجوز الجميل نظر إلى روز لجعلها راغبة في تسوية الأمر في الحال وذهبت مسرعة إلى المطبخ. كانت فيبي هناك منهمكة تلمّع مواقد الحطب المشتعل. بدأت روز بالصياح: «شمّي هذا.. تذوّقي هذا.. وانظري إليّ».

استنشقت فيبي عطر الورد الذي يفوح من روز، وتناولت بعض الحلوى، وحدّقت بعينيها إلى مرجانة الصغيرة وهي تنبختر في الحجرة كما لو كانت ببغاء يغنّي.

- «يا لها من نجوم لامعة، ألست رائعة؟».

كان هذا ما استطاعت قوله وهي ترفع يديها المتربتين.

- «لدي أكوام من الأشياء الجميلة في الطابق العلوي سوف أريها لكِ كلّها وسنتقاسمها معًا. عمّتي هي الوحيدة التي اعتقدت أنّ هذه الأشياء لن تكون مفيدة لكِ لذا سأعطيك شيئًا آخرَ ولن تمانعي، أليس كذلك؟ لأنّني أريد أن أتبناكِ مثل أريبلا التي كانت في القصة. ألن يكون ذلك لطيفًا؟».

- «لماذا يا آنسة روز؟ هل فقدتِ عقلك؟».

لا عجب في سؤال فيبي لروز. فقد كانت روز تتحدث بسرعة رهيبة وبدت غريبة في زيّها الجديد ومتلهفة لدرجة أنّها لم تستطع الوقوف لحظة لتشرح أو تفسّر. وعند رؤية فيبي في حالة الذهول تلك، هدأت وقالت بجديّة:

- «ليس من العدل أن يكون عندي الكثير وأنت لا

مكتبة ياسين

تملكين سوى القليل جدًا. أنا أريد أن أكون عطوفة معكِ كما لو كنّا أختين، فالعمّة بيس قالت إننا جميعًا أخوات. أظنّ لو تبنيتك من الآن فسيكون أفضل، أرجوكِ دعيني أفعل ذلك».

وقعْ مفاجأة روز العظيمة على فيبي جعلها تجلس على الأرض وتخبّئ وجهها بمريلتها لمدة دقيقة من دون الإجابة بكلمة واحدة. «أوه، لقد شعرتْ بالإهانة ولا أعرف ماذا أفعل». هكذا فكرت روز التي أحبطها ردّ فعل فيبي.

- «أرجوكِ سامحيني، لم أقصد أن أجرح مشاعرك وأتمنى ألّا تفكري...».

تلعثمت في الحال وهي تشعر أنّه يجب عليها أن تتوقف عن الكلام الجارح قدر إمكانها.

لكنّ فيبي فاجأتها مرة أخرى، خلعت مريلتها فبان وجهها تغمره الابتسامة بالرغم من الدموع التي تتلألأ في عينيها، وضعت ذراعيها حول روز وقالت وهي تضحك وتنتهد:

- «أعتقد أنك أفضل فتاة في العالم، وسوف أدعك تفعلين أيّ شيء تحبينه معي».

صاحت روز بسرور: «إذن أعجبتك الخطة؟ أكان بكاؤك بسبب بعض التعالي الذي بدا عليّ؟ أنا آسفة، لم أقصد ذلك».

قالت فيبي يغمرها الامتنان بسبب كلمات مثل «إنّنا أخوات» التي دخلت قلبها مباشرة وسكنت فيه: «أظنّ

مكتبة ياسين

أنّني أحببت ذلك وبكيت لأنّه لا يوجد شخص جيّد معي كما فعلتِ، ولم أستطع أن أتمالك نفسي. وبالنسبة للتعالي يمكنك أن تسيري فوقي لو أردتِ ولن أمانع».

«حسنًا... الآن... يمكننا اللعب، أنا عفريت خرج من الصندوق، أو الأفضل من ذلك جنية نزلت من المِدخنة وأنتِ سندريللا وعليكِ أن تطلبي أيّ شيء تريدينه». قالت روز ذلك محاولةً أن تكون دقيقة.

استطاعت فيبي استيعاب ذلك بما لديها من مهارات فطريّة في التّعلم، رغم أنها أتت من منزل فقير.

قالت وهي تزيل دمعة سقطت على أنفها بشكل غير رومانسي: «لا أشعر بالرغبة في شيء يا آنسة روز أكثر من شكرك على كلّ ما قمتِ به».

- «لماذا؟ لم أفعل أيّ شيء سوى إعطائك قطعة من الحلوى، هل تريدين المزيد؟ يمكنك تناولها وأنتِ تعملين وتفكرين في ما أستطيع فعله من أجلك. يجب أن أذهب الآن.. مع السلامة، ولا تنسَي أني تبنّيتكِ».

- «لقد منحتني أشياء أجمل من الحلوى ولا يمكنني نسيانها».

بحرص مسحت فيبي يديْها من الغبار وضغطت بقوة على يد روز التي مدّتها لها بدفء، وتبعتها بعيونها السوداء وبنظرة ممتنة أثارت لمعة فيهما.

مكتبة ياسين

الفصل السادس
حجرة العم أليك

قبل العشاء بقليل، ثم بعده مباشرة، كانت روز قد اطّلعت على نصف مقتنياتها الجديدة تقريبًا. اقترح الدكتور أليك أن يحمل هدايا العمّات وأبنائهم ليوصلها لهم. روز جاهزة للذهاب، لكنّها قلقة من تجربة أحد المعاطف الناعمة في الصندوق، فهو ليس فقط غطاء للرأس لكن أيضًا له قلنسوة صغيرة بشراريب مضحكة تهتزّ في جميع الاتجاهات.

امتلأت العربة الكبيرة بالحزَم، حتّى مقعد بن شغلته هراوات هندية، وطائرات ورقية صينية بحجم كبير وقرون ثور من أفريقيا. يظهر العم أليك شديد الزرقة حينما تنظر إلى ملابسه وبُنيًا جدًا حينما تنظر إلى وجهه، يجلس منتصبًا يتفحص باهتمام الأماكن المعروفة جيدًا بالنسبة له، بينما تشعر روز بالأناقة والراحة بشكل غير عادي. أسندت ظهرها باسترخاء في ثوبٍ ناعمٍ من دون أكمام، كأنّها تمثّل أميرة شرقية تحوز مجدًا ملكيًا بين رعاياها.

كانت زيارتهم للأماكن الثلاثة قصيرة، زكام العمّة ميرا كان سيئًا بشكل غير عادي، والعمّة كلارا لديها حجرة مليئة بالأشخاص، العمّة جين أظهرت اهتماما خاصًا لمناقشة حال سُكان وإنتاج وسياسات أوروبا وآسيا وأفريقيا وأصيب الدكتور أليك بالفزع وقرّر الرحيل في أقصر وقت ممكن.

مكتبة ياسين

- «الآن سوف نستمتع بوقتنا، أتمنّى أن يكون الصبية في المنزل».

قالت روز وهي تتنفس الصعداء بعد الزيارات المحبطة وهم يصعدون التلّ إلى العمّة جيسي.

- «تُركت هذه الزيارة لآخر الرحلة حتّى يعود الفتيان من المدرسة. نعم، إنّه جيمي أمام البوابة يرانا، والآن سنرى العشيرة وهي تجتمع معا».

بمجرد رؤية جيمي للضيوف أطلق صفارة تردَّد صداها في المرج والمنزل والحظيرة، أتى على إثرها أبناء العمّة يركضون من كلّ حدب وصوب وهم يصيحون «عاش العم أليك». اندفعوا ناحية العربة كقطّاع الطرق، انتزعوا كلّ الحزَم، وأخذوا الذين يشغلون العربة كأسرى، تحركوا معهم إلى المنزل في ابتهاج عظيم.

- «أمي، أمي إنهم هنا ومعهم الكثير من الأشياء الجميلة، تعالي حالًا لتري المرح، أسرعي».

صاح ويل وجوردي وهما يمزّقان الأوراق، ويقطّعان الخيوط والأربطة التي حوّلت المكان من غرفة منظمة إلى حالة عامة من الفوضى. من الأسفل جاءت العمّة جيسي وقبّعتها الجميلة تغطّي نصف رأسها، ووجهها اللامع خلف القبعة لا يمكن لأيّ شخص أن يراه إلا ويقول هذا وجه حالم. لم يكن لديها وقت للترحيب بروز وبالدكتور كما يليق لأنّ الصبية يصرخون بها من أجل أن ترى هدية كلّ واحد منهم وتهلّل معه.

بالنسبة لـ(ماما الجميلة) كانت تعطي لكلّ شيء جزءًا

مكتبة ياسين

صغيرًا من انتباهها. القرون الضخمه شبكت بملابسها ودفعتها حتى كادت أن تقذفها إلى السقف، والهراوات الهندية كانت تتدفق فوق رأسها حتى كادت تسحقها، مزيج مذهل من الأشياء التي جاءت من أرجاء الكرة الأرضية الأربعة ملأ حضنها، والأولاد السبعة كانوا يتحدثون إليها بكل حماسة معًا وفي آن واحد.

لكنّها أحبّت ذلك، أجل. تجلس مبتسمة، مهتمّة، تفسّر وتشرح غير مبالية بالضجّة من حولها، والتي جعلت روز تغطي أذنيها والدكتور أليك يهدّد بإلغاء هذه الزيارة لو استمرّت تلك الجلبة. أتى هذا التهديد بفائدة بأن عمّ الهدوء. وبينما يتلقّى العم أليك الشكر من الجميع في أحد الأركان، كانت العمّة تشعر بأنّ ثقتها بنفسها تزداد بعض الشيء. فتوجّهت إلى روز:

- «حسنًا يا عزيزتي، كيف تسير الأمور معك؟ أحسن؟ أتمنى أن تكون أفضل من الأسبوع الفائت».

- «عمّتي جيسي، أظن أنّني سأصبح سعيدة جدًا مع وجود العم أليك، لقد فعل أغرب الأشياء لكنّه الآن جيّد جدًا معي، فأنا لا أستطيع التوقّف عن حبّه».

واقتربت من عمّتها أكثر وأخبرتها بكل ما حدث، وانتهت بالكلام عن الصندوق الرائع.

- «أنا في منتهى السعادة يا عزيزتي روز لكن يجب أن أحذّرك من شيء وهو أن لا تدعي العم أليك يدلّلك».

- «لكنّني أحبّ أن أتدلّل يا عمتي».

- «أنا لا أشك في ذلك، لكن لو انتهى هذا العام

مكتبة ياسين

بنتيجة سيئة، فسوف يُلام ويُثبت فشل تجربته، وسيكون أمرك مثيرًا للشفقة، أليس كذلك؟ ولو أراد أن يفعل من أجلك أكثر، لن يساعده قلبه الطيّب في اتخاذ مواقف صارمة تجاهك».

سألت روز بقلق: «لا أظنّ ذلك وسأحاول أن لا أُفسد ولكن كيف أمنع ذلك؟».

- «لا تتذمّري من الأشياء الصحيّة التي يريد منكِ أن تفعليها، أطيعيه بمحبّة وحاولي دائمًا أن تقدّمي تضحيات صغيرة من أجله».

- «سوف أفعل... بصدق سأفعل، لو انتابني قلق تجاه أيّ شيء هل من الممكن أن آتي إليك؟ أخبرني عمّي أنه يمكنني ذلك ولكنّني أخشى ذلك أحيانًا».

- «يمكنك بكلّ تأكيد يا عزيزتي، فهذا هو المكان الذي تعالج فيه الكثير من المصاعب وهذا هو على ما أظنّ دور الأمهات».

وسحبت العمّة جيسي الرأس ذا الشعر المجعّد إلى كتفها بنظرة رقيقة أثبتت وعيها الكامل بما تحتاجه الطفلة.

كان إحساسًا مريحًا وجميلًا أحسّت به روز واستمتعت به حتى جاء صوت:

- «ماما، ألا تعتقدين أن بوكي ستحبّ أصدافي، أعطت روز لفيبي بعضًا من أشيائها اللّطيفة وكان هذا لطف منها، أيمكنني فعل ذلك؟».

مدّت روز رأسها مندهشة من هذا الاسم الغريب: «من هي بوكي؟».

مكتبة ياسين

- «دميتي...، هل تريدين رؤيتها؟»». سألها جيمي الذي أعجبته فكرة التّبني التي سمع عنها.

- «أجل، إنّني مغرمة بالدمى لكن لا تخبر الصبية بذلك وإلّا سيسخرون مني»».

همست روز لجيمي وهي تستردّ حماستها في التحدّث عن الدمية.

- «إنهم لا يسخرون منّي ويلعبون مع دميتي كثيرًا غير أنها تحبني أكثر منهم»». قال جيمي ذلك ثم جرى مبتعدًا ليحضر دميته.

- «أحضرت دميتي القديمة غير أنّني خبّأتها لأنّني كبيرة على اللعب معها رغم ذلك لا أتحمل أن ألقيها بعيدًا، أنا مغرمة جدًا بها»».

- «يمكنكِ المجيء إلى هنا واللّعب مع جيمي في الوقت الذي تفضلينه، نحن نهتم بالدمى»».

ابتسمت العمّة جيسي لنفسها كما لو أنها حظيت بما يسلّيها، وعندما عاد جيمي فهمت روز تلك الابتسامة، لأنّ دميته تلك كانت طفلة جميلة صغيرة في عمر الأربع سنوات، تهرول بأقصى سرعة تستطيع قدماها السمينتان تحمّلها، تجاه الأصداف مباشرة، تندفع بذراعيها قائلة بضحكة صافية تظهر منها أسنانها البيضاء.

- «كلّ هذا من أجلي أنا وديمي... أنا وديمي»».

- «هذه هي دميتي أليست لطيفة؟»».

سأل جيمي بفخر بينما يتطلّع إليها ويداه خلف ظهره وقدماه الصغيرتان متباعدتان قليلا عن بعضهما، يقلّد

مكتبة ياسين

أخوته في وقفتهم كأنه رجل كبير.

سألت روز وكانت مسحورة باللعبة الجديدة: «إنّها دمية عزيزة، لكن لماذا أسميتها بوكي؟».

- «هي كائن صغير فضوليّ لأبعد درجة وتتدخل دائمًا في كلّ شيء، لم يلائمها اسم (بول براي(26)) لذا أطلق الأولاد عليها اسم بوكي... ليس اسمًا جميلًا لكنّه معبّر».

وبالفعل فحصت الأصداف وأمسكت بكل شيء استطاعت أن تجده، واستمرت في بحثها حتى أمسكها أرشي وهي تلعق قطعة الشطرنج خاصته المصنوعة من العاج لتتأكد أنها ليست من سكّر الشعير. وقد تمّ العثورأيضًا على صورة لورق الأرز مكوّمة في جيبها الصغير. كما كادت تهشّم بيضة نعام ويل بمحاولتها الجلوس عليها.

أمر الأخ الكبير بحملها وناولها لرفيقه الصغير: «خذها بعيدًا يا جيم، إنّها أسوأ من الدمى فلا يمكننا تحمّلها بجوارنا».

استقبلها جيم بأذرع مفتوحة محذّرًا:

- «ينبغي أن تنتبه لما تفعله، سأتبنى بوكي كما فعلت روز مع فيبي، وعندها ينبغي عليك أن تكون جيدًا معها أيّها الرفيق الكبير».

- «تبنّاها بعيدًا يا طفلي وسأعطيك قفصًا تضعها فيه وإلا فلن تبقى معك مدّة كبيرة فهي أسوأ من القرود».

وعاد أرشي إلى رفاقه. بينما تنبأت العمّة جيسي

مكتبة ياسين

بمصيبة فاقترحت على جيمي أن يأخذها إلى منزلها الذي استعيرت منه فقد انتهت زيارتها.

- «دميتي أفضل من دميتك، أليس كذلك؟ لأنّه بإمكانها المشي والتحدّث والغناء والرقص ودميتك لا يمكنها فعل أيّ شيء، أليس كذلك؟».

سأل جيمي بفخر وهو يتطلّع إلى بوكي التي قامت بتنفيذ رقصة مضحكة وهي تغنّي المقطع الشهير:

قطتي الجميلة، قطتي الجميلة، أين أنتِ؟

ذهبتُ عند الجيران لألعب مع الأولاد

بعد العرض الرائع الذي قامت به أوصلها جيمي بينما كان كيس الأصداف يُحدث جلبة مع كلّ خطوة. قال الدكتور أليك بينما يتلاشى صوت الموسيقى بعيدًا:

- «يجب أن نذهب الآن، فأنا أريد أن أوصلك إلى المنزل يا روز قبل الغروب، هل ستأتين معنا يا جيسي؟».

- «لا، شكرًا لك. لكنّني أرى أنّ الأولاد لديهم الكثير من الطاقة، لو رغبت سيصاحبونك إلى المنزل من دون أن يدخلوا. فالدخول إلى منزلك ليس مسموحًا سوى في الإجازات فقط».

الكلمات التي خرجت بصعوبة من فم العمّة جيسي صاحبها صوت أرشي بلهجة آمرة:

- «هيا أيّها الفتيان نضبط السرج، ولنفعل ذلك بسرعة ومهارة».

مكتبة ياسين

- «تمام».

وفي لحظة لم يكن لأحد منهم أيّ أثر سوى بعض الأوراق التي خلّفوها على الأرضية.

نزل الموكب أسفل التلّ بسرعة جعلت روز تتشبث بذراع عمّها. وقد تسبّب الحلي الجديد الذي تزينت به الأحصنة العجوز في ملئها بالحماسة وكأنّها ما زالت بكامل شبابها، فانطلقوا مسرعين قدر إمكانهم والعربة التي تجرّها الكلاب تجلجل في المقدمة. بالنسبة لأرشي وشارلي أصبحا يسخران من الشتلندي(27) منذ جاءت تلك المعدات الرائعة وتمّ تجهيز العربة بها. استمتع بن بهذه الأجواء وظلّ الفتيان يثبون ويقفزون حتى وصفتهم روز بالسيرك.

تفرّقوا بمجرد وصولهم إلى المنزل بنظام عسكريّ، كلّ ثلاثة منهم على أحد جانبي السلم، أمسك العم أليك يد روز بوقار وأنزلها كملكة وألقت عليها العشيرة تحيّة عسكريّة، ثم صعد الشباب بكلمة من قائدهم وقطعوا الطريق بصيحات صاخبة.

- «كان هذا رائعًا وانتهينا من كلّ شيء بأمان»، قالت روز وهي تصعد السلم بينما تراقب على رأسها (الشراريب) المحببة إلى قلبها. قال الدكتور أليك بابتسامة:

- «سأحضِر لكِ مهرًا صغيرًا بمجرد أن تزيد قوّتك قليلا».

صاحت روز وهي تشبك يديها بشكل درامي: «أوه،

مكتبة ياسين

لن أستطيع أن أمتطي تلك الوحوش الصغيرة المروّعة، إنها تحرّك عيونها بشكل غريب وتثب وسأموت من الخوف».

- «هل أنتِ جبانة؟».

- « نعم، أنا كذلك مع الأحصنة».

- «لا تهتمي، وتعالي لتشاهدي غرفتي الجديدة».

رافقها في صعود السلم من دون التلفّظ بكلمة واحدة. وبينما تتْبعه روز تذكرت وعدها للعمّة جيسي، وشعرت بالأسف لاعتراضها الشديد. وبعد خمس دقائق ستكون آسفة أكثر.

- «والآن ألقي نظرة وأخبريني برأيك».

قال الدكتور أليك وهو يفتح الباب ويدعها تدخل قبله بينما كانت فيبي تظهر وهي تكنس السلّم الخلفي بالجاروف.

مشت روز حتّى منتصف الغرفة ووقفت تحدّق في الحجرة وعيناها تلتمعان، فقد تغيّر كلّ شيء. لقد تمّ بناء هذه الحجرة فوق المكتبة لتكون مناسبة لبعض الخيال ولم تُستخدم منذ سنوات، عدا أوقات الكريسماس عندما يمتلئ المنزل القديم. فيها ثلاث نوافذ، إحداها في الشرق تطلّ على الفناء وواحدة في الجنوب تطلّ على (أبو فروة) والثالثة في الغرب تطلّ على التلّ والسماء.عند المساء يملأ الغروب بضوئه السّاحر الغرفة، يسمع هدير موج البحر وزقزقة طائر الروبين في ليلة سعيدة بين براعم الأشجار. رأت وسمعت روز هذه

مكتبة ياسين

الأشياء أولًا وشعرت بجمالها بفطرة طفوليّة سريعة ثم أدركت بعدها التغيير الذي حدث في الغرفة. فبعدما كانت غرفة منعزلة، أصبحت الآن مليئة بالضوء والدّفء والجمال في بساطته.

سجادة هندية تغطي الأرضيّة بالكامل، فوقها بضع سجادات مزخرفة ومدفأة عريضة تشعّ بدفء مبهج يبدّد رطوبة الغرفة المغلقة منذ فترة طويلة، كراسٍ ومقاعد من الخيزران وطاولات صغيرة جذابة في الزوايا، على إحداها سلّة جميلة والأخرى ملحقة بمقعد والثالثة تحمل كتبًا عديدة مألوفة. سرير أبيض صغير معلّق فوقه على الجدار أيقونة جميلة لمريم العذراء، وفي جانب من الغرفة ستارة يابانية بالأزرق والأبيض نصف مطوية مثبتة على لوح من الرّخام يظهر من ورائها مرحاض صغير لطيف. بالقرب منها حوض استحمام كبير وإسفنجة بحجم رأس روز، وعلى رفٍّ وُضعت بضع مناشف تركية مطوية ومرتّبة.

فكرت روز وقد أصابتها رعشة، «بالتأكيد عمّي يحبّ الماء البارد كالبط». وقعت عيناها على خزانة طويلة بباب نصف مفتوح يكشف عن صفّ ملفت من الأدراج والرفوف ومساحات صغيرة للتّخزين تسرّ قلوب الأطفال. قالت في نفسها، «يا له من مكان كبير لأشيائي الجديدة». وتساءلت بماذا يمكن أن يحتفظ العم في هذه المساحة المصنوعة من خشب الأرز؟

- «أوه، يا له من صِوان جميل».

فكرت مندهشة للمرة الثانية وهي تقترب من تلك

مكتبة ياسين

البقعة الجذّابة. عُلّقت فوقها مرآة مستديرة قديمة الطراز، أعلاها نسر مذهّب يمسك بمنقاره عقدة شريط أزرق مربوط بها ستارة من الشاش منسدلة على جانبي الصِوان، عليها فراشٍ صغيرة من العاج، شمعدانان فضيّان، علبة من البورسلين، صوانٍ جميلة للأشياء الصغيرة، والأهم من ذلك كلّه وسادةٌ ضخمة من الحرير الأزرق مزينة ببراعة بالدانتيل وبراعم ورديّة في الزوايا.

تلك الوسادة أذهلت روز، في الحقيقة كلّ الطاولة أذهلتها وفكرت بابتسامة ماكرة، «العم أنيق ولو أنّني لا يصحّ أن أفكر في ذلك».

عندما فتح باب الخزانة الكبير قال بلا مبالاة وهو يلوّح بيده:

- «يحبّ الرجال الحجرات الواسعة من أجل أشيائهم المبعثرة، ألا تعتقدين أنّ ذلك يرضيني؟».

اختلست روز نظرة وارتجفت، إذ كان كلّ ما رأته من الأشياء المعتادة رؤيتها في خزانات الملابس والأحذية الطويلة والصناديق والحقائب. لكنّ هذه الملابس كانت فساتين صغيرة سوداء وبيضاء، صفّ من الأحذية الطويلة في الأسفل لم ترها أبدًا في قدم الدكتور أليك، صندوق أخضر يتدلّى منه وشاح، والحقيبة المعلّقة على الباب بفتحة في إحدى الزوايا بالتأكيد هي حقيبتها. ألقت نظرة سريعة على الحجرة وفهمت أخيرًا لماذا بدت الحجرة جذّابة جدًا لها وغريبة فعلًا على رجل. ولماذا تُركت الوصية وكتاب الصلاة خاصتها على الطاولة بجانب السرير، وماذا تعني البراعم

مكتبة ياسين

الورديّة اللون على الوسادة الزرقاء؟

برقت في ذهنها خاطرة أنّ هذه الجنّة الصغيرة كانت كلّها لها، ولم تعرف كيف تعبّر عن عظيم امتنانها فأمسكت الدكتور أليك من رقبته قائلة بتهوّر:

- «أوه، عمّي، أنت لطيف جدًا معي، سأفعل أيّ شيء تطلبه منّي، ركوب الأحصنة المفترسة والاستحمام بالماء البارد وأكل الطعام السيئ المذاق وارتداء الأشياء الغريبة التي تريدها، لترى كم أنا ممتنة لك يا عزيزي. جميل! هذه غرفتي المحبّبة الجميلة».

سأل الدكتور أليك بينما يجلس شاعرًا بالرضى وأجلس ابنة أخيه على ركبتيه: «أحببتِها إذًا؟ لكن لماذا تظنّين أنّها تخصّك يا حبيبتي؟».

- «أنا لا أظنّ... أنا متأكدة أنّها تخصّني، أرى ذلك في وجهك وأشعر أنّني لا أستحقّ حتى نصف ذلك. قالت العمّة جيسي إنّك ربما تفسدني وإنّني يجب أن لا أدعك تفعل ذلك. أخشى أن يكون ذلك نوعًا من الإفساد، ربما لا ينبغي عليّ الحصول على هذه الغرفة الجميلة رغم كل شيء».

حاولت روز أن تظهر بمظهر البطلة التي سوف تتخلّى عن كلّ شيء لكي يعتبر تصرّفها صحيحًا.

قال الدكتور أليك محاولًا أن يبدو جادًا رغم أنّه في قرارة نفسه يظنّ أنّها على حقّ إلى حدّ ما: «أنا مدين للسيدة جيسي بهذا الأمر».

ثم ابتسم تلك الابتسامة الوديّة التي تشبه ضوء الشمس

مكتبة ياسين

على وجهه البنّي وأضاف:

- «هذا جزء من العلاج يا روز، وضعتك هنا ربما لتحصلي على أدويتي الثلاثة الرائعة بأفضل وأسهل طريقة: وفرة أشعة الشمس، الهواء المنعش، الماء البارد ومحيط مبهج وبعض العمل. وبالنسبة لفيبي ينبغي أن تعرّفك كيف تعتنين بهذه الغرفة وأن تكون خادمتك الصغيرة وصديقتك ومعلمتك أيضًا. هل هذا يبدو قاسيًا وغير مرغوب فيه يا عزيزتي؟».

تنهدت بسعادة كبيرة تقفز من عينيها وقالت: «لا يا سيدي، هذا رائع وسأبذل قصارى جهدي لأكون مريضة جيدة، رغم شكّي أنه يمكن لأيّ شخص أن يمرض في هذه الغرفة المبهجة».

- «إذًا أنتِ تحبين هذا النوع من العلاج أكثر من علاج عمتك ميرا ولا ترغبين بأن تُلقي بكلّ هذا من النافذة».

مكتبة ياسين

الفصل السابع
رحلة إلى الصين

- «تعالي يا فتاتي الصغيرة، لديّ جرعة أخرى من أجلك، أظنّ أنكِ ستتجنبينها مثلما فعلتِ في المرة الأخيرة».

قال الدكتور أليك بعدما مرّ حوالي أسبوع على المفاجأة العظيمة.

كانت روز تجلس في غرفتها الجميلة وكانت ستكون مسرورة لو سُمح لها بالبقاء طوال اليوم فيها، غير أنّها خرجت بابتسامة، فلم تعد خائفة من أدوية عمّها، وكانت مستعدة دائمًا لتجربة علاج جديد، فجرعة العلاج الأخيرة كانت عبارة عن مجموعة من أدوات الحديقة الخفيفة، وتعليمها كيف ترتّب أحواض الزهور. تعلّمت كلّ الأشياء الجديدة والسارّة عن النباتات فقد درست علم النبات في المدرسة ولكن بدت دراستها جافّة وبعيدة عن الواقع عكس دراسة عمّها المليئة بالحياة.

سألت روز وهي تغلق صندوق الأعمال بصمت: «والآن ما هذا؟».

- «ماء مالح».

- «كيف أتعامل معه؟».

- «ارتدي البذلة الجديدة التي أرسلتها الآنسة هيمنج إلى المنزل أمس وتعالي ننزل إلى الشاطئ، وسأريك

مكتبة ياسين

كيف نتعاملين معه».

- «أجل سيدي».

أطاعته روز، وانتابتها رعشة بسيطة بينما كان عمّها قد ذهب وأضافت تكلّم نفسها، «إنّ الوقت مبكر جدًا على الاستحمام، لذلك أنا أعرف جيدًا أننا سوف نفعل شيئًا آخر في القارب المخيف».

ارتدت البذلة الجديدة ذات الفانلة الزرقاء المقلمة بالأبيض بشكل جميل، وقبعة بحّار صغيرة بشرائط طويلة شغلتها عن المغامرة القريبة حتى سمعت صافرة صاخبة من عمّها فذكرتها بما ينتظرها. خرجت تجري وعبرت الطريق ثم اتجهت إلى الأسفل على الطريق الرملي ووصلت إلى الشاطئ الخاص بالمنزل وهناك وجدت عمّها مشغولًا بقارب صغير أحمر وأبيض يتأرجح على ارتفاع المدّ.

قالت وهي تحاول ألّا يظهر عليها التوتر: «هذا قارب جميل واسمه (بوني بيلي)، اسم جميل».

- «إنه قاربكِ، لذا اجلسي في مؤخرته وتعلّمي القيادة حتّى تكوني مستعدة لتعلّم التجديف».

سألت وهي تتلكأ في ربط قبعتها بإحكام أكثر: «هل تهتزّ كلّ القوارب بهذه الطريقة؟».

أجاب عمّها البحّار من دون أن ينتبه لخوفها: «أوه، أجل، كلّ ما عليكِ فعله، حينما يكون البحر هائجًا بعض الشيء، أن تدخلي في قلب القارب».

- «هل هو هائجٌ اليوم؟».

مكتبة ياسين

- «ليس كثيرًا، بعض الرياح الشرقية البسيطة جدًا فقط، لكنّنا على ما يرام إلى أن يتغيّر اتجاه الريح، تعالي».

سألت روز وهي تتشبّث بذراع عمّها وهو ممسك بيدها: «هل تستطيع العوم يا عمي؟».

- «أعوم كالسمكة».

- «أوه، أرجوك امسكني جيدًا حتّى أصل إلى هناك، لماذا تبتعد مؤخرة القارب إلى هذا الحد؟».

تسلّلت روز إلى المقعد البعيد وهي تكبت خوفها وجلست هناك تمسكه بكلتا يديها، تنظر إلى البحر متصوِّرة بأنّ كلّ موجة تأتي سوف تحطّم القارب. لم يعلّق العمّ أليك على خوفها لكنّه وجّهها بصبر ودراية حتى انشغلت بما هو في الميمنة وما هو في الميسرة ونسيت أمر الأمواج التي تضرب القارب.

- «إلى أين نحن ذاهبان الآن؟».

سألت والرياح تنعش وجهها. وبعد قليل، وبضربات طويلة عديدة، كان القارب قد وصل إلى منتصف الخليج الصغير.

- «تخيّلي أننا ذاهبان إلى الصين».

- «أليست رحلة طويلة؟».

- «لن تكون كذلك بالطريقة التي أذهب بها. وجّهي القارب ناحية المرسى وسوف أحكي لكِ عن الصين في عشرين دقيقة أو شيء كهذا».

مكتبة ياسين

- «هل سيعجبني ذلك؟».

وجلست روز تتساءل عن مقصده بينما تستمتع بالمشاهد من حولها. خلفهم تل العمّات يصعد بلطف للأعلى حيث البستان، وعلى طول الجانب المواجه للبحر منازل مألوفة، فخمة، مريحة وبديعة. وبينما يتّجهون ناحية المرسى ينفتح الخليج أمامهم مليئًا بسفن الشحن، تستلقي خلفه المدينة الّتي تظهر قممها من فوق الصواري واللافتات الزاهية.

سألت: «هل سنذهب إلى هناك؟». فهي لم ترَ من قبل هذه الناحية الغنيّة من المدينة القديمة التي تنشغل دائمًا بالعمل.

- «نعم، العم ماك لديه سفينة قادمة من هونج كونج وأظنّ أنكِ سوف تحبين الذهاب إلى هناك لرؤيتها».

- «أوه، يجب أن أذهب، أنا بالفعل أحبّ البحث في مستودعات العم ماك. كلّ شيء يبدو شيّقًا وجديدًا بالنسبة لي، بالأخص الصين لأنّك كنت هناك».

- «سأريكِ اثنين من عباقرة الصين قد وصلوا للتو، ستودّين الترحيب بوانج لو وفن سي أنا متأكد من ذلك».

- «لا تطلب مني الحديث معهم يا عمّي، متأكدة أنّني سوف أضحك على أسمائهم الغريبة وشعرهم الذي يشبه ذيول الخنازير والعيون الضيقة المشدودة، دعني فقط أتحرّك حولك فأنا أحبّ ذلك جدًا».

- «جيد جدًا، والآن أديري القارب ناحية المرسى

مكتبة ياسين

حيث تستقرّ السفينة الكبيرة ذات العلم الغريب. هذه راجا وسوف نصعد إلى متنها إذا استطعنا».

وصلا إلى أرصفة المرسى بين العديد من السفن التي تستقرّ على المياه الخضراء الراكدة حيث أكوام من البرنقيلات (28) اللّزجة. استقبلت أنفها روائح غريبة واستقبلت عينيها مشاهد عجيبة، لكنّ روز أحبّت ذلك كلّه وتأكّدت بأنّها هبطت فعلًا في هونج كونج عندما انزلقت خطوات في الظلال الطويلة لراجا.

صناديق ورُزم مربوطة تُحمل إلى المستودع بواسطة حمّالين أقوياء يجرّونها إلى عربة الشحن محدثين جلبة كبيرة، أو يربطونها في رافعات عالية بمخالب حديدية ترفع أوزانًا كبيرة إلى أبواب واسعة تُفتح كفمٍ كبير يبتلعها كلّها.

أخذها الدكتور أليك إلى داخل السفينة وتشكّلت لديها قناعة بأنّ كلّ ركن في تلك السفينة يحمل مغامرة من نوع ما... ضياع... تحطم... أو غرق...، وعلى أنفها الصغير أن يكون حذِرًا من تلك المصائب قبل أن تأتي.

سألها عمّها بينما يأخذان راحة لدقيقة في كابينة القبطان: «حسنًا يا طفلتي، أيعجبكِ القيام برحلة بحرية معي حول العالم في قارب مبهج وقديم هكذا؟».

- «نعم، أحبّ أن أرى العالم لكن ليس في مكان صغير وغير مرتّب وله رائحة مثل هذا المكان. يمكننا الذهاب بواسطة يخت نظيف ومريح، لقد قال شارلي إنّ هذه هي أنسب طريقة». قالت روز وهي تتفحص

مكتبة ياسين

المكان بينما يهتزّ.

قال عمّها:

- «لن تكوني من آل كامبل لو لم تحبّي رائحة القطران والمياه المالحة، ولا حتى شارلي مع بَخته الفاخر. والآن تعالي لننزل إلى الشاطئ نثرثر تحت قبة السماء».

بعد التطور السّار الذي حدث في المستودع الكبير، راحا يختلسان النظر ويلتقطان أشياء إبّان مرورهما. وجدا العم ماك والرجال الصفر الوقورين في حجرته الخاصة، حيث العيّنات والهدايا والأشياء التي تثير الفضول، وكنوز من كلّ الأنواع في أكوام تسرّ الناظرين وصلت للتو.

انزوت روز بقدر استطاعتها في ركن وعلى أحد جانبَيها تمثال من البورسلين، وتنّين أخضر على الجانب الآخر. وأكثر شيء أربكها هو جلوس فن سي على صندوق الشاي في الأمام وتحديقه فيها بعينين سوداوين لامعتين حتّى إنّها لم تعرف أين تنظر.

كان السيد وانج لو رجلًا عجوزًا يرتدي زيًّا أمريكيًا، ويلفّ شعره الذي يشبه ذيل الخنزير حول رأسه. كان يتحدث الإنجليزية ويتكلم باندماج مع العم ماك بطريقة مبتذلة لدرجة أنّ روز حسبته قاصرًا مخفقًا، لكنّ فن سي كان صينيًا مبهجًا من أول حذائه الذي يشبه القارب حتى الأزرار التي على قبعته الباجودا(29). لقد كان أنيقًا في ملبسه يرتدي معطفًا بدا ككُلة من الحرير وبنطلونًا واسعًا جدًا. بدينًا وقصير القامة ويمشي

مكتبة ياسين

بشكل هزلي كالبطة، عيناه ضيقتان جدًّا كما قالت روز: «ضفيرته طويلة وكذلك أظافره، ووجهه الأصفر بدين ولامع». وبصفة عامّة كان رجلًا مقنعًا جدًّا كصيني.

أخبرها العم أليك أنّ فن سي هنا ليكمل تعليمه، وهو فقط يستطيع التحدث بقليل من الإنجليزية لذلك علينا أن نكون طيبين مع هذا الرفيق المسكين، فهو رغم حداثة سنّه إلا أنّه يظهر كعجوز مثل السيد وانج لو. ردّت روز بأنّها ستكون عطوفة معه لكن ليس لديها أدنى فكرة كيف تُحسن صحبة هذا الضيف الغريب، والذي يبدو عليه وكأنّما خرج من منظر طبيعي مصنوع من ورق الأرز على الحائط، يومئ إليها برأسه وهو جالس كأنّه لعبة صينية، سيكون من الصّعب على روز الحفاظ على وقارها أمامه.

وفي وسط حيرتها، وهي تتصنع الأدب، وجد العم ماك الشابين يحدقان ببعضهما البعض وبدا أنهما يستمتعان بهذا التّعارف اللّطيف على الرغم من الصعوبات. أخذ صندوقًا من على طاولته وأعطاه لفن سي الذي بدت عليه سعادة كبيرة. نزل من على مقعده ليفرغ محتويات الصندوق بعناية وهمّة. وبينما تراقبه روز، ظلت تتساءل عمّا سيحدث. أخرج من الأغلفة براد شاي جعلها تشبك يديها من السرور. كان البرّاد مصنوعًا على شكل رجل صينيّ بدين وصغير. قبعته هي الغطاء، ضفيرته هي اليد، وسيجاره هو الأنف، يشبّ على أصابع قدميه وابتسامة وجهه البدين تشبه ابتسامة فن سي وهو يعرض البرّاد، ولم تتوقف روز عن

مكتبة ياسين

الضحك وهذا ما أرضاه.

كوبان رائعان بغطاء، وصينية قرمزية اللّون أكملت المشهد، تجعل الواحد منّا يرغب في كوب من الشاي حتى لو كان على الطريقة الصينية من دون حليب أو سكر. حينما قام فن سي بترتيب تلك القطعة أمامها على الطاولة الصغيرة، أشار بيديه لها بما معناه أنّ هذه المجموعة من الأواني أصبحت ملكها الآن، هدية من عمّها. بادلته الإشارة بيديها بما معناه أنّها شاكرة وممتنة جدًا، وعاد فن سي يجلس حيث كان.

ولم يكن لديه أيّ وسيلة للتواصل، فجلس الاثنان وهما يبتسمان ويومئان لبعضهما البعض بطريقة عبثيّة إلى أن لاحت لفن سي فكرة جديدة. قفز من مقعده ومشى كالبطة مسرعًا قدر استطاعته وقدر ما سمحت به تنورته، تاركًا روز التي تمنّت ألا يحضر فأرًا مشويًّا أو جروًا مطهوًّا أو أيّ شيء من الأشياء الغريبة التي سوف تجبرها كياستها على أكلها.

وبينما كانت في انتظار صديقها المضحك الجديد، فكرت بطريقة أفضل سوف تبهر العمّة جين. الرجال اللّطفاء كانوا يتحدثون عن موضوعات كثيرة وهي تنصت إليهم باهتمام وتخزّن كلّ ما استطاعت تخزينه، فلديها ذاكرة ممتازة وتتوق إلى أن يكون لديها الكثير من المعلومات النافعة التي تجعلها متميزة ولا تجعل أحدًا يصفها بالجاهلة.

حاولت إقناع نفسها بأنّ جزيرة (أموي) تبعد حوالي مائتين وثمانين ميلًا عن هونج كونج. وما إن عاد فن،

مكتبة ياسين

وكأنما كان يخوض معركةً حاملًا ما ظنّته روز سيفًا صغيرًا، حتى كشف عن مروحة يد كبيرة وقدّمها بطريقة مليئة بالمجاملات الصينية، تلك المجاملات التي أمتعها إيقاعها جدًا حتّى ولو لم تفهم معناها. لم تر مروحة مدهشة مثل هذه من قبل، وظلّت مندمجة في تفحصها. بالطبع ليس فيها مشهد محدد تسبّب في دهشة روز، ففي الرسمة سيدة جميلة تربط شعرها من الوراء بإبرة زرقاء طويلة، تجلس مباشرة أمام قمّة معبد فخم، وفي مشهد ساحر آخر جدول يتدفّق أمام بيت بمدفأة ورجل تبدو عليه الطيبة والوقار. في المشهد الثالث، حائط بخطوط متعرجة ينبلج منه وميض يصل إلى السماء وطائر له ذيلان يتأمل في صياد يخرف قاربه ناحية سطح القمر. كانت المشاهد كلّها بديعة ولو كان الأمر يعود لها لقضت الظهيرة كلّها تفتحها وتغلقها.

بالنسبة لفِنْ كادت سعادته تكتمل لولا تنبيه الدكتور أليك المفاجئ لروز بأنّ مروحتها الكبيرة تجعل الهواء يحرّك شعره فيدخل في عينيه، وأنّ عليهما المغادرة الآن. لذا أعيد تغليف الصينية الجميلة وطوت روز المروحة ووضع الدكتور أليك حزمًا كثيرة من الشاي للعمّات في جيبه وقررا الرحيل بعدما حيّاهم فِنْ بـ(ثلاث انحناءات وتسع طَرقات) وهما بدورهما ردّا بتحيّة الإمبراطور أو (ابن السماء).

قالت روز وهما يبتعدان عن ظلّ (راجا): «لقد شعرت وكأنّني في الصين بالفعل ولا بدّ أنّ شكلي كان يظهر عليه ذلك».

مكتبة ياسين

بالفعل بدت روز كما لو كانت هناك، في الصين، فقد أعطاها السيد وانج لو مظلّة صينية، وأخذ العم أليك بعض المصابيح لإنارة شرفتها. بينما ترقد المروحة العظيمة في حجرها وأدوات تحضير الشاي تستقرّ عند قدميها.

سألها عمّها الذي لاحظ اهتمامها بالحديث عن الصين: «هذه ليست طريقة سيئة لدراسة الجغرافيا، أليس كذلك؟».

- «إنها طريقة شيّقة جدًا وأظنّ أنّني تعلّمت عن الصين هذا اليوم أكثر من كلّ الدروس التي تعلمتها في المدرسة، رغم أنّني كنت أجيب عن كلّ الأسئلة بسرعة. لم يفسّر لنا أحد أيّ شيء وكلّ ما أتذكره هو أنّ الشاي والحرير مصدرهما الصين وأنّ أقدام النساء صغيرة، لقد رأيت فِن وهو ينظر إلى قدميّ ومن المؤكد أنه يعتبرها ضخمة»، أجابت روز وهي تتفحص حذاءها الطويل بامتعاض.

- «سنحصل على خرائط الكرة الأرضية وسأريكِ بعضًا من رحلاتي ونروي قصصًا ونحن ذاهبان، سيكون ذلك من أفضل الأشياء التي سنقوم بها بالفعل».

- «أنت مغرم بالسفر وأظنّ أنّ تواجدك هنا يشعرك بالكآبة يا عمّي. تقول العمّة بلينتي إنّها متأكدة أنك ستغادر خلال عام أو عامين».

- «الأرجح أنّني سأفعل».

مكتبة ياسين

تنهدت روز بنبرة صوت بائسة جعلت وجه العم أليك يبتهج بسعادة غامرة: «أوه، وأنا ماذا سأفعل وقتها؟»».

فقال: «المرة القادمة سآخذ طفلتي الصغيرة معي، هل يناسبك هذا؟»».

- «حقًا يا عمّي؟»».

- «حقًا يا ابنة أخي»».

كانت روز تتمايل طربًا ولكنّ تمايل القارب جعلها تهدأ بسرعة، فجلست تبتسم من كثرة المرح تحاول أن تفكر في مئات الأسئلة التي تدور في ذهنها ومن أيّ سؤال سوف تبدأ. وإذا بالدكتور أليك يشير ناحية قارب يقترب من الخلف ويقول بأسلوب فخم:

- «كم هو جميل تجديف هؤلاء الرفاق، انظري إليهم ولاحظي مهاراتهم وحاولي أن تجاريهم»».

كان في قارب (ستوري بتريل) ستة من البحّارة الأنيقين، صنعوا عرضًا رائعًا بقمصانهم الزرقاء وقبعاتهم اللامعة مع النجوم والمراسي في كلّ اتجاه.

صاحت روز وهي في حالة من الحماسة حتّى كادت المظلّة الجديدة تنفلت من يديها في الهواء: «يا له من مشهد، شكلهم جميل وكلّهم صبيان، أشعر وكأنّهم صبيتنا.. نعم، أنا بالفعل أرى شارلي يلقي بضحكة وهو يصرخ... جدّف... جدّف أرجوك جدّف... لا تدعهم يلحقون بنا»».

- «حسنًا، ها نحن ذاهبون»».

وضربوا الماء بمجاديفهم وصاحوا باندفاع (بوني بيل).

مكتبة ياسين

دفع الصبية قاربهم بعزم أكبر لكن الدكتور أليك كان سيصل للمرسى قبلهم لو أنّ روز، بحماستها، لم تؤخّره عن طريق هزّ حبال الدّفة بشكل غير صحيح، وحينما فعلت طارت قبعتها وهو ما أنهى السباق. فقد انشغل الصبية باصطياد قبعتها بمجاديفهم. تخبطت مجاديفهم بمجاديف القارب الآخر وعمّ جو من المرح له رائحة القطران.

- «هل اصطدت كابوريا يا عمّي؟».

أجابها بينما تضع القبعة المبتلة على مقعد لتجف: «لا، اصطدت سمكة زرقاء».

- «ماذا كنتِ تفعلين هناك؟».

- «أتفرج على فن».

- «جيد، بالنسبة لكِ يا روز أعرف ماذا تقصدين. سوف نستدعيه ليرينا كيف نطيّر طيارة ورقية كبيرة في السماء، لأنّنا لم نستطع جعلها تطير بالطريقة الصحيحة، أليست هذه متعة كبيرة رغم ذلك؟».

- «متعة قليلة (30)».

- «تعالي وكفّي عن المزاح وأرينا الأشياء التي معك».

- «يمكننا أن نستخدم تلك المروحة كشراع. ويمكنك أن تقرضي داندي مظلتك فهو يكره أن يحترق أنفه الجميل».

- «أنا أسأل، يا عمّي، هل سوف نحتفل بعيد الفوانيس (31)؟». قال أرشي.

- «لا سوف أحتفل بعيد الخبز والزبد لأنّ هذا وقت

مكتبة ياسين

الشاي. إذا لم تكذب هذه السحابة السوداء فسوف نشهد عاصفة في وقت قريب، لذا عليك أن تذهب إلى المنزل بأسرع وقت وإلا ستقلق أمك عليك يا أرشي».

- «أجل، أجل يا قبطان. تصبحين على خير يا روز، تعالي معنا وسوف نعلمك كيف يكون التجديف».

كانت هذه دعوة شارلي المتواضعة، ثم افترق القاربان. وعبر الماء جاء صوت نشيد يغنيه الأولاد وهم مسرورون:

أوه، (تيم بالو) كم نحن سعداء
نعيش في غربال وجرة خزف
طوال الليل يغطينا ضوء النجوم
سوف نجر بعيدًا في الضوء الأخضر الزاهي
نسمع أغنية قرية وصوت طبول من السماء
بعيد وهادئ بعيد وهادئ
هي الأراضي التي يعيش فيها أطفال
رؤوسهم خضراء أيديهم زرقاء
ذهبوا إلى البحر في غربال

مكتبة ياسين

الفصل الثامن
وما الطائل من وراء هذا؟

قالت روز وهي تدخل المكتبة متعجّلةً هذا المساء: «هل يمكن أن تقرضني تسعة بنسات يا عمّي؟ سوف أردّها لك بمجرد أن أحصل على مصروفي؟».

- «يمكنني أن أفعل ذلك على الرغم من أنّ هذا لن يعود عليّ بأيّ نفع ولستِ بحاجة لأن تتعجلي ردّها. عودي وساعديني في ترتيب هذه الكتب إذا لم يكن لديك شيء ممتع تفعلينه». أجابها الدكتور أليك وهو يناولها النقود بذلك الاستعداد المبهج للاستجابة فورًا عندما يكون المطلوب قروضًا صغيرة.

- «امنحني دقيقة فقط طالما أنك اشتقت كثيرًا لترتيب كتبي، لكنّي لا أجرؤ على لمسها لأنك دائمًا ما تهزّ رأسك حينما أقرأ».

- «الوقت الصحيح الذي ينبغي عليَّ أن أهزّ رأسي فيه هو عندما تكتبين، وبخاصة إذا لم تكتبي بشكل أفضل من تلك الطريقة التي كتبتِ بها في هذا الكتالوج».

- «أعلم أنها كتابة سيئة فقد كنت في عجلة حين أنجزتها كما أنا متعجّلة الآن».

وذهبت روز مبتعدةً سعيدة بتفويت المحاضرة. لكنها ستنالها لأنّ العم أليك كان لا يزال يتفحّص قائمة الكتب، وأشار بصرامة إلى عنوان شيّق يظهر أسفل الصفحة.

مكتبة ياسين

- «أيعني هذا (عظام مسحوقة)(32) يا سيدتي؟».

- «لا يا سيدي، إنها تعني (الفردوس المفقود)(33)».

- «حقًا أنا سعيد جدًّا لمعرفة ذلك الآن، فقد كنت بدأت أفكّر أننا نخطّط لدراسة الجراحة أو الزراعة. وماذا عن هذا العنوان لو تكرّمتِ: (مرايبل... رضّع) هذا كل ما استطعت استنتاجه».

نظرت روز بتركيز شديد إلى الشخبطة وأعلنت بصوت مليء بالحكمة:

- «أوه، هذه مقالات بيكون(34)».

- «من الواضح أنّ الآنسة باور لم تشغل نفسها في تدريس تلك الموضات القديمة مثل مسألة الكتابة، كما أرى. انظري الآن إلى تلك القائمة التي أعطتني إياها العمّة بلينتي وانظري إلى خط اليد الجميل هذا. لقد ذهبت إلى مدارس دام(35) وتعلمت بعض الأشياء النافعة حقًّا، وفي ظنّي هذا أفضل من نصف دستة ممّن يطلقون عليهم (حمَلَة الشهادات العليا)».

قالت روز لتدافع عن نفسها أمام انتقاد عمّها أليك: «حسنًا، أنا متأكدة بأنّني أعتبر فتاة متفوّقة في المدرسة، وفهمت كلّ ما تمّ تدريسه لي. فلولي وأنا من أوائل التلاميذ خصوصًا في الفرنسية والموسيقى والمواد التي على تلك هذه الشاكلة».

- «يمكنني قول ذلك لكن لو كان مستواك في اللغة

مكتبة ياسين

الفرنسية بهذا المستوى نفسه لكان ما تحصلين عليه من الثناء غير مستحقّ يا عزيزتي».

- «لماذا يا عمّي، نحن بالفعل درسنا قواعد الإنجليزية ويمكنني تصريف الأفعال بسهولة. اعتادت الآنسة باور التباهي بنا عندما يأتي أحد لزيارة مدرستنا، وأعتقد أنني أستطيع التحدث بشكل صحيح مثل بقية الفتيات».

- «أظن أنكِ كذلك بالفعل لكنّنا جميعًا مهملين بشأن لغتنا الإنجليزية. الآن فكري لمدة دقيقة وأخبريني إذا كانت هذه الجمل صحيحة..(فلولي وأنا).. (والمواد التي على تلك هذه الشاكلة).. (صحيح مثل بقية الفتيات)».

وضعت روز ضفيرتها المجعدة في فمها، لكن كان عليها أن تعترف أنها أخطأت. وقالت باستسلام بعد فترة من عبوسها:

- «كان عليَّ أن أقول: (أنا ولولي)(30).. (المواد التي على هذه الشاكلة) أظنّ أنها صحيحة لكن أظنّ أنك تقترح تعبيرًا أفضل من هذا».

- «أشكركِ، ولو تكرمتِ وأسقطتِ كلمة (أظنّ) سوف أحبك أكثر يا صغيرتي. الآن وكما تلاحظين يا روز، أنا لا أدّعي بأنّني نموذجٌ لأيّ شيء، ومن الجائز أيضًا أن تنتقدي لغتي، وطريقتي في التصرّف، وأخلاقياتي عندما ترين بأنّني على خطأ وعندها سأكون شاكرًا لكِ. سنوات عديدة طفت فيها العالم كلّه وما زال ينقصني الكثير، لكنّني أريد لفتاتي أن تكون مثقفة حقًا حتى ولو لم ندرس شيئًا طوال السنة سوى

مكتبة ياسين

المهارات الأساسية للقراءة والكتابة والحساب، لذا دعينا نكمل مشوارنا ولا تنشغلي بمسألة الوقت».

تحدّث بجدّيّة وبدا عليه الأسف لأنّه أزعج روز التي ذهبت وجلست على ذراع كرسيه وقالت بندم:

- «أنا آسفة يا عمي، لقد كنت مخطئة في ما قلته. لقد غضبت منك، عندما كان يجب عليّ، بدلًا من ذلك، أن أشكرك على الاهتمام بي. أنا لا يشغلني الوقت وأظن أنّك على حق بخصوص أن نكمل مشوارنا، فهمت الكثير من الأشياء العظيمة في الدروس القليلة التي شرحها لي أبي، لكنّ الآنسة باور تستعجلني في فهم الكثير من الأشياء. أقول لك الحقيقة أنّ ذهني اعتاد أن يقفز بين الفرنسية، الألمانية، التاريخ، الحساب، القواعد والموسيقى ودائمًا ما أشعر بأن رأسي سينفلق، فلا عجب إن كان يؤلمني حقًا».

وأمسكت رأسها كما لو كانت تحاول إنقاذه من الغرق في هذا الخليط.

- «حتى الآن تعتبر مدرسة ممتازة، ويمكنني القول بأنّها ستكون ممتازة حقًا لو كفّت هذه السيدة الجاهلة عن الاعتقاد بأنّه من الضروري حشو رؤوس تلاميذها كما تُحشى الديوك الرومية في عيد الشكر بدلًا من أن تعلّمهم بطريقة طبيعيّة وفعّالة، وهذا هو خطأ أغلب المدارس الأمريكية، والصغار المساكين سيستمرون في المعاناة حتى تصبح سياستنا التعليميّة أفضل».

هذه واحدة من أمنيات الدكتور أليك، وروز تحشى اندفاعه في تحقيقها لكنّه استعاد نفسه وأخرج كتاب

مكتبة ياسين

جيب صغير، سميك، مليء بأفكار جديدة مفاجئة لروز.

- «العم ماك وضع كلّ شؤونك بين يديّ وهذا هو مصروفك الشهري. أنتِ تحتفظين بحساباتك الصغيرة على ما أظنّ، أليس كذلك؟».

- «شكرًا لك، أجل العم ماك أعطاني دفتر حساب عندما ذهبت إلى المدرسة، فقد اعتدت تسجيل نفقاتي غير أنّي لا أستطيع تدبّرها بشكل جيد، لست ماهرة في مسألة الأرقام هذه على الاطلاق». قالت روز وهي تبحث في مكتبها عن دفتر الحساب البالي والذي ستخجل أن تريه لأحد لو وجدته.

- «حسنًا، لأن الأرقام هي أشياء مهمة جدًّا بالنسبة لمعظمنا، وغالبًا لديك العديد من الحسابات التي ستضطرين لتدبّرها يومًا ما، أليس من الحكمة أن نبدأ في الحال ونتعلّمي كيفية إدارة البنسات قبل أن نصل للجنيه ويربكك؟».

- «اعتقدت أنك ستفعل كلّ هذا الجزء الصعب وتعتني بالجنيهات كما تسمّيها، هل عليّ أن أقلق بشأن هذا؟ أنا أكره المسائل الحسابية جدًا».

- «ينبغي عليّ أن أهتم بهذه الأشياء حتى تكبري، لكن كلّ ما أقصده هو أن تعرفي كيفيّة إدارة ثروتك، وإدارة أغلبها جزءًا بجزء حتى لا تضطري إلى الاعتماد على أيّ شخص آخر».

صاحت روز مذعورة من مجرد الاقتراح: «يا إلهي، كما لو أنّني لست واثقة بأنك سوف تكون أمينًا على الملايين

مكتبة ياسين

والمليارات لو كنت أمتلكها».

أجاب الدكتور أليك وهو يتفحص دفتر حسابه بأناقة: «أوه، لكنّها قد تغريني، غالبًا ما يحدث ذلك مع الأوصياء، لذا من الأفضل أن تراقبيني جيدًا، ولكي تفعلي ذلك يجب أن تتعلّمي كلّ شيء بخصوص هذه الشؤون».

اختلست روز نظرة من فوق كتفه إلى دفتر الحساب، فلفتت نظرها تلك الألغاز الحسابية التي في يدها وتنهدت بإحباط.

- «عمّي، حينما نضيف النفقات على الحساب هل سنجد المال زاد عمّا كان؟».

- «بالطبع لا... أجد أنّ الحساب يقلّ عمّا كان حينما نضيف النفقات، أهناك مشكلة خاصة فيما ذكرتِ؟».

- «نعم، هناك مشكلة كبيرة فأنا لا أستطيع أبدًا جعل الأمور تبدو على ما يرام وكلّي فضول لكي أعرف طريقة إصلاح ذلك».

قال العم أليك بنبرة فيها احترام كبير لها: «ربّما يمكنني مساعدتك».

- «أظنّ أن عليك أن تساعدني فعلًا. ففي حال احتفظت بحساباتي، سيتوجب عليّ أن أبدأ في إدارتها بالطريقة الصحيحة... لكن أرجوك لا تسخر مني، أعرف أنّني غبيّة جدًا ودفتر حسابي بشع، فمن الصعب عليّ أن أقوم بتلك العمليات الحسابية».

وبكثير من الرّهبة قدّمت له روز دفتر حسابها الصغير

مكتبة ياسين

المضحك. كان من الجيّد حقًّا أنّ الدكتور أليك لم يضحك وشعرت روز أنها ممتنّة من أعماقها عندما قال بصوت معتدل:

- «يبدو أنّ الدولارات والسنتات اختلطتا معًا، ربّما لو عدّلنا الأمر قليلا سيعود كلّ شيء لمكانه».

- «أرجوك افعل هذا ثم أرني على ورقة بيضاء كيف أرتّبها مثلك بطريقة صحيحة».

وبينما تقف روز بجانبه تشاهد السهولة والسرعة التي يعيد بها ترتيب كلّ شيء، حاولت أن تستدعي كلّ معلوماتها الرياضية القديمة من القواعد البسيطة حتّى الكسور قبل أن تقرأ أيّ حكايات خيالية أخرى.

سألت روز فجأة بينما ينسخ أليك الأرقام تحت بعضها: «هل أنا فتاة غنيّة يا عمّي؟».

- «بل فتاة مسكينة. ينبغي أن أقول ذلك بعد أن اقترضتِ منّي تسعة بنسات».

- «هذا هو خطؤكَ لأنّك نسيت مصروفي. لكن هل حقًّا سأكون غنيّة شيئًا فشيئًا؟».

- «أخشى أن تكوني كذلك».

- «ممَّ الخشية يا عمّي؟».

- «المال الكثير شيء سيّئ».

- «يمكّنني التبرّع به وهذا هو أفضل ما يمكن فعله بالمال عندما نمتلكه».

- «أنا مسرور لشعورك هذا لأنّه يمكّنك من أن تفعلي

مكتبة ياسين

الكثير من الخير بثروتك إذا كنت تعرفين كيفيّة استخدامها بشكل جيّد».

قالت روز بابتسامة شقيّة أبانت غمزات خدَّيها: «ينبغي أن تعلّميني، وعندما أكون سيّدة سوف ننشئ مدرسة لا يُعلَّم فيها سوى المهارات الأساسية للقراءة والكتابة والحساب. وفي تلك المدرسة، كلّ الأطفال سوف يعيشون على الشوفان، وكلّ الفتيات سيكنّ بخصور نحيفة».

- «أنتِ فتاة صغيرة بذيئة تسخرين منّي بهذه الطريقة في أولى محاولاتي لتدريسك. سوف آخذ جرعة إضافية لأستطيع التغلّب على سخريتك في المرة القادمة يا آنسة».

- «كنت أعرف أنّك تحبّ المزاح لذا بادلتك بمزحة، أما الآن فسأكون جيّدة يا سيّدي وأؤدّي دروسي بكلّ أدب».

ضحك الدكتور أليك، وجلست روز لتأخذ درسًا في الحساب لن تنساه.

قال العم أليك عندما انتهى من إعادة حساب الشهر الفائت وترتيبه في صفحة جديدة نظيفة: «الآن تعالي واقرأي بصوت عال، عيناي تؤلمانني. ومن الأفضل أن تجلسي بجوار المدفأة بينما يهطل المطر في الخارج والعمّة جين تلقي خطابها في الطابق العلوي».

أحبّت روز القراءة بصوت عالٍ وأسمعته فصلًا من رواية (نيكولاس نيكلبي)(37) حيث تأخذ الآنسة كينوويجز درسًا في اللّغة الفرنسيّة. لقد أدّت واجبها

مكتبة ياسين

جيدًا، وشعرت بأنّها نالت كفايتها من الانتقاد وتأمل ألّا يظهر أيّ شيء جديد توبّخ عليه.

عندما انتهى الفصل سألت بوداعة شديدة: «هل نكمل يا سيّدي؟»».

- «إذا لم تتعبي يا عزيزتي، إنّه لأمر سارٌّ أن أسمعك، فأنتِ تقرأين بشكل جيّد».

ملأت هذه الإجابة قلبها بالفخر والسعادة.

- «هل تظنّ ذلك بالفعل يا عمّي؟ أنا مسرورة جدًّا، أبي علّمني وكنت أقرأ له لساعات وأظنّ أنه أحبّ قراءتي وكان فخورًا بي».

- «مثلي تمامًا، لأنكِ تقرأين حقًّا بشكل جيّد وأنا سعيد بذلك، فهو إنجاز نادر وأنا أقدّره بشدة. تعالي هنا واجلسي على هذا الكرسي المنخفض المريح. الضوء جيّد ويمكنني أن أشدّك من ضفائرك المجعدة لو أسرعتِ جدًّا في القراءة. أرى أنّكِ ستكونين تلميذة مريحة بالإضافة إلى مكانتك العظيمة عند عمّك العجوز يا روزي».

وسحبها العمّ أليك بالقرب منه بنظرة أبويّة ونبرة جعلتها تشعر أنّه من السهل أن تحبّه وتطيعه فقد عرف كيف يخلط المدح واللّوم معًا.

انتهى فصل آخر للتوّ عند سماع صوت عربة ينذر بأن العمّة جين على وشك الرحيل. ظهرت في المدخل كأنّها مومياء طويلة على غير عادتها، ترتدي واقٍ من المطر، وتظهر لمعة نظارتها من عمق القلنسوة كأنّها عيون قطة.

مكتبة ياسين

قالت العمّة جين بطريقة تعبّر عن إحباطها الشديد لقناعتها التّامة أنّ الأمور تسير من سيّئ لأسوء: «تمامًا مثلما ظننت! تدلّل هذه الطفلة حتى تفسدها وتتركها تسهر لوقت متأخر لقراءة تلك التّرهات. أتمنى أن تشعر بثقل المسؤولية التي تحملها وتأخذها بجديّة يا أليك».

أجاب العم أليك وهو يهزّ كتفيه بطريقة هزليّة وينظر إلى وجه روز المشرق: «أعتقد أن لديّ بالفعل إحساس حقيقي بالمسؤولية يا أختي جين».

- «تحزنني رؤية فتاة عظيمة تضيّع وقتها الثمين، صبياني يدرسون طوال اليوم، وماك لم يفارق كتبه وليس لدي ذرة شكّ بأنكِ لم تأخذي درسًا واحدًا منذ جاء».

- «أخذتُ خمسة دروس اليوم يا سيدتي». كانت هذه إجابة روز غير المتوقّعة.

- «أنا سعيدة لسماع هذا. وما هذه الدروس بحق الله؟».

بدت روز أكثر نجلًا عندما أجابت:

- «الإبحار، الجغرافيا، القواعد، الحساب، المحافظة على اتّزاني».

- «كما ظننت. هي دروس تافهة. ما الذي تعلمته من هذا الخليط العجيب؟ هيا اخبريني.».

التمعت عينا روز بشقاوة وهي تنظر لعمّها نظرة طريفة.

- «لا يمكنني إخبارك بها كلّها يا سيدتي، لكنّني جمعت معلومات مفيدة عن الصين التي تحبينها، خاصة الشاي، أفضله هو (لاسينج سوتشونج.. أسام

مكتبة ياسين

بيكو.. والشاي النادر أنكو.. فلوري بيكو.. خليط هوكوا.. سينتد كابر.. شاي بادرال.. شاي كونجو الغامق.. شاي توانكي الأخضر)، كما أن شنغهاي تقع على نهر ووسانج، وجزيرة هونج كونج معناها (جزيرة المياه الحلوة)، كما أنّ سنغافورة هي مدينة الأسود و(شوبس) تعني القوارب التي يعيش فيها أهل تلك البلاد ويحتسون الشاي في صحون صغيرة. صناعتهم الأساسية البورسلين، الشاي، القرفة، الشالات، القصدير، التمر الهندي والأفيون. لديهم معابد جميلة وآلهة غريبة. وفي إحدى المقاطعات يوجد معبد للخنازير المقدسة، أربعة عشر منهم ضخام جدًّا وكلّهم عميان».

كان تأثير هذه الملاحظة الوافية رائعًا، وبخاصة المعلومة الأخيرة، لقد قلبت الريح أشرعة العمّة جين بالكامل. كانت مفاجأة مدهشة وغير متوقّعة بأيّ شكل، لم يكن لديها كلمة واحدة تقولها، ظلّت تحملق في روز لفترة ثم قالت بتعجل:

«أوه، حقًّا!».

ركبت الهانم الممتازة عربتها وانطلقت بعيدًا وهي مندهشة ومرتبكة. وكان الطين سيزداد بلّة حقًّا لو رأت ابن أخيها الذي أشبعته توبيخًا وهو يرقص (البولكا) (38) مع روز احتفالا بهذا النصر المؤزّر على العدو مرة واحدة.

مكتبة ياسين

الفصل التاسع
سرّ فيبي

سألت روز فيبي إبّان عملهما معًا في الصباح: «لماذا تبتسمين لنفسك يا فيبي؟».

ولأنّ العم أليك يعتبر أنّ الأعمال المنزلية هي من أفضل التدريبات الرياضية للفتيات، أخذت روز دروسًا من فيبي في الكنس ونفض الغبار وترتيب الأسرّة.

- «كنت أفكّر في سرّ صغير ولطيف احتفظت به ولم أستطع الكفّ عن التبسّم».

- «هل يمكنني معرفته؟».

- «يمكنكِ تخمينه».

- «هل أحبّه؟».

- «أوه، لا».

- «هل سيحدث قريبًا؟».

- «ربما هذا الأسبوع».

- «أعرف ما هو! سيطلق الصبية الألعاب الناريّة في اليوم الرابع من الأسبوع ولديهم مفاجأة لي، أليس كذلك؟».

- «هذه حكاية معروفة».

- «حسنًا، يمكنني الانتظار... فقط لو تخبرينني شيئًا واحدًا، هل عمّي طرفٌ في هذا السّر؟».

مكتبة ياسين

- «بالطبع، فلا توجد أيّ متعة من دونه».

- «تمام، من المؤكد إذًا أنّه شيء لطيف».

خرجت روز إلى الشرفة لتنفض السجّادة، نفضتها بقوة ثم علّقتها على الدرابزين في الهواء. وألقت نظرة على النباتات خاصتها والعديد من المزهريات الطويلة والعلب. إنه شهر يونيو بمطره وشمسه، هذا الخليط الذي يفعل الأعاجيب بالبذور والنباتات التي زرعتها. صباحات مجيدة وزهور الكبوسين(39) تملأ السور، تتسابق في التفتح والإزهار. الفاصولياء الحمراء ونبات العسلة تتسلّق من الأسفل في شوق للقاء جيرانها بكلّ روعة. زهرة العسل الخشبية(40) معلّقة كإكليل أخضر أينما نبتت، وماء الخليج يتراقص تحت أشعة الشمس ونسمة طازجة تهزّ أشجار الكستناء التي تنشر صوتًا لطيفًا، والحديقة في الأسفل مملوءة بالورود، والفراشات والنّحل. زقزقة العصافير وتغريد الطيور وهي تروح وتجيء مشغولة ببناء أعشاشها، وبعيدًا كانت النوارس البيضاء تضرب الماء بمناقيرها ثم تغطس في البحر، والسفن كأنّها طيور كبيرة تجر بعيدًا وتجيء.

قالت روز وهي تلوّح بيديها كما لو كانت ستطير: «أوه، فيبي إنه يوم رائع، أتمنى لو أن سرّك الرائع يحدث قريبًا. أشعر بأنني أقضي أجمل الأوقات».

- «دائمًا يخالجني هذا الشعور، لكن عليّ أن أنتظر الأيام الجميلة وألّا أكفّ عن العمل لتحقيقها. الآن عملك سوف ينتهي بمجرد أن تزيلي هذا الغبار بينما أنا

مكتبة ياسين

عليّ الذهاب لتنظيف السلم».

مشت فيبي تغنّي وفي يدها المقشّة على الرغم من علامات التعب والإجهاد التي بدت عليها.

مالت روز على الجدار تفكرت في الأوقات الجميلة التي عاشتها مؤخرا. كيف ساعدت الزهور في الحديقة على التفتّح، وتعلّمت السباحة والتجديف ولم تنسَ أيضا المشاوير والرحلات والمشي والساعات الهادئة التي قضتها تقرأ وتناقش العمّ أليك، والأجمل من هذا كلّه أنها تخلّصت من مللها القديم الذي كاد أن يزهق روحها. يمكنها الآن أن تعمل وتلعب طوال اليوم وتنام نومًا هنيئًا طوال اللّيل، وتستمتع بحياتها كطفلة نضرة وسعيدة.

كانت بعيدة جدًا عن قوّة فيبي وحماستها، لكنّها الآن تأخذ خطوات جادّة في هذا الاتجاه. فقد اكتسى خدّاها الشاحبان بالحمرة ويداها صارتا ممتلئتين وبنيّتي اللون، والحزام لم يعد فضفاضًا كما كان. لم يعد أحد يكلّمها عن حالتها الصحيّة التي تحسّنت رغم أنها لم تأخذ أي دواء سوى علاجات دكتور أليك الثلاثة. وبدا أنها تناسبها تمامًا. قالت العمّة بلينتي إنّ الحبوب التي وصفتها لها هي السبب، لكنّ روز متأكدة أنّ السيدة العجوز مخطئة تمامًا، فهي قد أهملت تلك الأدوية التي وصفتها لها.

بدت روز جديرة باسمها ووقفت تبتسم لنفسها، لديها سرّ يسعدها أكثر من سرّ فيبي. هذا السرّ الذي لم تكن تدرك كنهه حتّى اكتشفته مع الأيام، هذا السرّ هو سحر

مكتبة ياسين

الصحّة الجيّدة.

فقط انظر وقل جِنية سمراء صغيرة

في رداء أزرق جميل

بمنديل ملفوف على رأسها

وفي قدميها حذاء صغير

جاء صوت الغناء من الأسفل كما لو كان وردة رقيقة أتت طائرة وحطّت في يدها.

- «ما الذي تحلم به الأميرة في حديقتها المعلّقة؟».

قال الدكتور أليك مؤكّدًا على أن تلك الصباحات حقًّا مجيدة.

- «كنت أتمنى لو أفعل أيّ شيء يجعل من هذا اليوم أكثر جمالًا، شيء جديد جدًا وممتع لأنّ هذا النسيم يجعلني أشعر بالمرح والإشراق».

- «ما رأيك في أن نذهب للتنزه في الجزيرة؟، كنت أنوي الذّهاب بعد الظّهر لكن لو أحببتِ سننطلق في الحال».

- «أتمنى هذا بالفعل، هيا بنا سأجهز في غضون خمس عشرة دقيقة يا عمّي. يجب أن أرتّب حجرتي وأضع كلّ شيء في مكانه الصحيح لأنّ فيبي لديها الكثير من الأعمال للقيام بها».

أمسكت روز السجادة واختفت بعد حديثها بينما قال الدكتور أليك لنفسه بابتسامة لطيفة: «أحيانًا تزعجنا الأشياء التافهة لكنّ نصف سعادة الطفل في أن ينال

مكتبة ياسين

متعته عندما يطلبها».

لم ترفرف منفضة الغبار بهذه الخفّة من قبل سوى مع روز، ولم تُقلب المجرة رأسًا على عقب كما اليوم سوى بيد روز. الطاولات والكراسي تطير في الهواء كما لو كانت على قيد الحياة، الستائر تهتزّ كما لو أنّ عاصفة تهبّ. الأواني تجلجل والأدوات الصغيرة تسقط كما لو كان زلزال صغير يعبث بها، بذلة القوارب تتلألأ. ظلّت روز تقفز وتجعل حالمة تحسب كم من الساعات سوف تنقضي قبل أن ترى حجرتها الجميلة مرّة أخرى.

عندما وصلت إلى القارب وجدت سلة كبيرة وضعها العم أليك، وقبل أن يرحلا جاءت فيبي راكضة تحمل لفّة كبيرة ملفوفة بعازل للماء.

سأل الدكتور أليك وهو ينظر للّفة بشكل مريب: «أليس من الأفضل أن تكون هذه اللّفة أصغر؟».

- «لا يا سيدي، ليس ونحن على هذا القدر من العجلة».

وضحكت فيبي وهي تضغط على اللّفة بيدها.

- «حسنًا ستكون جيّدة في صدّ الهواء، لا تنسي خطاب العمّة جيسي، أتوسل إليكِ».

- «لا يا سيدي سأرسله على الفور».

وجرت فيبي على ضفة النهر كما لو كانت لها أجنحة.

- «سنُلقي نظرة على المنارة أولا، فأنتِ لم تريها من قبل وهي تستحق المشاهدة، وبحلول الوقت الذي ننتهي فيه من ذلك سيكون الجو دافئًا وبإمكاننا تناول الغداء

مكتبة ياسين

تحت الأشجار في الجزيرة».

كانت روز جاهزة لأيّ شيء. لقد استمتعت جدًا بزيارة المنارة عند المرسى، خاصة عند تسلّق السلّم الضيق والصعود داخل المنارة. ظلّوا هناك لفترة طويلة وبدا الدكتور أليك مستريحًا ولم تظهر عليه أيّ علامات استعجال. ظلّ ينظر من خلال منظاره المقرّب كما لو كان يتوقّع أن يكتشف شيئًا رائعًا في البحر أو على الأرض. بلغت الساعة الثانية عشرة قبيل وصولهم إلى الجزيرة، وكانت وروز مستعدة لتناول الغداء حتّى قبل أن يذهبا إلى الجزيرة.

كانا مستلقيان يتناولان شطائرهما بمتعة شديدة تحت شجرة تفاح عجوز، عندما قالت روز: «كم هذا رائع! أتمنى لو كان الصبية معنا هنا، ألن يكون من الرائع اصطحابهم وهم في إجازاتهم؟ لماذا لم نبدأ من اليوم؟ ألم يكن ذلك ممكنًا؟ أوه، أتمنى لو كنت تذكّرت أن أقترح ذلك من قبل. ربما كانوا سيأتون معنا».

كان الدكتور أليك يشرب شايًا باردًا. نظر إليها وتكلم بكل هدوء: «قد يمكننا ذلك في المرة القادمة، إذ لسنا في عجلة. أتوقع أن الصبية سيعاقبوننا حينما يكتشفون أننا ذهبنا من دونهم».

- «عمّي.. أشمّ رائحة شيء ما يُقلى».

قالت روز وهي تتوقف فجأة لتجمع ما تبقى من طعام الغداء.

- «وأنا أشمّ أيضًا، إنها رائحة سمك على ما أظنّ».

مكتبة ياسين

جلس الاثنان يشمّان الهواء بأنفيهما ككلبي صيد ليعرفا مصدر الرائحة، ثمّ قفز الدكتور أليك قائلا وقد حسم قراره:

- «الآن... هذا لن يحدث! ليس مسموحًا لأيّ شخص على هذه الجزيرة أن يفعل ذلك من دون إذن. يجب أن أرى من الذي تجرأ وقلى سمكًا في ملكيتي الخاصة».

أخذ السلة على ذراعه وحمل اللفة بالذراع الآخر وتمشّى باتجاه مصدر الرائحة. كان يبدو شرسًا كالأسد، بينما تمشي روز تحت مظلتها.

- «نحن روبنسون كروزو ورفيقه فرايداي(41) ذاهبان لنرى المتوحّشين». قالت روز معلقة على الأمر، فخيالها مليء بالقصص القديمة اللطيفة التي يعشقها غالبية الأطفال.

- «ها هم... خيمتان وقاربان، يا للهول! هؤلاء الأوغاد كانوا هنا، وهذا هو الدليل».

- «من المفترض أن توجد قوارب كثيرة ولا توجد خِيم، أتساءل أين السجناء؟».

- «هذه آثارهم».

وأشار الدكتور أليك إلى رؤوس وذيول أسماك مبعثرة على العشب.

قالت روز ضاحكة وهي تشير إلى كومة قرمزية من الكركند: «وهذه آثار أخرى».

- «ربما يأكل المتوحشون ضحاياهم الآن، ألا تسمعين

مكتبة ياسين

صلصلة السكاكين في تلك الخيمة؟».

أضافت روز وهي ما زالت تواصل مزحتها: «علينا أن ننسلّ ونتلصّص، كروزو كان يقظًا كما تعلم وفرايداي كان خائفًا من ذكائه».

- «لكن كروزو كان سينقضّ عليهم غير عابئٍ بالعواقب، إذا قتلت أو أُكلت خذي السلة واركضي إلى القارب، فهناك مؤن كافية لرحلتك إلى المنزل».

انسلَّ العم أليك وأصبح أمام الخيمة، ألقى اللّفة الكبيرة كقنبلة وزأر بصوت مرعب:

- «استسلموا أيّها القراصنة!».

صدام... صياح... ضحكات... خرج المتوحشون يلوّحون بالسكاكين والشوَك وعظام الدجاج وأكواب صفيح، وسقط كلّ ذلك على الدخيل يضربونه بلا رحمة وهم يصيحون:

- «جئت في وقت مبكر جدًا ونحن بالكاد نصف جاهزين، لقد أفسدت كلّ شيء، أين روز؟».

- «أنا هنا».

أجابت بصوت لطيف، واكتُشفت جالسة على كومة من ملابس السباحة الحمراء التي ظنّتها في أول الأمر كركند، وسقطت في حالة من المرح عندما اكتشفت أنّ آكلي لحوم البشر هم أبناء عمومتها الظرفاء.

بينما هم يلتفون حولها، قالت نصف موبّخة ونصف مرحّبة وبمتعة عظيمة بهذه المفاجأة المزدوجة: «أيها الفتيان الذين لن تنفعوا أبدًا. دائمًا تفاجئونني بهذه

مكتبة ياسين

السخافة، وأنا دائمًا أنخدع لأنّني لست معتادة على هذه المقالب. والعمّ شرير مثلكم... وهذه متعة عظيمة».

قال أرشي مرحبًا بالضيوف كعادته: «لم يكن عليكم المجيء إلا بعد الظهر لأنّ أمي كانت ستأتي إلى هنا لاستقبالك، لم تجهز الآن سوى خيمتكِ وكلّ شيء غير ذلك في فوضى. يمكنك الانتظار عند خيمتك التي كانت أول ما قمنا بتجهيزه، ومشاهدتنا ونحن نعمل».

عاد العم أليك إلى شخصيته الطبيعية بعدما تخلّى عن شخصية كروزو الشريرة وقال: «كان شيء داخل روز يؤكد وجود الصبية كما تقول دوللي وكأنّه شيء يسري في الهواء وسيظهر مرة واحدة، لذلك جئت معها، وكان عليَّ أن أتجوّل معها لمدة ساعة إضافية لكن رائحة السمك هي التي فضحتكم».

قالت روز بعد أن تراجعت دهشتها بعض الشيء: «أظنّ أنّ هذا المقعد رطب، ولا يمكنني الجلوس عليه».

أيادٍ عديدة متّسخة بالسمك ساعدتها على النهوض. وبينما يفرد أرشي الملابس القرمزية على العشب بالمجداف، قال:

- «حظينا بسباحة جيدة قبل العشاء وأخبرت الصغار بأن ينشروا هذه الملابس لتجفّ. أتمنى أن تكوني قد أحضرتِ ملابسك يا روز فأنتِ تنتمين إلى فرقة الكركند كما تعلمين، وستكون متعة لا نهاية لها ونحن نعلّمك الغطس والسباحة والمشي على الماء حتى».

مكتبة ياسين

- «لم أحضر شيئًا».

وعندما بدأت روز بالكلام قاطعها الصغار (عدا ويل وجوردي) الذين ظهروا يحملون اللّفة الكبيرة التي تبعثرت منها محتوياتها، فتدلّت من أحد أطرافها سترة حمراء ومن الطرف الآخر تدلّت عباءة زرقاء، وتبيّن أنّ المتبقي في اللّفة عبارة عن أغراض للحمام، بلاستيكيات وكوب فضيّ.

صاحت روز بعينين لامعتين: «أوه فيبي أيّتها الماكرة! هذا كان السرّ. إنها الأشياء التي حملتها إلى القارب قبل أن ننطلق».

وبينما يضعون اللّفة عند قدميها، لاحظ ويل: «أظنّ أنّ هناك شيئًا تحطّم أو قطعة من الزجاج سقطت».

أضاف ماك باستعلاء ذكوريّ: «ابحث عن فتاة تتحرك من دون مرآتها، ليس بيننا جميعًا من يحمل مرآة».

قاطعهم جوردي وهو يحرّك إصبعه ناحية ستيف: «داندي معه مرآة، لقد رأيته يضبط شعره المستعار وراء الأشجار بعد السباحة». فأسكته ستيف سريعًا بضربة خفيفة على رأسه بعصا طبلة كان يلمّعها للتو.

- «تعالوا.. تعالوا أيّها الكسالى عديمو الخبرة، عودوا إلى العمل وإلا لن تكونوا جاهزين لاستقبال أمّي. خذوا أشياء روز إلى خيمتها وأخبروها بتفاصيل كلّ شيء. ماك وستيف اذهبا الآن وأحضرا باقي القش، وأنتم يا شباب نظفوا الطاولة وجهّزوا كلّ شيء تستطيعون القيام به. لو سمحت يا خالي سأرحّب باقتراحك حول

مكتبة ياسين

خطوط الحدود وأفضل مكان للمطبخ».

الكلّ أطاع الزعيم، ورافق شارلي روز وقد خصّص نفسه لخدمتها. كانت روز مفتونة بمسكنها وبطريقة سير العمل وبالبرنامج الذي تمّ وضعه قبل مجيئها.

- «نخيّم خلال الإجازة في الأماكن المفتوحة دائمًا. هذا العام قرّرنا أن نجرّب الجزيرة، وبالفعل وجدناها مكانًا مناسبًا للتخييم، وستظهر ألعابنا الناريّة جيّدًا من هنا».

- «هل سنبقى حتى اليوم الرابع؟ أي ثلاثة أيام كاملة! أوه يا له من مرح كبير». قالت روز.

فقال شارلي وفي باله أن سنّه وصل لستة عشر عامًا: «استمتعي، نحن نخيّم دائمًا لمدّة أسبوع، أقصد نحن الرّفاق الفتيان، لكن هذا العام أراد الصغار أن يجيئوا فسمحنا لهم بذلك. سنقوم بالعديد من المقالب اللّطيفة كما سترين، كما أنّ هناك كهفًا سنلعب فيه لعبة (الكابتن كيد) (42) والقراصنة والسباقات وكلّ أنواع الألعاب. أنا وأرشي كبرنا على هذه الألعاب لكنّنا نلعبها من أجل إرضاء الصغار».

قالت روز بطريقة عفويّة مليئة بالتقدير والمجاملة للصبية: «ليس لديّ فكرة عن الطريقة التي يقضي بها الأولاد أوقاتًا جميلة، فألعابهم لم تبد ممتعة لي من قبل، إنّما أظنّ أنّ هذا بسبب عدم معرفتي أيّ صبيان بشكل جيّد، لكنّكم صبيان لطفاء بشكل غير عادي».

علّق شارلي: «أظنّ أنّنا مجموعة لدينا العديد من

مكتبة ياسين

المهارات كما ترين. نحن عشيرة كبيرة، فعائلتنا موجودة هنا منذ زمن طويل، لذا يمكننا فعل ما نحب. هنا يا سيّدتي يمكنك تعليق المرآة المكسورة على هذا المسمار وعقد شعرك كما تحبّين. يمكنك أخذ بطانية زرقاء أو حمراء وسادة من القش أو وسادة هوائية كما تحبين. يمكنك أن تقصّي شعرك لأقصى مدى وتصبحي حرة مثل نساء الأكواخ الأمريكيات الأوائل، فهذا الجزء مخصص لكِ يا سيدتي وقد حدّد العمّ خطًا لن يسمح لأحد بتجاوزه قبل طلب الإذن، هل هناك أيّ شيء أفعله من أجلك يا ابنة خالي؟».

- «لا، شكرًا لكَ، أظنّ أنّني لن أستخدم هذا المكان إلى أن تأتي عمّتي، وسأذهب معكم لأساعدكم قدر استطاعتي».

- «بالطبع، تعالي وشاهدينا في المطبخ، هل يمكنك الطهو؟».

سألها شارلي وهو يقودها عبر طريق صخريّ حيث ينشر أرشي ملابس الإبحار كمظلّة. فقالت:

- «يمكنني أن أعدّ الشاي وأحمّص الخبز».

- «حسنًا سوف نعلّمك كيف تقلين السمك وكيف تصنعين منه حساءً. والآن عليكِ فقط أن ترصّي هذه الأواني والطاسات بشكل دائريٍ وبذوق حسن وترتّبي المكان لأنّ العمّة جيسي تريد أن تقوم ببعض الأعمال في المطبخ وأريد أن يكون كلّ شيء جاهزًا حينما تأتي».

مكتبة ياسين

بحلول الساعة الرابعة كان المكان منظّمًا، واستقرّ العمال المرهَقون في (لوك أوت روك) (4.3) ليتمكّنوا من رؤية السيدة جيسي وجيمي الذي لا يبتعد أبدًا عن طرف مريلة أمّه. بدا الصبية في ملابس البحّارة كمجموعة من طيور زرقاء. أشرطة زرقاء ترتفع قليلا فوق سبع قبّعات، وأصوات كما لو كانت فرقة موسيقيّة، كلّ الفتيان يغنّون وصدى أصواتهم يصل للعمّة جيسي قبل أن تراهم بمسافة كبيرة.

في اللّحظة التي بان فيها القارب ظهر علَم الجزيرة. هلّلت السترات الزرقاء بحماسة كما في كلّ المناسبات، كأمريكان أصليين صغار، قوبل هذا الترحيب برفرفة المناديل وصيحات (راه، راه، راه) من ملّاح صغير كان يقف ملوّحًا بقبعته بقوّة بينما تمسكه أمّه من الخلف بحزم.

كليوباترا نفسها، وهي تهبط من سفينتها الذهبية، لم تُقابَل بهذا الترحيب القويّ (أمي الجميلة). حملها الشباب إلى خيمتها، من فرط حبّهم استسلمت الأم لقضاء ثلاثة أيام مجهِدة. رمى جيمي نفسه على الفور على روز لحمايتها من الأخطار المتعددة التي قد تهاجمهم.

تعرف من خلال خبرتها الطويلة أن الأولاد دائمًا جائعون. لذا اقترحت عليهم العمّة جيسي أن يتناولوا العشاء. أسرعت في إعداده مرتدية مريلة بقبعة قديمة لأرشي معلقةً فوق قبّعتها. ساعدتها روز وحاولت جاهدة أن تكون مفيدة مثل فيبي رغم أنّ شكل الطاولة قد جعل مهمة روز ليست بالسهلة.

مكتبة ياسين

في النهاية، انتهت المهمّة واستلقى الجميع تحت الأشجار يأكلون من أيّ طبق ويشربون من أيّ كوب غير منزعجين بالظهور الدائم للنمل والعناكب في بعض الأماكن التي لا يُتوقع وجود حشرات فيها.

- «لم أظنّ أبدًا أنّني سأحب غسل الأطباق لكنّني سأغسلها». قالت روز وهي تجلس في القارب بعد العشاء، تغسل الأطباق في البحر وتهتزّ بخفة وهي تجففها.

- «أمي دقيقة جدًا، علينا أن نفركها بالرمل ونمسحها بورق، أعتقد أنّ تلك أفضل طريقة».

علّق جوردي الذي استقرّ في قارب آخر بموازاة قارب روز.

- «كانت فيبي ستحبّ ذلك، أستغرب أن عمّي لم يدَعْها تأتي».

- «أعتقد أنه حاول لكن دوللي كانت حازمة جدًا في تمسّكها بها، وقالت إنّه لا بديل عنها. إنّنا جميعًا نحبّ غناء فيبي فقد كانت ستغرّد كطائر جميل، أليس كذلك؟».

- «كان من المفترض أن تأخذ إجازة مثلنا جميعًا، من السيّئ حقًا أنّنا تركناها».

شغل هذا بال روز أكثر من مرّة هذا المساء. كانت فيبي ستضيف الكثير إلى الحفلة الموسيقية الصغيرة التي أقاموها على ضوء القمر. كانت أيضًا ستستمع إلى القصص التي رويت وستحلّ الألغاز بسرعة وتضحك

مكتبة ياسين

من كلّ قلبها على هذا المرح. ليس هذا فقط، لكنّ المرح كان سيمتد ويصل حتّى وهما على السرير، ليكون أفضل ما في اليوم. كانت روز تتمنى وجود شخصٍ تحتضنه تحت البطانية الزرقاء، تهمس له وتقهقه معه وتقول له أسرارها كما تفعل الفتيات بكلّ مَرَح.

بعد فترة طويلة نام الجميع بينما استلقت روز مستيقظة متأثرةً بالحكايات التي حكيت والأفكار التي تخطر ببالها. ومن بعيد سمعت ساعة المدينة تدقّ الثانية عشرة. لمحت روز نجمة كبيرة كعين حالمة تتلصص عليها من فتحة الخيمة، صوت الموج جذبها للخروج. العمّة جيسي نامت بسرعة وجيمي متكوّر كالقطة الصغيرة عند قدميها، لم يتقلّب مثل روز التي تسلّلت متلفّعةً بغطائها لترى كيف يبدو العالم في منتصف الليل.

وجدت روز العالم جميلًا، جلست على برميل مكسور مستمتعة من أعماق قلبها بالمشاعر البريئة لتلك السنين. لحسن الحظ رآها الدكتور أليك قبل أن تقضي وقتًا طويلا وتصاب بالبرد، فقد خرج ليعقد باب الخيمة حتى لا يسمح بمرور المزيد من الهواء. رأى جسمًا صغيرًا في ضوء القمر، ولأنّه لا يخاف من الأشباح اقترب بهدوء ليجدها مستيقظة.

فقال وهو يمسّد على شعرها: «ماذا تفعل فتاتي هنا؟»».

أجابت روز بهدوء من دون اندهاش: «تستمتع بوقت جميل»».

- «أتساءل بأيّ شيء تفكر فتاتي بهذه النظرة الساهمة؟»».

مكتبة ياسين

- «أفكّر في القصة التي حكيتها لي عن البحّار الشجاع الذي تنازل عن مكانه في العوّامة لسيدة، وفي آخر نقطة من الماء التي أعطاها لطفل مسكين. الشخصيات التي تقدّم تضحيات تنال حبًّا وإعجابًا، أليس كذلك؟»، سألت بجدّية.

تنهد الدكتور أليك وقال: «عندما تكون تضحياتهم صادقة. فإنّ الشجعان لا ينالون الثّناء، لأنّنا في الغالب لا نعرفهم، ولا يقلّل هذا من عظمة أعمالهم بل على العكس يجعل من فعل الشجاعة أمرًا أصعب بكثير، ونحن جميعًا نحبّ التعاطف».التصقت روز بعمّها وسألت: «أظنّ أنّك قدّمت تضحيات عظيمة، هل تمانع أن تخبرني إحداها؟».

كانت إجابة العمّ غير رومانسية على سؤالها العميق: «آخر تضحياتي كان إقلاعي عن التدخين».

- «لماذا قررت الإقلاع عن التدخين؟».

- «لأنني سأكون نموذجًا سيّئًا للفتيان».

- «هذا شيء جميل منك يا عمّي، هل كان قرارًا صعبًا؟».

- «أنا أُفضل أن أقول إنّه كان صعبًا. لكنّه، كما قال رفيق عجوز وحكيم: إنّه من الضروري أن تفعل الشيء الصحيح، وليس شرطًا أن تكون سعيدًا بذلك».

تأمّلت روز كثيرًا ما قاله، وقد بدا أنّه أعجبها، ثم قالت بنبرةٍ مشرقة وصافية:

- «التضحية الحقيقية هي أن تمتنع عن شيء تريده أو

مكتبة ياسين

تستمتع به كثيرًا، أليس كذلك؟».

- «أجل».

- «تفعل الشيء بنفسك لأنك تحبّ شخصًا آخرَ جدًا، وتريده أن يكون سعيدًا؟».

- «أجل».

- تفعل ذلك برِضا وسرور بهذا الفعل غير مهتم إن تلقّيت المديح عليه أم لا؟».

- «أجل يا عزيزتي، هذه هي الرّوح الحقيقية للتّضحية، يبدو أنكِ فهمتِ ذلك وأستطيع القول بأنّ العديد من الفرص سوف تأتي خلال حياتك، العديد من الاختبارات الحقيقية، أتمنى ألّا تكون اختبارات قاسية».

همّت روز بالكلام ثم توقفت لبرهة، وقالت: «أظنّ أنّها ستكون كذلك».

- «حسنًا، عليكِ البدء بالتضحية من الآن، اذهبي للنوم وإلا ستكون فتاتي مريضة في الغد وعندها ستقول العمّات إنّ التخييم شيء سيّئ لها».

- «سأذهب. ليلة سعيدة».

قبّلته، واختفى الشبح الصغير تاركًا العمّ أليك يتمشّى على الشاطئ ويفكّر في بعض التضحيات التي جعلت منه الشخص الذي هو عليه الآن.

مكتبة ياسين

الفصل العاشر

تضحية روز

من المؤكد أنّ كثيرًا من المتعة والمقالب ستحدث على جزيرة كامبل في اليوم التالي، كما تنبأ شارلي. شاركت فيها روز وكانت جزءًا منها لأنّها نَوت أن تستمتع بكلّ دقيقة إلى أقصى حدّ. كان هناك إفطار عظيم ورحلة صيد ناجحة. كانت (قوات الكركند) (١٠١) على أهبة الاستعداد، حتى أنّ العمّة جيسي ظهرت معهم في رداء أحمر.

لم يكن هناك شيء لم يفعله العمّ أليك في الماء. بذل الفتيان قصارى جهدهم ليتساووا مع العمّ أليك في القوة والمهارة، فحدثت مسابقة غطسٍ عظيمة. كلّ واحد منهم مصمّم على أن يكون مميزًا. سبحت روز لأبعد عمق يمكنها الوصول إليه، وكان العمّ أليك يساعدها في الطّفو على ظهرها. طرطشت العمّة جيسي بهدوء وهي تسبح في المياه الضحلة مع جيمي الذي يجدّف بالقرب منها مثل حوت صغير بجوار أمه، يحوم حولهم الفتيان كقطيع من الفلامنجو المشتّت، ويتصرفّون كأنّهم في حفل راقص شهير من «مغامرات أليس في بلاد العجائب».

لا شيء سوى حساء السمك قادر على إغرائهم بترك هذا المرح الشديد... يتطلّب هذا الطّبق العريق تركيز العديد من العقول الجبارة، لذا خرج «أطفال الماء» إلى الشاطئ وانكبّوا على الطهو.

مكتبة ياسين

ليس من الضروري قول هذا، لكن حينما انتهى الطهو كان هذا أفضل حساء سمك تمّ طهوه، وهذه الكميّة التي تناولوها كانت ستذهل العالم لو اكتُشف سرّها. كان هذا الإجهاد يتطلب أخذ قيلولة فاستلقوا جميعا في الخيام أو خارجها كما يحلو لكلّ منهم.

بدا الصبية كما لو كانوا محاربين غطّوا في النوم بمجرد استلقائهم. الكبار سقطوا في قيلولة مريحة بينما كان الصغار في قمّة انتعاشهم وجاهزين للمزيد من المغامرات. بقايا أشياء وجدوها جعلتهم يوجّهون أنظارهم إلى الكهف، وهناك اكتشفوا أقواسًا، سهامًا، هراوات معارك، سيوفًا قديمة وبقايا أثرية ذات طابع حربيّ.

جلس الصبية على صخرة قريبة مع جيمي الذي بدأ في تمثيل بعض المعارك، وتابعه بقيّة الفتيان في تمثيل الكثير من المشاهد بقوة كبيرة ودقّة تاريخية جعلت روز تنظر إليهم مندهشة من موهبتهم الكبيرة.

قُتل الكابتن كووك(45) على يد سكان أوهايو الأصليين بطريقة مؤثّرة جدًا، ودُفن الكابتن كيد(46) ثروة لا حصر لها في غلاية حساء السمك في جوف الليل، وأُطلق النار على كلّ الأوغاد الذين وثق بهم وأفشوا سرّ الخبيئة. أتى سندباد إلى الشاطئ وقام بالعديد من المغامرات وغطّت الرمال الحطام الذي لا حصر له. اعتبرتها روز أكثر دراما مثيرة شاهدتها. انتهى الأداء برقصة تعبّر عن سكان جزيرة فيجي بصيحات همجية أفزعت النوارس. لم يكن لدى روز كلمات تستطيع أن تعبّر عن امتنانها وفرحها بما

مكتبة ياسين

شاهدت.

سبحوا مرة أخرى في الغروب. ثمّ مساءً آخر مبهجٌ على الصخور، وهم يشاهدون البواخر المضيئة في عرض البحر، والقوارب المبهجة الآتية من الميناء، انتهى اليوم الثاني من التخييم وذهبوا جميعًا للنوم مبكّرًا ليستعدوا لمهرجانات اليوم التالي.

همست روز لأرشي بينما كانت تتمنّى لهم ليلة سعيدة:

- «أرشي.. ألم أسمع العمّ يطلب منك التجديف إلى المنزل في الصباح من أجل إحضار الحليب الطازج وأشياء أخرى؟»».

- «بلى، لماذا تسألين؟»».

- «أيمكنني المجيء معك؟ لديّ شيء مهمّ جدًا أريد أن أرتّب له، تعرف أنّني أتيت على عجلة»».

- «ليس لديَّ مانع وأعتقد أن شارلي لن يمانع أيضًا»».

قالت روز بحماسة: «شكرًا لك، كنت متأكدة أنك ستقف بجانبي عندما أطلب مرافقتكما في الصباح ولن تقول أيّ شيء إلّا لشارلي.. هذا وَعد؟»».

اتخذ أرشي موقفًا بان عليه التأثر: «أقسم بالقمر الذي هناك»».

- «إنها غريبة الأطوار، أليس كذلك يا برنس»، قال شارلي بصوتٍ منخفض.

- «إنها شيء صغير لطيف على ما أظنّ. إنّني مغرم بها»».

مكتبة ياسين

سمعت روز هذا الحديث وذهبت إلى خيمتها تقول لنفسها بعزّة وهي ناعسة: «شيء صغير! حقا! هؤلاء الصبية يتكلمون عني كما لو كنت طفلة رضيعة، سيعاملونني باحترام بعد غد، أظنّ ذلك».

وقف أرشي بجانبها عند الصباح وكان طلبها مستجابًا في الحال قبل أن يعود الفتيان مباشرة. ذهبوا ولوّحت روز إلى سكان الجزيرة بشعورٍ قويّ، فقد كان غرض بطولي يتوهّج في داخلها، وروح جديدة أنشأتها نفسها المضحّية كانت على وشك أن تظهر عليها.

بينما أخذ الصبية الحليب جرت روز إلى فيبي تأمرها بأن تترك الأطباق التي بين يديها وترتدي قبعتها وتأتي إليها بورقة لتكتب رسالة للعم أليك تفسّر فيها هذا التصرّف الغامض. أطاعتها فيبي، وحينما ذهبت روز إلى القارب تصحبها فيبي أخبرت الفتيان أنها ليست جاهزة للذّهاب معهم، لكن يمكن للبعض منهم أن يعود ويصحبها عندما تعلّق شارة بيضاء على شرفتها.

- اعترض شارلي بدهشة عظيمة: «لكن لماذا لن تأتي الآن؟ ماذا يدور بعقلك يا آنسة؟ لن يحبّ العم أليك ذلك».

- «افعل فقط ما أقوله لك أيّها الشقيّ الصغير، سوف يفهم العم وسوف أشرح له، أطيعوني مثلما فعلت فيبي ولا تسألوا أيّ أسئلة، لديّ أسرار مثل بقيّة الناس».

مشت روز كامرأة مستقلة تمامًا وهو ما أثّر في أصدقائها كثيرًا.

مكتبة ياسين

- «هناك موضوع بيننا وبين الخال لذا لا ينبغي علينا التدخل، حسنًا هيا اركبي يا فيبي؟ ادفع القارب يا برنس».

استُقبلوا بدهشة من سكان الجزيرة، إذ حلّت فيبي في القارب مكان روز.

وكانت هذه هي الرسالة التي حملتها فيبي: «عمّي العزيز.. سآخذ مكان فيبي اليوم وأتيح لها فرصة أن تمرح معكم، أرجوك لا تمانع ما أقوله لك.، اهتمّ بها وأخبر الصبية أن يكونوا جيّدين معها من أجل خاطري. أعرف أنّه من الصعب التّنازل عن هذه الأيام العظيمة لكنّني أشعر بالأنانية عندما أستمتع وفيبي محرومة من هذا، تمنّيت أن أقوم بهذه التضحية. دعني أفعل ذلك ولا تسخر منّي، أنا في الحقيقة لا أتمنّى أن أحظى بالثناء، أنا حقًا أريد أن أفعل ذلك».

محبّتي

المخلصة روز

قال الدكتور أليك بعد أن هدأ هذا المزيج من الدهشة والمتعة في آن: «عزيزتي الصغيرة، أي قلب نبيل تملكينه! أليس علينا أن نذهب إليها يا جيسي أم ندعها تختبر اختيارها؟».

قالت السيدة جيسي:

- «دعها بمفردها ولا تفسد عليها هذه التضحية الصغيرة، فهي تتمنّى ذلك بقوة، وأفضل طريقة نعبّر بها عن إعجابنا بهذه التضحية هي أن نمنح فيبي يومًا رائعًا،

مكتبة ياسين

أنا متأكدة أنّها تستحقه».

وأعطت إشارة للصبية لتهدّئهم وطلبت منهم بذل قصارى جهدهم لتسلية ضيفة روز. عندما منعت فيبي من العودة إلى المنزل صرّحت بأنها لن تستمتع ولو لدقيقة واحدة من دون الآنسة روز.

- «لن تتحمل البقاء بمفردها طوال اليوم، سنراها وهي تجدّف عائدة إلينا قبل الظهيرة، أراهن على ذلك». قال شارلي.

ومال البقية لرأيه بقوة وكانوا قد استسلموا لغياب ملكتهم الصغيرة عن اللّعب معهم، غير أنّهم متأكدون من أنّه غياب مؤقت. لكنّ الساعة وراء الساعة مرّت ولم تظهر أيّ شارة على الشرفة رغم أن فيبي قالت بأنها شاهدتها أو هكذا تمنّت.

كثيرة كانت العيون التي ترقب وصول شعرٍ لامعٍ أسفل قبعة مستديرة. ما من قارب يتّجه نحوهم. حلّ الغروب وحلّ هذا اللّون الرائع البديع لغياب الشمس، لكنّ روز لم تظهر.

- «لم أكن أتخيل في الحقيقة أنّ في داخلِ هذه الطفلة مثل هذا المعنى. تخيّلت أنّه قد يكون شعورًا عابرًا لكنّني رأيتها جادّة وقصَدت أن تكون تضحيتها صادقة. يا لهذه الرّوح الجميلة، سوف أعوّضها عن هذا آلاف المرات وسوف أطلب منها العفو لأنّني فكرت بهذا الشكل وتصوّرتُ أنّ الأمر مجرد أثر أرادت أن تتركه فينا».

مكتبة ياسين

قال العمّ أليك بندم وهو يتأمّل الغسق مركّزًا نظره متخيّلًا شخصًا صغيرًا مثل روز يجلس في الحديقة مثلما كانت تجلس على البرميل الليلة الماضية. كم يثمّن ذلك الموقف النبيل الذي أتى بنتائج لم يكن يتخيّلها.

قال أرشي الذي شعر بالضيق من تخلّي روز عنهم: «على أيّ حال لن تستطيع أن تمنع نفسها من مشاهدة الألعاب النارية إلا إذا حبست نفسها داخل خزانة مظلمة».

أضاف ستيف ملخّصًا سخرية ماك من تلك الاحتفالات: «سترى ألعابنا النارية بوضوح لكنّها ستفتقد العرض الكبير الذي سنقوم به على التلّ إلا لو نسي أبي عدّة الألعاب النارية».

قالت فيبي وهي تفكّر في الفرار بإحدى القوارب إذا أتيحت لها الفرصة: «بالنسبة لي إنّ رؤية روز ستكون أفضل من أيّ ألعاب ناريّة».

أضاف العمّ أليك وهو يتمنّى في قرارة نفسه أن لا تُقبل الدعوة: «دعوا الأمور تسير، لو رفضت تلك الدعوة الرائعة التي سوف نقدمها لها ستكون بطلة بحق».

في تلك الأثناء، قضت روز يومًا هادئًا مع أنّه كان فيه الكثير من العمل، مساعدة دوللي في انتظار العمة بيس، ورفض محاولات العمّة بلينتي إرسالها إلى الجزيرة السعيدة. كان صعبًا بالنسبة لها أن يأتي الصباح من دون أن تشارك في الاحتفال بكلّ هذه الأشياء البراقة في الخارج، من أعلام تطير، مدافع تدوّي، مفرقعات تفرقع والجميع يستعدّ للإجازة ويغسل الكؤوس بينما

مكتبة ياسين

دوللي تتذمّر والعمّات يشكَوْن. إنّه من الصعب عليها مرور الوقت طوال اليوم وهي تعلم أنّ كلّ ساعة كان من الممكن أن تقضيها في مرح عبر الماء، وأنّ كلمة منها ستأخذها إلى عالم ينشرح فيه قلبها. لكنّ أصعب شيء يحدث هو أن يحلّ المساء وتنام العمّة بيس والعمّة بلينتي تثرثر في غرفة الاستقبال ودوللي تمكث في الشرفة لتستمتع بالمناظر الخلابة، ولا شيء أمام الخادمة الصغيرة لتفعله سوى مشاهدة بهجة الصواريخ وهي تنطلق مفرقعةً من الجزيرة والتلّ والمدينة، بينما الفِرق الموسيقية تعزف، والقوارب المحمّلة بالناس السعداء تذهب جيئة وذهابًا في الضوء المتقطّع.

ثم لا بدّ أن نعترف بأنّ دمعة أو اثنتين قد غافلتا العينين الزرقاوين ذات مرة حينما كانت الجزيرة هناك في أوج بريقها في عرضٍ رائع ينير الجزيرة للحظة. تخيّلت أنها ترى الخيام وعندما أسندت الرأس ذا الشعر المجعد على الدرابزين جاءها صوت زهرة الكبوسين السهرانة تهمس: «آمل أنهم يفتقدونني.. آمل أنّهم يتمنون لو كنت هناك».

ابتسمت حينما تخيّلت حجم العمل الذي على الفتيان القيام به للإبقاء على الألعاب الناريّة في وضع الاستعداد. لم تعد هناك دموع رغم مشاهدتها التلّ والجزيرة وهما يحييان على بعضهما كما قال جيمي بالضبط: «أزيز.. ثم مفرقعات.. ثم سقوط بديع».

دخل عليها العم ماك متعجّلا وقال:

- «تعالي يا طفلتي، ارتدي ملحفتك أو معطفك أو

مكتبة ياسين

أيّ شيء يحميك واركضي معي. أتيت لآخذ فيبي لكنّ العمّة تقول إنّها ذهبت وأنك حللتِ محلها، لذا جئت إليك. هناك في القارب مرح كثير وأريد أن تأتي معي لرؤية الألعاب النارية، حصلت عليها من أجلك ويجب ألا تفوتك حتّى لا يخيب أملي».

كما لو كانت تشعر بأنّ عليها رفض أيّ عرض يكون فيه تلميح لسعادة أو مرح، قالت: «لكن يا عمي... ربما...».

قاطعها العم ماك الذي بدا في عجلة من أمره هذه المرّة على الرغم من لطفه غير العادي: «أعرف يا عزيزتي، العمّة أخبرتني، لكن لا أحد يحتاجك الآن أكثر مني وأنا أصرّ على مجيئك».

ذهبت روز معه ووجدت في المركب رجلًا صينيًا صغيرًا ومعه فانوس مضحك في انتظارها ليساعدها على الصعود. هذا الرجل جعلها تهتزّ من كثرة الضحك لأنّه حاول أن يعبّر عن مشاعره بإنجليزية ركيكة مضحكة. كانت ساعة المدينة تدقّ التاسعة عند عبورهم الخليج، والألعاب النارية على الجزيرة تظهر كما لو أنّها فوقهم، ولم ترَ أيّ ألعاب نارية من التلّ على صواريخ الجزيرة.

- «لقد انطلقت ألعابنا الناريّة، أنا أراها تظهر من كافة أرجاء المدينة، كم هي رائعة».

قالت روز وهي تطوي رداءها وتتأمّل المشهد باهتمام كبير: «آمل ألا يقابل رفاقي مصاعب هناك».

تمتم العمّ ماك مضيفًا بضحكة راضية وكأنّه أطلق

مكتبة ياسين

شرارة:

- «لا، ليست هناك مصاعب، كلّ شيء يسير بسهولة، انظري يا روز كم ستحبّين تلك الأسهم النارية، لقد انطلقت خصيصًا تكريمًا لمجيئك».

نظرت روز بكلّ انتباه ورأت شرارات تتجمّع حتى تشكّلت في شكل مزهرية ذهبية ثم أنبتت أوراقًا خضراء ثم وردة قرمزية تلمع في الظلام.

سألت روز وهي تشبك يديها من السعادة بينما تنظر إلى الزهرة الجميلة: «هل هذه زهرة يا عمي؟».

أجاب العم ماك وهو يضحك ويستمتع بالمشهد كما لو كان صبيًا صغيرًا:

«نعم هي كذلك، انظري مرة أخرى وخمّني أيّ شيء هذا؟».

يظهر كأنّه إكليل للوهلة الأولى، ثم بعد ذلك ظهر ما يشبه مكانس بنفسجية تحت المزهرية. لكنّ روز خمّنت معناها ووقفت وهي تمسك بكتفه وتصيح بحماسة:

- «إنها أشواك يا عمي، أشواك اسكتلندية، هناك سبع منها، واحدة لكل صبيّ! أوه يا لها من مزحة».

ثم غرقت في الضحك حتى سقطت في قاع القارب وظلّت جالسةً حتى اختفى المشهد الرائع تمامًا.

- «كان هذا شيئًا أنيقًا إلى حدّ كبير... انا أمدح نفسي»، قال العمّ ماك بسعادة غامرة بعد نجاح عرض الألعاب الناريّة. ثم أضاف بنبرة ودودة:

مكتبة ياسين

- «الآن هل أحملكِ إلى الجزيرة أم ستعودين معي إلى المنزل مرة أخرى يا فتاتي الصغيرة الجميلة».

مدّت روز جسدها وقبّلته مع ابتسامة. وعلى الرغم من اللّمحة الحزينة التي رمقت بها الجزيرة، ومع أنها قريبة منها لدرجة تُمكّنها من شمّ رائحة المساحيق ورؤية خيالات غامضة ترفرف في الظلام، فقد أجابت:

- «إلى المنزل من فضلك يا عمّي، وأشكرك جزيل الشكر على هذه الألعاب الناريّة التي أعددتها لي، أنا سعيدة برؤيتها وأعرف أنّني سأحلم بها».

أعادها إلى المنزل. وقبل أن تغفو روز قالت لنفسها: «كان أصعب ممّا أتخيل لكنّني مسرورة لفعل ذلك، وأنا في الحقيقة لا أريد أيّ مكافأة سوى سعادة فيبي».

مكتبة ياسين

الفصل الحادي عشر
ماك المسكين

كانت تضحية روز فاشلة من ناحية واحدة. رغم أنّ الكبار أحبّوا هذه التضحية وبيّنوا ذلك، غير أنّ الصبية لم يستوهم توقها المفاجئ لأن تكون بهذا الاحترام. جرحت مشاعرها في الحقيقة عندما سمعت أرشي يقول إنّه لا يرى أيّ معنى لهذا الفعل، وأضاف البرنس ما زاد الطين بلّة حينما وصفها «أكثر الجبناء غرابة».

صحيح أنّ ما قامت به كان جديرًا بأن تحتمل من أجله كلام الفتيان، غير أنّ كلامهم كان أقسى من قدرتها على الاحتمال. نحن لا نبحث عن أناس يتملّقوننا أو يبالغون في مدحنا، إنّما نبحث عن أناس يقدّرون أعمالنا كما هي وسوف نشعر بالإحباط لو لم نجد ذلك.

مرّ الوقت سريعًا ورغم أنّ روز توقّفت عن التّفكير في الأمر بشكل لا واعٍ -أن تكسب احترام الفتيان- لكنّها حازت على امتنانهم وأثارت عاطفتهم.

بعد فترة وجيزة من أحداث الجزيرة، أصيب ماك بضربة شمس وظلّ مريضًا لبعض الوقت. كان الأمر مفاجئًا لدرجة أنّ الجميع أصيبوا بالذهول ولبعض الأيام كانت حياته في خطر. عندما تحسّنت حالته، ورغم سعادة العائلة، ظهرت مشكلة جديدة ألقت بظلالها الكئيبة عليهم جميعًا.

ماك المسكين الذي كان ضعيفًا على أيّ حال فقد بصره. ولأنه أهلك عينيه وأجهدهما قد تضاعفت

مكتبة ياسين

مأساته الآن. لم يجرؤ أحد أن يخبر الصبيّ بحقيقة ما قاله طبيب العيون من تنبؤات سوداوية جدًا عن حالته، حاول الصبي التحلّي بالصبر معتقدًا أن أسابيع قليلة من الراحة ستصلح إجهاد سنين عديدة.

كان ممنوعًا من النظر حتّى إلى كتاب، وهو ما يعدّ من أكثر الأشياء التي تسعده في الحياة، فكان هذا ابتلاء فظيعًا «لدودة القراءة». كان الجميع مستعدًا لأن يقرأ له، وكان الفتيان يتسابقون في ذلك. لكن مع مرور الأسابيع، ما زال محكومًا على ماك بالبقاء في الحجرة المظلمة وعدم فعل شيء آخر. انطفأت حماستهم وتراجع الواحد منهم تلو الآخر، فقد كان المطلوب صعبًا بالنسبة للرفقاء النشيطين، وخاصة في منتصف إجازتهم. لم يلقِ أحد اللوم عليهم عندما اكتفوا بإجراء مكالمات قصيرة وإبداء عبارات التعاطف الحارّة والقيام بالمهام الموكلة إليهم فقط.

بذل الكبار قصارى جهدهم، العم ماك رجل منشغل، العمّة جين قراءتها مملّة جدًا ومن المستحيل الاستماع إليها لفترة طويلة، والخالات الأخريات منشغلات بشؤونهن الخاصة، ورغم هذا فإنّهن لا يبخلن في تحضير كلّ ما يشتهيه من طعام ومن تقديم كلّ ما استطعن اختراعه من تعاطف.

العمّ أليك مضياف بطبعه، لكنّ وقته لن يتّسع لكلّ ما يحتاجه ماك الصغير. وهكذا، لولا روز لساءت إصابة «الدودة» أكثر، فصوتها يؤنسه ولديها سعة صدر كبيرة، وليست لديها التزامات محدّدة لتشغلها. كانت

مكتبة ياسين

نواياها الطيبة مطمْئنة للغاية وقوّة التفاني الأنثويّ ظاهرة عليها، ظلّت على موقفها هذا بإخلاص في حين تساقط الآخرون واحدًا تلو الآخر.

ساعة بعد ساعة تجلس في حجرة مظلمة وشعاع واحد من الضوء ينير كتابها، تقرأ للصبيّ الذي يستلقي بعيون مغلقة صامتًا يستمتع بالشيء الوحيد الذي يسعده في هذه الأيام الكئيبة. تصبر روز على تغيّرات مزاجه، فهو مرة يكون عنيدًا ومن الصعب إرضاؤه، ومرة أخرى يتذمر حينما يجد أنّ القارئ لا يستطيع أن يستوعب الموضوعات الجافة لبعض الكتب التي يتمنّى قراءتها. وبعض المرات يكون في حالة من القنوط لدرجة أنّ قلبها يؤلمها لمجرد رؤيته.

خلال كلّ هذه المحاولات ثابرت روز مستخدمة كلّ فنونها الصغيرة لإرضائه، عندما يغضب تكون صبورة، عندما يتذمّر تحاول مرارًا وتكرارًا بشجاعة كبيرة لتصل إلى المعنى الكامن في تلك الصفحات الجافّة التي تقرأها ولا تستطيع فهمها. بعض الدموع الصامتة تنساب مرة من عينيه ومرة من عينيها، وحينما يتملك اليأس من ماك تعزّيه روز بالأمل وتشجّعه بكلماتها الصادقة.

رغم أنه لم يتكلم كثيرًا فإنّها تعرف كم هو ممتنٌ لها، فهي أكثر واحدة عرفت كيف تقف بجانبه أكثر من أيّ شخص آخر، لو تأخّرت عليه يشعر بأنّ صبره نفد، لو اضطرت للخروج يشعر بأنه مُهمل. عندما يزداد ألم رأسه تهدّئه حتى ينام وتدندن له الأغاني القديمة التي كان أبوها يحبّها. تكرّر العمّة جين دائمًا:

مكتبة ياسين

- «لا أعرف ماذا سأفعل من دون هذه الطفلة؟».

يقول ماك وهو يحاول أن يتأكد أنّ المقعد الصغير الذي أعدّه لها مريح وجاهز لاستقبالها: «هذه الفتاة وحدها تعادلهم جميعا».

كان هذا هو نوع المكافأة التي أحبّتها روز، فهذا الشكر يبهجها. حينما تشعر بالتعب الشديد، نظرة واحدة إلى تلك الشاشة الخضراء التي تغطّي عينيه كانت كفيلة بأن تجعل هذا الرأس ذا الشعر المجعد الذي لا يهدأ على الوسادة مرتاحًا جدًا، وحينما تمتدّ يداه المسكينتان إليها وتلمسانها تشعر كما لو أنّ روحًا جديدة أينعت في داخلها وأنّ صوتًا جديدًا غير صوتها المتعب ظهر للوجود.

لا تعرف مقدار ما كانت تتعلّمه، سواء من الكتب التي تقرأها أو التضحيات التي تقوم بها. القصص والشعر مصدر سعادتها لكنّ ماك لا يلقي لها بالًا. ومنذ أن مُنع عنه كتبه المفضّلة عن اليونانيين والرومان بات يكتفي بأخبار عن السفر والسيَر الذاتية وتاريخ الاختراعات والاكتشافات العظيمة.

في البداية كرهت روز هذا الذّوق، لكن بعد ذلك ازداد شغفها «بمغامرات ليفنجستون(47)» وحياة هوبسون(48) المثيرة في الهند والتجارب الشجاعة والاختراعات العظيمة لوات(49) واركرايت(50) وفولتون(51) وباليسي(52) صانع الفخار.

تلك الكتب الحقيقية، القوية ساعدت الفتاة الحالمة. إخلاصها وصبرها الجميل لامس روح الصبي. بعد فترة

مكتبة ياسين

طويلة استطاعا أن يتعلما كيف أن الساعات الصعبة قادرة على تعليمهما أشياء عظيمة.

ذات صباح مشرق، وبينما كانت روز تستعد للبدء في قراءة كتاب كبير بعنوان «تاريخ الثورة الفرنسية»، وتتوقّع أن الكآبة سوف تحلّ عليها بسبب هذا الاسم الطويل، وقف ماك، الذي كان يمشي متثاقلًا في الغرفة كدُب أعمى، فجأة ليسألها:

- «في أيّ يوم من الشهر نحن؟».

- «في السابع من أغسطس على ما أظن».

- «مضى أكثر من نصف إجازتي ولم أستمتع فيها سوى لأسبوع فقط، هذا شيء مؤلم». ثم تأوّه بشكل كئيب.

- «صحيح ما تقول لكنّ المستقبل ما زال أمامنا وستكون قادرًا على الاستمتاع به».

- «ربما أكون قادرًا! سوف أكون قادرًا! هل ذلك المغفل يظنّ أنّني سوف أمكث هنا لفترة أطول؟».

- «أظنّ أنه عليك أن تكون صبورًا إلى أن تتحسن حالة عينيك، ونأمل أن تتحسّن بشكل أسرع مما يظنّ».

- «هل صرّح الطبيب بشيء جديد مؤخرًا؟».

- «لم أره كما تعلم. أيمكن أن أبدأ؟ هذا الكتاب يبدو لطيفًا».

- «اقرئي أو لا تقرئي، كل الأشياء سواء بالنسبة لي».

وألقى ماك نفسه على أريكة قديمة حيث شعر رأسه الثقيل بالراحة.

مكتبة ياسين

بدأت روز القراءة بحماسة، واستمرت على حماستها لفصلين، تتغلّب على الأسماء الصعبة النّطق بنجاح غير متوقع. لم يصحّح لها مستمعها ولا مرّة وظلّ مستلقيًا كما هو، كما لو كان مصغيًا بعمق. وفجأة أوقفها وهي في منتصف فقرة ممتعة وجلس منتصبًا وخبط بقدميه على الأرض، وقال بصوت خشنٍ ومتحمّس: «توقفي، لم أسمع كلمة واحدة وخذي نفسًا لتجيبي على سؤالي».

مضطربةً سألت روز: «أيّ سؤال؟». ذلك أنّ بعض المخاوف كانت تدور في عقلها وجاءت كلماته اللاحقة لتثبت أنّ مخاوفها حقيقية.

- «الآن... انظري هنا، أريد أن أعرف شيئًا وعليكِ أن تخبريني».

توسلت إليه روز: «أرجوك لا...».

- «عليكِ أن تفعلي ذلك وإلا سأنزع هذا الغطاء وأحدّق في الشمس بقوة، تعالي الآن!».

صاحت روز بنبرة رجاء: «سوف أخبرك، سوف أقول لك إذا كنتُ أعلم، لكن لا تكن متهورًا وتفعل شيئًا جنونيًا كالذي تريد فعله».

- «ممتاز. اسمعيني ولا تتهرّبي مثلما يفعل الآخرون. ألم يظنّ الطبيب أنّ حالة عينيّ كانت أسوأ في المرة الأخيرة؟ لن تخبرني أمي بشيء فعليكِ أنتِ أن تخبريني».

قالت روز بتعثر: «أعتقد أنّه قال ذلك».

- «خمّنت ذلك. ألم يقل إنّني سأكون قادرًا على

مكتبة ياسين

الذهاب إلى المدرسة عندما تبدأ؟».

قالت بصوت منخفض: «لا يا ماك».

- «آه!».

هذا كل ما حدث. لكنّ روز رأت ابن عمّتها يزمّ شفتيه ويأخذ نفسًا طويلا كما لو أنّها ضربته بقوة. تحمّل الإحباط بشجاعة على أيّ حال وسأل بثبات: «هل قال متى يعتقد أنّه يمكنني العودة إلى الدراسة مرة أخرى؟».

كان من الصعب على روز الإجابة عن هذا السؤال، لكنّها تعرف الآن أنّ عليها تقديم إجابة رغم أن العمّة جين ألحّت عليها بألّا تخبره، والعمّ أليك أيضًا توسّل إليها بألّا تقول الحقيقة للفتى المسكين.

- «ليس قبل شهور عديدة»، قالت بتلعثم.

سأل بنوع من الفظاظة المثيرة للشفقة: «كم المدّة؟».

- «ربما سنة».

- «سنة كاملة! لماذا؟ كنت أتوقع أن أكون جاهزًا للجامعة بحلول ذلك الوقت».

رفع غطاء عينيه وحدّق فيها بعينين حائرتين سرعان ما أُغلقتا وعصرتا من شعاع ضوء واحد.

قالت روز والدموع تتلألأ في عينيها: «تحتاج إلى وقت طويل حتى يمكنك فعل هذا، ولا بدّ من أن تتحلّى بالصبر وستتحسن حالتك وإلّا ستحدث لك مشكلة مرة أخرى، وستكون أصعب وستحتاج عندها إلى وقتٍ أطول لتتعافى».

مكتبة ياسين

ضرب بقبضته على الوسادة كما لو كان يكلّم الطبيب القاسي القلب: «لن أفعل ما قلته، سأدرس وأتجاوز هذه المرحلة، كلّ هذا هراء... عناية طويلة...! يحبّ هؤلاء الأطباء حبس الناس لو استطاعوا، لكنّني لن أسمح بذلك ولن أقف مكتوف الأيدي أمامهم».

قالت روز بجدّيّة شديدة رغم أنّ قلبها يؤلمها وصوتها يهتزّ قليلا: «الآن يا ماك، اسمعني. تعلم أنّك أذيت عينيك في القراءة على ضوء المدفأة، وفي الغسق، والسهر لمدة طويلة، والآن عليك أن تدفع ضريبة كلّ هذا كما قال الطبيب، يجب أن تكون حريصًا وتفعل ما يقوله وإلا ستصاب بالعمى».

- «لا، لن أفعل!».

- «لكن اِعلم، هذا حقيقيّ، وأراد الطبيب ألا نخبرك بشيء لأنّه يعتقد أنّ الراحة الكاملة ستحسّن من حالتك. أعلم أنّ هذا صعب جدًا لكنّنا سنساعدك، سأقرأ لك طوال اليوم وآخذ بيدك وأنتظرك وأحاول أن أجعل الأمر سهلًا عليك».

توقفت عند هذا الحدّ. فمن الواضح أنّه لم يعد يسمع أيّ كلمة، فكلمة (تصاب بالعمى) صدمته، فدفن وجهه في الوسادة واستلقى ثابتًا لدرجة أخافت روز وجعلتها تجمد في مكانها لدقائق. تمنّى لو تريحه لكنّها لا تعرف كيف تفعل ذلك وتمنى أن يأتي العمّ أليك، فقد وعدها بأنّه سيخبر ماك.

في تلك اللّحظة خرج صوت مخنوق من الوسادة عصر قلبها، فهي لم تسمع نحيبًا أقوى من هذا قبل ذلك، رغم

مكتبة ياسين

أنّها تعرف أنّ هذا النحيب سيريحه فإنّ على هذا الرفيق المسكين أن يتوقّف عن البكاء حتّى لا يؤذي عينيه.

سقط كتاب «الثورة الفرنسية» عن حجرها وتدحرج ناحية الأريكة، فجثت بجانب ماك قائلة بشفقة تشعر بها كلّ الفتيات تجاه أيّ مخلوق حزين:

- «أوه يا عزيزي، لا تبكِ، إنه شيء سيّئ لعينيك المسكينتين، ارفع رأسك عن هذه الوسادة الحارّة ودعني أبرّدها لك. أنا أتفهم شعورك هذا، لكن أرجوك لا تبكِ، سأبكي أنا من أجلك فهذا لن يؤذيني».

بينما هي تتحدّث سحبت الوسادة بخفة فوجدت الشاش الأخضر قد ابتلّ وملأته دموعه الحارة التي تنبئ عن خيبة أمل مريرة. شعر ماك بمواساتها ولكن لكونه صبيًا لم يشكرها بل جلس مرتعشًا يحاول فرك عينيه بأكمام السترة:

- «لا تنزعجي، العيون الضعيفة دائمًا يغمرها الماء، أنا بخير».

لكنّ روز صرخت وأمسكت ذراعه قائلة:

- «لا تلمس عينيك بهذا القماش الصوفيّ الخشن، اتركها ودعني أنظفها يا رفيقي العزيز، بهذه الطريقة فقط ستتجنّب عيناك الأذى».

قال وهو يشيح بيديه في وجهها ويأمرها كما لو كانت ممرضته: «لا تخشي على عينيّ من الأذى لكن لا تخبري الرّفاق بأنّي بكيت كالأطفال». ثم طرح سؤاله:

مكتبة ياسين

«أستفعلين ذلك؟»».

ثم استسلم لغَسول العينين والمنديل القطني.

- «بالطبع لن أفعل، لكن أيّ شخص في مكانك سيكون محبطًا، أنا متأكدة أنّك تواجه كلّ هذا بشجاعة وأنت تعرف أن الاعتياد يجعل الأمر السيّئ أقل سوءًا، بالإضافة إلى أنّ ما تمرّ به هو مسألة وقت وينتهي ويمكنك القيام بالكثير من الأشياء السارة إذا لم تتمكن من الدراسة. ربّما ينبغي عليك ارتداء نظارات زرقاء لتقي عينيك، أسيكون ذلك مضحكًا؟»».

وبينما تلقي عليه كلّ كلمات المواساة كانت تنظّف عينيه بماء الخزامى وتربّت على جبينه ومريضها مستلقٍ بهدوء وعلى وجهه نظرة حزينة.

قال كما لو كان يتحدّث إلى نفسه بجدّيّة تامّة. فحتّى مجرد ذكر النظارة الزرقاء لم يجعله يبتسم: «هومير كان أعمى وكذا ميلتون وعلى الرّغم من ذلك فإنّهما تركا أعمالًا عظيمة»».

علّقت روز: «أبي كان معه صورة لميلتون وبناته وهنّ يكتبن له، كانت صورة جميلة على ما أظن»».

كأنّما ذكر هؤلاء أدخل إلى نفسه بارقة أمل، فقال: «ربما أستطيع أن أدرس إذا قام شخص بالقراءة لي بديلًا عن عينيّ، هل تعتقدين أنّني سأستطيع ذلك بمرور الوقت؟»».

- «يمكنني أن أقول هذا لشخصٍ عنيد مثلك. ضربة الشمس هذه هي التي أحبطتك، وعقلك يحتاج للرّاحة

مكتبة ياسين

كما يقول الطبيب».

- «المرة القادمة حينما يأتي رفيقي القديم سيكون لي حديث معه وسأجد طريقة أستطيع من خلالها تنفيذ ذلك، وسيكون عليّ تحديد أين أقف الآن وكم كنت أحمق في اليوم الذي أربكت فيه عقلي وتركت الشمس تتوهج على كتابي لدرجة أن الحروف كانت تتراقص أمامي. أراها الآن تظهر أمامي عندما أغلق عينيّ، مثل كُرات سوداء ونجوم وكلّ أنواع الأشياء الغريبة. أتساءل إذا كان هذا يحدث مع كلّ المكفوفين».

اقترحت روز: «لا تفكّر فيها، أيمكننا أن نكمل قراءتنا؟ سنصل للجزء المثير قريبًا وساعتها ستنسى كل هذا».

- «لا لن أنسى هذا أبدًا. اتركي الكلام عن الثورات القديمة الآن، لا أريد أن أسمع كلمة في هذا الموضوع، رأسي يؤلمني وأشعر بالحرارة، لست الشخص الذي يبحث عن المشاكل». واستلقى ماك المسكين وقد بدا عليه أنه لا يعرف ماذا يفعل.

قالت روز وهي تأخذ مروحة وتجلس بجواره: «دعني أغنّي لك حتى تغفو وعندها ستشعر بأنّ اليوم أقصر».

- «ربما سأنام، فأنا لم أنَم كثيرًا الليلة الماضية، وعندما نمت رأيت أحلامًا ممتعة، والآن يمكنك أن تخبريهم جميعًا أنّني عرفت كلّ شيء، والأمور على ما يرام ولا أريد منهم التحدّث عن هذا الموضوع أو الولولة أمامي، وهذا هو كلّ شيء. الآن يمكنك الدندنة بعيدًا وسأحاول النوم، أتمنى لو أنام سنة كاملة وأستيقظ وأنا معافى».

مكتبة ياسين

قالت روز بحماسة شديدة: «أوه كم أتمنى هذا، أتمنى لو تشفى بأسرع وقت ممكن».

كان ماك يتحسس بيده ليمسك بطرف مريلتها كما لو أنه سيشعر بالراحة أكثر بالقرب منها، وقال:

- «أنتِ روح صغيرة جميلة يا روزي تمنحين الجواهر، مثل هذا النعاس الجميل الذي كان يأبى القدوم».

كانت روز راضية تمامًا عن هذه العودة الصغيرة لسيرتهم الأولى، غنّت بكلّ تعاطفها وبنبرة حنونة جميلة:

فتاة صغيرة جميلة ذهبت مع الرفاق

ذهبوا جميعًا ليأتوا بالألماس

هل ذهبت الفتاة أم لم تذهب، لا يمكننا التأكّد. لكنّ الفتاة كانت في طريقها إلى أرض منحدرة وفي غضون عشر دقائق، وبينما هي تهبط سمعت أخبارًا سيئة لكنّها تحمّلتها بشجاعة كبيرة.

مكتبة ياسين

الفصل الثاني عشر
بقية الرفاق

أخبرت روز «الجميع» بما حدث، ولم يولول أحد أمام ماك أو يتفوّه بكلمة واحدة أزعجته. تحدّث مع الطبيب وارتاح قليلا، ووجد بأنّ كلّ المطلوب منه هو ألا يقوم بأيّ شيء على الإطلاق. وبالنسبة لإنجاز دراسته، خطوة بخطوة سيتمكّن من تحقيقها إذا كان كلّ شيء على ما يرام، وعندها سيجد في نفسه الشجاعة ليتحمّل آلام الحاضر. اتّخذ قراره وتصرّف بحكمة أدهشت الجميع، لم يكن أحد يشكّ كثيرًا في مدى صلابة وقوة (دودة القراءة) الهادئة.

تأثّر الأولاد كثيرًا بما أصابه وبصلابته في مواجهة تلك الإصابة. كانوا في غاية اللّطف معه، غير أنّ تصرفاتهم كانت تنقصها الحكمة أحيانًا، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بإبهاجه أو تسليته. فغالبًا ما تجده روز بائسًا بعد زيارة العشيرة لمواساته. لا تزال تحتفظ بمكانتها (كرئيسة تمريض) و(كبيرة القرّاء) بالرغم من أنّ الصبية بذلوا قصارى جهدهم بطريقة غير منتظمة. أحيانًا يدهشهم تفضيل ماك لما تقدّمه روز على ما يقدّمونه، ويسرّون لبعضهم بأنّ «ماك القديم مغرم بكونه مدلّلا»، لكنّهم أدركوا الأهمية العظيمة لروز وعرفوا أنّها الوحيدة التي بقيت على إخلاصها، وهذه الحقيقة جعلتهم يشعرون بالذنب بين الحين والآخر.

شعرت روز بأنها صاحبة القرار في هذه الغرفة -إذا

مكتبة ياسين

لم يكن في أماكن أخرى- فقد تركت لها العمّة جين مسؤوليّة كبيرة نظرًا لأنّ خبرتها الكبيرة في التعامل مع أبيها العاجز أهّلتها لأن تكون ممرضة. وفي حالة ماك، فإنّ اقتراب سنّهما كان ميزة كبيرة وليس عيبًا.

سرعان ما تأكد ماك بأنّ لا أحد سوف يهتم به مثل روز، وسرعان ما ازداد تعلّق روز بمريضها رغم أنّه في البداية كان أقلّ أبناء عمومتها السبعة جاذبية، فهو لم يكن مهذّبًا ولا حسّاسًا مثل أرشي، ولا أنيقًا ووسيمًا مثل البرنس شارلي. ولا لطيفًا ومنظّمًا مثل ستيف. ولا مسليًا مثل المشاغبين الصغار. ولا حسن الظنّ بالناس أو عاطفيًا مثل جيمي الصغير. كان جادًا، شارد الذهن، مهملًا ومرتبكًا، متزمّتًا نوعًا ما ولم يكن مقبولًا على الإطلاق بالنسبة لفتاة محبّة للجمال مثل روز.

لكن عندما حلّت به هذه المحنة اكتشفت روز أشياء جيّدة في ابن عمّتها هذا، وتعلّمت ليس فقط الإشفاق عليه بل تعلمت أن تحترم وتحبّ «الدودة المسكينة» الذي بذل جهده للتحلّي بالصبر والشجاعة والبهجة. ووجدت أنّ قيامه بذلك كان أصعب ممّا يتخيّل أيّ شخص، عدا الممرضة الصغيرة التي رأته في كلّ حالاته. سرعان ما اعتقدت أن أصدقاءه لم يقدّروه بشكل كافٍ، وما حدث لماك غيّر من حُكمها على الفتيان.

أوشكت الإجازة على الانتهاء واقترب وقت المدرسة السعيد الذي سوف يحرم منه ماك بكل أسف، وهو الأمر الذي أحبطه بشدّة. بذل أبناء خالاته قصارى جهدهم لجعله سعيدًا، وخاصّة في ظهيرة أحد الأيام

مكتبة ياسين

عندما انتابتهم نوبة من الإخلاص الشديد.

مشى جيمي أسفل التلّ متثاقلا وفي يده سلّة من التوت الأسود الذي قطفه كلّه بنفسه حتّى خدش أصابعه وتأكّد من مذاقه حتّى لطّخ شفتيه. أحضر ويل وجوردي جراءهم ليتسلوا في الساعات الثقيلة، والشبّان الثلاثة الكبار جاؤوا يتحدّثون معه حول لعبة البيسبول والكريكت وموضوعات عن العشيرة، وبخاصة تلك الموضوعات القادرة على أن تنسي ماك حرمانه.

ذهبت روز مع العم أليك الذي صرّح أنها شاحبة مثل حبّة بطاطا صغيرة بسبب قضائها معظم الوقت في غرفة مظلمة، لكنّها كانت مع الصبيّ بكامل كيانها طوال الوقت، وبمجرد أن عادت جرت إلى حجرته لتجد الأمور في حالة من الفوضى.

رغم نيّة الفتيان الحسنة فإنّ ضررهم كان أكثر من نفعهم. بدا المشهد كلّه بالنسبة لعيني «الممرضة» مزعجًا حقًا. الجراء كانت تنبح والصبية الصغار يصيحون والفتيان الكبار يتحدّثون معًا في آن واحد. الستائر مرفوعة وباب الحجرة مغلق. ثمار التوت مبعثرة في كلّ مكان، والشاش الذي على عين ماك نصف مرفوع. خدّاه حمراوان وهو غاضب يرفع صوته ليعلو فوق أصوات الجميع لأنّه كان يتشاجر مع ستيف حول إعارته بعض الكتب الثمينة التي لا يرغب في التخلّي عنها.

اعتبرت روز هذا المكان مملكتها الخاصة، فنزلت على الغزاة بطاقة أذهلتهم وقعت الشغب في الحال. لأوّل مرة يرونها منفعلة بهذا الشكل، وتأثيرها فيهم كان

مكتبة ياسين

عظيمًا ومضحكًا في الوقت نفسه. فقد أخرجت قطيع الصبية من الحجرة كما لو كانت دجاجة صغيرة ساخطة تدافع عن صغارها. ذهبوا جميعًا بخنوع مثل الأغنام، هرب الصبية الصغار من المنزل على عجل والثلاثة الكبار ذهبوا إلى الحجرة الأخرى وظلّوا يأملون بأن يجدوا فرصة ليشرحوا ما حدث ويقدّموا اعتذاراتهم ويحاولوا استرضاء الفتاة الغاضبة التي قلبت الأمور رأسًا على عقب ورمتهم كلّهم في الخارج. وبينما ينتظرون ظلّوا يراقبون الأمر من خلال فرجة في الباب وتعليقاتهم المختصرة، لكن الواضحة جدًا، تتوالى معبّرين عن الندم جراء الضّرر الذي أحدثوه بكلّ براءة.

قال ستيف بعد فترة من التلصّص: «في لمح البصر أعادت الغرفة إلى سيرتها الأولى. كم كنّا تافهين حين تركنا الكلاب تدخل وتحدث كلّ تلك الفوضى والشجار حتّى طردتنا جميعًا».

حينما سمع شارلي ماك وهو يشتكي من الارتباك الحاصل في رأسه قال: «يا لدودة القراءة المسكين، تقسو الفتاة عليه بشدّة بدل أن تربّت عليه كقطّة وديعة، ألا تعتقدون أنّه يبدو كالمصلوب؟».

أرشي الذي شعر باللّوم على نفسه بسبب كلّ ما فعلوه، قال وعلى وجهه علامات الإحباط: «يمكنها أن تتدبر أمره، لكن هذا يعني أنّ عليها أن ترتّب كل هذه الفوضى التي تسبّبنا في إحداثها، أتمنّى لو أستطيع المساعدة، لكنّني لا أعرف كيف أفعل؟».

قال شارلي وهو يتأمّل تلك الحقيقة التي لا يمكن

مكتبة ياسين

إنكارها: «صحيح وأنا أيضًا أتمنّى ذلك أكثر منك، غريب حقًا أليس كذلك؟ يا لها من امرأة ماهرة تستطيع الاعتناء بمن يمرض في العشيرة».

قال ستيف كما لو كان يؤنّب نفسه: «يجب أن نعترف بأنّها فتاة مميّزة. لقد كانت جيّدة دائمًا مع ماك».

قاطعه أرشي كأنّما وجد راحته في التمادي في الشعور بالذنب: «إنّها أفضل حتى من إخوته».

احتجّ ستيف في دفاعه عن نفسه: «حسنًا يا رفيق، لست بحاجة للوعظ، فهو لم يعد بحاجة لأيّ منّا بعد الآن. بالنسبة لك، يحبّك ماك أكثر مما يحبّني، فدائمًا ما أُغضبه حسبما يقول معتبرًا أنّني شخص يهتمّ بالتفاهات».

أرشي، الذي كان على العموم أقلّهم انتباهًا لمجرى الحديث، فضّل أخذ الحديث نحو الإيجابية بدلًا من تأنيب الذّات، قال:

- «كلّنا جميعًا أنانيين وأهملناه، لذلك لن نتعارك على ما فات، علينا أن نحاول فعل ما هو أفضل».

علّق شارلي وهو يشعر بأنّه لم ينصف روز كما يجب: «روز وقفت إلى جانبه كشخص صالح، ولا عجب في أن يكون ممتنًا لها أكثر منّا. لو كنت مكانه لفعلت هذا وخاصة إذا كنت عاثر الحظ مثله».

- «سأخبركم بالأمر، لم نكن جيدين بما يكفي مع روز، وعلينا أن نعوّضها بطريقة ما».

قال أرشي بشهامة الرجال راغبًا في أن يعطي كلّ ذي

مكتبة ياسين

حق حقّه حتى ولو كانت فتاة.

- «أنا آسف حقًا حينما سخرتُ من دميتها لمّا سحبها جيمي، وقلت عنها «الطائر الرضيع» عندما كانت تبكي على القطة النافقة وأنّ الفتيات أحيانًا يكنّ ساذجات.. ولم أستطع مقاومة ذلك».

قال ستيف معترفًا بذنوبه بشكل صادق مظهرًا شعوره بأنه مستعدّ تمامًا للتكفير عنها:

- «سوف أنزل على ركبتي وأطلب منها العفو على معاملتها كما لو أنها طفلة. أيمكن أن تظلّ غاضبة حتّى لو فعلت ذلك؟ إنّها أصغر مني بسنتين أو شيء كهذا. إنّها صغيرة جدًا وجميلة، تبدو دائمًا وكأنّها دمية بالنسبة لي».

نظر شارلي إلى أسفل كما لو كانت روز بالفعل قزمًا بجانبه.

- «تلك الدمية تمتلك قلبًا صغيرًا عطوفًا وعقلًا لامعًا وعليك أن تصدّق ذلك. يقول ماك إنّه يمكنها فهم أشياء أسرع مما نستطيع، وتعتقد أمي أنّها فتاة لطيفة بشكل غير عاديّ رغم أنّ هناك الكثير من الأمور التي نعرفها لا تعرفها هي. لا تتصرّف بغرور يا شارلي، رغم أنّك أطولنا إلا أن روز تحبّ أرشي أكثر منك، وهي بنفسها قالت ذلك لأنّه يتعامل معها باحترام».

- «يبدو ستيف شرسًا كديك في حلبة المصارعة لكن هدّئ من حماستك قليلًا يا بني لأنّ ذلك لن ينفعك بشيء. بالطبع الجميع يحبّ الزعيم وعليهم أن يفعلوا ذلك وإلا سوف أعاقبهم، لذا هدّئ من روعك يا داندي

مكتبة ياسين

وانظر إلى نفسك قبل أن تلوم الناس».

كان البرنس يتكلّم بكبرياء عظيم كما لو كان شخصًا كاملًا، بينما بدا أرشي متواضعًا وممتنًا لآراء أقاربه الجيدة. وهدأ ستيف بعدما شعر أنه قام بواجبه كأخ وابن خالة. وعقب ذلك جرى توقّف مؤقّت بسبب ظهور العمّة جين في الحجرة الأخرى حاملةً صينية شاي مجهّزة بشكل فاخر، جاهزة لإطعام أطفالها، فلم تكن تسمح لأحد غيرها بالقيام بتلك المهمة.

قالت السيّدة جين وهي تفرد الخبز المحمّص بطريقة فاخرة: «لو يسمح وقتك بدقيقة فقط قبل ذهابك، أرجوكِ أن تعدّي شاشًا نظيفًا لماك فقد لُطخت الشاشة القديمة بالتوت ولا بدّ من أن تُنظّف إذ ربما يخرج غدًا إذا كان الجو غائمًا ولم تظهر الشمس».

فأسقط ماك كوب الشاي من دون تلقّي كلمة توبيخ واحدة.

أجابت روز بوداعة شديدة: «أجل يا عمّتي».

كان يصعب على الأولاد تصديق أنّ هذا الصوت هو الصوت نفسه الذي أصدرت به أوامرها منذ قليل عندما علا صوتها عليهم: «اخرجوا من الحجرة كلّكم... جميعًا... في الحال».

ما عاد لديهم وقت للتّراجع من دون إثارة جلبة فاستكانوا. مرّت روز من أمامهم في صالة الاستقبال حتى وصلت إلى المنضدة وجلست تعمل من دون أن تنبس بكلمة.

مكتبة ياسين

لقد كان مضحكًا أن ترى الفتيان الثلاثة يخضعون لشخص صغير بهذا الحجم. وها هي تخيط الحرير الأخضر بإبرتها، وقد بدا جليًا من خلال التعبيرات الظاهرة على وجهها أنّها تنوي أن تثأر لكرامتها حتى يُظهروا لها ندمهم بالطريقة التي ترضيها، بينما هم جميعًا يريدون التعبير عن ندمهم لكن لا أحد فيهم يعرف كيف يبدأ.

أصبح الأمر مربكًا جدًا إلى أن قام شارلي -الذي يتقن كلّ فنون الإقناع منذ مولده- بالنزول على ركبتيه ببطء، فضرب بيده على صدره ثم قال بنبرة كسيرة:

- «أرجوكِ سامحيني هذه المرة ولن أعود لفعل مثل ذلك مرة أخرى».

كان من الصعب على روز أن تحتفظ بوقارها، لكنها تماسكت وأجابت بشجاعة:

- «عليك أن توجّه هذا الاعتذار لمالك وليس لي لأنّك لم تؤذني. لستُ مندهشة من أنّك لا تولي له أيّ أهميّة كما كان واضحًا من السماح بدخول هذا الضوء الذي يؤذيه إلى داخل الغرفة، وأيضًا تلك المضارب وذلك الصراخ والنقاشات حول الأشياء التي تصيبه بالقلق».

- «هل تظنّين أنّنا أذيناه يا ابنة الخال؟».

سأل أرشي بنظرة مرتبكة بينما يجلس شارلي على الأرض ووجهه يظهر من بين أرجل المنضدة وعليه علامات الندم.

- «نعم أعتقد أنكم فعلتم. لقد أصيب بصداع شديد

مكتبة ياسين

وكانت عيناه حمراوين مثل هذه الفراولة».

أجابت روز بجديّة وهي تغرس إبرتها في قطعة من القماش المبطنة بالقطن على شكل حبّة فراولة كبيرة.

شدّ ستيف خصلة شعره المحبّبة إليه كما لو كان سيقتلعها كتعبير مجازيّ عن استيائه. هذا الفعل هو أقسى شيء يكفّر به عن الأضرار التي تسبّب بها. استلقى شارلي على الأرض يتوسّل بطريقة ميلودرامية لشخص ما بأن يأخذه ويشنقه، لكنّ شعور أرشي بالخطأ كان أشدّ منهم جميعًا. لم يقل شيئًا، لكنّه تعهّد في قرارة نفسه بأن يظلّ يقرأ لماك حتى تحمرّ عيناه مثل تلك الفراولة، أو عشرات منها.

رؤية الآثار الجيدة المترتّبة على تعاملها مع هؤلاء المذنبين جعلها تشعر بأنّه ينبغي أن ترقّ قليلًا وتمنحهم بصيص أمل. وجدت أنّه من المستحيل أن تضغط على البرنس المتسطح على البلاط بالكلام فقط، قد أذى مشاعرها أكثر مما كان يقصد، لذلك رمته بالكشتبان على مقدمة رأسه قبل أن تقول له بكبرياء مَن كسِب المعركة:

- «لا تكن سخيفًا وانهض وسوف أخبرك بشيء أفضل من افتراش الأرض، انفض الغبار عنك».

أطاعها شارلي واقترب ليجلس على مسند عند قدميها، واقترب المذنبون الآخرون منها تتشوّق آذانهم لالتقاط الكلمات الحكيمة وهي تقع من شفتيها، ولانت روز أمام هذا الخنوع المرضي وخاطبتهم بلهجة أمومية:

مكتبة ياسين

- «الآن يا أولاد... لو كنتم تريدون الخير لماك عليكم ألا تواصلوا الحديث عن الأشياء التي لن يستطيع القيام بها، وألّا تتكلموا عن تلك المتع السخيفة التي تقومون بها. أحضروا كتابًا لطيفًا واقرأوا له بهدوء، اجعلوه يشعر بالبهجة التي كان يشعر بها في المدرسة. ساعدوه في تحصيل دروسه خطوة بخطوة، يمكنكم فعل ذلك أفضل مني لأنّني مجرد فتاة لا تعرف اليونانية واللاتينية وكلّ هذه الأشياء التي توجع الدماغ».

- «لكنّكِ تستطيعين فعل أشياء أكثر بكثير من التي يمكننا القيام بها ولقد أثبتِّ ذلك».

قال أرشي بنظرة ثقة أفرحت روز رغم أنّها لم تستطع أن تقاوم الشعور بأنّ عليها أن توبّخ شارلي مرة أخرى. فقالت وهي تمطّ بشفتيها بدلًا من أن تبتسم: «سعيدة لأنّك تظنّ ذلك فأنا مجرد 'دجاجة غريبة'».

هذه الملاحظة القاسية التي ذكّرته بما قاله جعلت البرنس يخبّئ وجهه من الخجل بينما انتصب ستيف بكل فخر فرحًا بأنّه قد نجا من هذا التوبيخ. ضحك أرشي وكذا فعلت روز، حينما رأيا عينين زرقاوين مبهجتين تغمزان لهما من خلف يدين بنيتين، وقرصت أذن شارلي برفق وحلّ جوّ من السلام بين الجميع.

- «الآن سنكون جميعًا جيدين ونخطط لفعل أشياء لطيفة من أجل ماك».

قالت وهي تبتسم بلطف لدرجة أنّ الصبية شعروا كما لو أنّ الشمس ظهرت فجأة من وراء سحابة ثقيلة. حلّ صفاء على إثر العاصفة وساد جوّ من الطمأنينة وتبارى

مكتبة ياسين

الجميع في وضع خطط مدهشة تظهر تضحياتهم النبيلة من أجل ماك المسكين. وكانت روز النجمة المرشدة التي ينظرون إليها باستكانة، وبالطبع سيكون من الجميل استمرار هذه الحالة من المعنويات المرتفعة التي لم تدم طويلا، وكانت فترة رائعة على أيّ حال تركت أثرها الممتاز على الجميع.

قالت روز بينما تنهي وضع الشاش الجديد وهو العمل الذي راقبه الصبية باهتمام: «ها هو جاهز للغد وأتمنى أن يكون الجو غائمًا».

قال شارلي الذي عاد لمرحه مرة أخرى: «كنت أنوي أن يكون الغد مشمسًا لكن ما دامت تلك رغبتكِ فسوف أتكلم مع موظف الطقس ليغيّره، إنّه زميل طيّب وسيفعل ما أقوله له لذا استعدّي للمرح».

- «من السهل عليكَ أن تُلقي النكات لكن كيف يمكنك تحمّل هذا الشاش على عينيك لأسابيع وأسابيع يا سيدي».

قالت روز فأطفأت ضحكته ثمّ وضعت الشاش على عينيه فهو ما زال يجلس على الوسادة عند قدميها.

- «إنه أمر مروع، أرجوكِ انزعي هذا الشاش فلا عجب في كآبة هذا الصبيّ المسكين بسبب ذلك الشاش على عينيه».

جلس شارلي ينظر إلى ما يبدو بالنسبة له أداة تعذيب لوجه رصين، وسحبت روز الشاش برفق وذهبوا، الواحد تلو الآخر، يتمنون لماك ليلة سعيدة.

مكتبة ياسين

قال أرشي ناسيًا أنه كان يضحك على نجلها: «لقد حلّ الظلام في الخارج وعليّ أن أنتظر روز لأصحبها إلى البيت لأنها نجولة ولن تطلب».

فقال ستيف كأنما يطالب بحق من حقوقه: «أظن أنّ عليّ أنا القيام بذلك كردّ جميل لأنّها اعتنت بأخي».

عندها اقترح شارلي بشهامة فاجأت رفاقه: «لنذهب جميعًا، سوف يسعدها ذلك».

صاحوا جميعًا بصوت واحد «نعم لنذهب جميعًا». وهكذا فعلوا، وهو التصرّف الذي حمل مفاجأة عظيمة لروز وطمأنها على الرغم من أنّ أرشي هو الوحيد الذي اهتمّ بها فعلًا، أما الآخرون فقد كانوا يقفزون على الأسوار ويقيمون مسابقات في الجري والمصارعة بينهم وكلّ أنواع المنافسات طوال الطريق، لكنّهم تماسكوا بمجرد الوصول إلى الباب وصافحوا روز بألفة وحرارة وانحنوا لها باحترام شديد ثمّ ابتعدوا بشهامة وكبرياء تاركين روز في حالة رضى أنثويّ تام وهي تقول لنفسها: «نعم هذه هي الطريقة التي أحبّ أن أعامَل بها».

مكتبة ياسين

الفصل الثالث عشر

ركن مريح

انتهت الإجازة وعاد الصبية إلى المدرسة وترك ماك المسكين لغضبه، خرج من الغرفة المظلمة الآن وارتدى نظارات واقية زرقاء يرى من خلالها العالم بشكل كئيب كما كان يتوقع. لا يوجد ما يفعله سوى التجوّل ومحاولة تسلية نفسه من دون استخدام عينيه. أيّ شخص محكوم عليه بهذا النوع من البطالة يعرف كم هو شيء بائس، ويستطيع أن يفهم الحالة الذهنيّة التي دفعت ماك أن يقول لروز بهذه اللهجة البائسة في أحد الأيام:

- «انظري هنا... إذا لم تخترعي أيّ عمل جديد أو مسلٍّ لي فسوف أضرب رأسي من دون أدنى شك».

طارت روز إلى العم أليك لإعطائها نصيحة. وكانت نصيحته قوية إذ أمر كلًّا من المريض والممرضة بالذهاب إلى الجبال لمدّة شهر برفقة العمّة جيسي وجيمي. انضمت بوكي ووالدتها إلى الجمع. وفي إحدى صباحات سبتمبر كان السعداء الستّة يصعدون القطار السريع إلى بورتلاند. والدتان مبتسمتان تحملان سلالًا فيها طعام وأغطية، وفتاة جميلة تحمل حقيبة من الكتب على ذراعها، وفتى طويل ونحيف بقبعة تحجب عينيه، وطفلان صغيران يجلسان بسيقانهم القصيرة أمامهم بوجوه لامعة تشعّ سعادة من دون حاجة للكلام (إنّها حقًا رحلة).

مكتبة ياسين

غروب شمس رائع يبدو أنه صُنع خصيصًا للترحيب بهم بعد رحلة استغرقت نصف يوم كامل. وصلوا إلى فناء أخضر واسع حيث يوجد مهر أبيض، بقرة حمراء، قطتان كبيرتان وأربع قطط صغيرة، العديد من الدواجن وعشرات الأشخاص كبارًا وصغارًا يمرحون. أومأ كلّ واحد منهم برأسه وابتسم بطريقة ودودة. سيدة عجوز نشيطة استقبلت القادمين بالأحضان وقالت بحماسة:

- «حسنًا، أنا سعيدة حقًا برؤيتكم، تعالوا واستريحوا وسنحتسي جميعًا الشاي خلال بعض الوقت، أنتم مرهقون بالتأكيد. عليكِ يا ليزي أن تقودي الأقارب إلى الطابق العلويّ. وأنتِ يا كيتي اذهبي بسرعة وساعدي أباكِ في ترتيب الحقائب، أمّا أنا وأنتِ يا جيني سوف نعدّ الطاولة ونجهّزها لكم، فليباركم الربّ أيها الأعزاء... تريدون الذهاب لرؤية القطط الصغيرة وسوف تفعلون».

قامت بناتها الثلاث بواجبات الضيافة على أكمل وجه وشعر الجميع أنّهم في منزلهم. فُتنت العمّة جيسي بالسجاد اليدوي والألحفة والأثاث الجذاب. لم تستطع روز الابتعاد عن النوافذ، فكلّ نافذة كانت وكأنها إطار للوحة جميلة، وسرعان ما كوّن الصغار صداقتهم مع الأطفال الآخرين الذين ملأوا أحضانهم بالدجاج والقطط الصغيرة واحتفوا بهم بشكل رائع.

تم استدعاؤهم جميعًا بصفير البوق من أجل تناول العشاء الكبير وحضور الحفل الذي شمل الأطفال

مكتبة ياسين

الستة بجانب أجراس المخيم. اجتمعوا في حجرة الطعام مسلّحين بجوع جبليّ وأرواح شديدة المرح، كان من المستحيل على أيّ شخص المجيء أو الحفاظ على رزانته في تلك العاصفة من السعادة التي جرفت الجميع.

الأم أتكينسون كما أسماها الجميع، مضيفتهم النشيطة، كانت الأكثر مرَحًا والأكثر انشغالًا، تتحرّك بخفّة بين الأطفال لتحضّر أطباقًا جديدة أو تطرد الماشية التي تتجوّل في المنزل، والتي تتّسم بمهارات اجتماعيّة حتى إنّ مهرًا منها دخل ليأخذ قطعة سكر. القطط تفترش حجورهم، وتغمز كي تحصل على طعام. حتى الدواجن المتّسخة تبحث في أرضية المطبخ عن فتات مندمجة معهم في الحوار بنقنقة مرحة.

بعد احتساء الشاي، انفضّ الجمع لمشاهدة الغروب حتى يختفي اللون الأحمر المحبّب ويعلن البعوض بطنينه عن انسحابه. موسيقى الأرغن أدهشت الضيوف ووجدوا الأب أتكينسون في غرفة الاستقبال يلعب بعذوبة على أداة صغيرة صنعها بنفسه. اجتمع كلّ الأطفال حوله وقادتهم الأخوات يغنّين بشكل جميل حتى راحت بوكي في النوم خلف الباب وأخذ جيمي يتثاءب بصوت مسموع في منتصف مقطوعته المفضلة:

«كو» هديل الحمام الصغير

كو..

تجمّع كل الحمام

كو

مكتبة ياسين

كو

شعر الضيوف الكبار بإرهاق السفر ونزلوا جميعًا إلى الأسفل في الوقت نفسه، ناموا على المراتب مثل كومة من الملاءات القديمة، تلك المراتب التي صنعتها الأم أتكينسون من القش وكأنّها وضعت عليها بودرة منومة. كم كان سباتًا عميقًا وحلوًا!

في اليوم التالي بدأت الحياة الطبيعية خارج المنزل. حياة فعلت الأعاجيب بعقول مراهقة وأجساد ضعيفة. كان الطقس ممتازًا، وهواء الجبل جعل الأطفال مرحين كالحملان الصغار بينما راح الكبار يبتسمون لبعضهم ويتبادلون عبارة:

- «أليس هذا رائعًا؟».

حتى ماك، «الأستاذ المتأنّي»، كان سيقفز عن السور كما لو أنه لا يستطيع مقاومة ذلك. وعندما جرت روز وراءه بقبعة واسعة الحواف قدّم لها اقتراحًا مفعمًا بالحيوية بالذهاب إلى الغابة واصطياد قطة جبليّة.

انسلَّ جيمي وبوكي معًا كعناصر من المشاة الخفيفة إلى ركن مريح وبدوا كفرقة رائعة حقًا، تتألف من الضباط فقط، يعتمرون قبعات عسكريّة ويحملون أعلامًا ويلوّحون بسيوفهم أو يقرعون الطبول. إنه مشهد يهيج الروح عندما تسير تلك الفرقة الأنيقة في الفناء بزيّ عسكريّ كامل، و«كابتن دوف» (53) الجاد، صبيّ في الحادية عشرة برأس كبير، يُصدر أوامره بهيبة جنرال

مكتبة ياسين

لكتيبته «الفلستافين»(54) التي تطيعه في سلاسة أكثر منها مهارة.

«أطفال الثلج» أدّوا ما عليهم بشكل جيّد جدًّا وكان الملازم «جاك دوف» بخير لرؤيتهم وكذلك كان «درامر فرانك»، فتى المهمّات في المنزل، قارع الطبول والذي عزف بأعواده (rub- a- dub- dubbed) (55) من كلّ قلبه. جيمي الذي تدرّب من قبل، أدّى دور العقيد، لكنّ بوكي كانت أفضلهم مما أدّى إلى أن تحوز على تصفيق من المشاهدين. كما أنّها أظهرت شيئًا نادرًا إذ كانت القبعة تغطي عينًا من عينيها وعلَمها مسنود أعلى كتفها وسيفها الخشبي واقف في الهواء باستقامة ووجهها مشرق وكلّ ثنية في ساقيها الثينتين تمايل بسرور في محاولة عبثيّة منها للحفاظ على مشيتها العسكرية.

ماك وروز كانا يقطفان التّوت الأسود من شجيرات بجانب الطريق، عندما مرّ بهم الجنود من دون أن يلاحظوهم، وكان مشهد الجنود بالنسبة لهما جميلًا ومضحكًا، على بعد مسافة قصيرة كان أحد أفراد العائلة يتفقّد أماكن الدفن الشائعة في تلك الأنحاء، وما إن توقفوا عندها حتى أمر الكابتن دوف رفاقه بالصمت وأوضح سبب ذلك بالكلمات التالية:

- «هذه مقبرة، وسيكون من المناسب أن نكّف عن قرع الطبول وننكّس الأعلام وسيكون من الأفضل خلع القبعات أيضًا، إنّ ذلك أكثر احترامًا على ما أظن».

مكتبة ياسين

- «أليست هذه براعة ماكرة من أعزائنا؟».

همست روز بينما تواصل خطواتها العسكرية بتأنٍّ من دون قرع وقد نكّس كلّ علَم وسيف، وكشفت كلّ الرؤوس وكانت التعبيرات الطفولية على وجوههم في غاية الوقار تحت ظلال الأشجار.

اقترح ماك الذي كان يجلس بجوار حائط ويأكل التوت الأسود الفاخر بعد أن شعر بالإرهاق: «دعينا نتبعهم ونرى ماذا سيفعلون بعد ذلك».

لذلك تبعوهم، وبعدما عبروا المقبرة سمعوا الموسيقى مجدّدًا تنبض بالحياة والرايات تخفق في نسيم الهواء، ورأوا الفرقة وهي تنزل إلى كنيسة قديمة خربة تقف على ناصية ثلاث طرق في الغابة. حينما سمعوا صوت غنائهم، فرّ الغرباء من المكان وتسرّبت الفرقة إلى داخل الكنيسة وبدأوا مراقبتهم من إحدى النوافذ المكسورة.

اعتلى كابتن **دوف** المنبر الخشبي القديم، يحدّق بحزم في فرقته المحتشدة على النافذة الآن. عادت الفرقة وجلست على مقاعد الكنيسة التي كانت بلا مساند، يغنّون ترنيمة **مدرسة-الأحد** بحماسة واستمتاع.

- «لنصلِّ جميعًا»، قال الكابتن دوف بوقار قسيس حقيقيّ، وهو يطوي يديه ويكرّر صلاته التي اعتقد أن الجميع يعرفها، كصلاة متكاملة صغيرة غير أنّها لم تكن تناسب هذا الصباح، فقد كانت الصلاة تقول: «الآن أخلد للنوم».

انضم الجميع وراحوا يكرّرون تلك العبارة وكان مشهدًا

مكتبة ياسين

جميلًا أن ترى مخلوقات صغيرة تحني رؤوسها المجعّدة وتلعثم بكلمات تعرفها جيدًا. انهمرت الدموع من عيني روز وخلع ماك قبعته لا إراديًا ثم ارتداها مرة أخرى كما لو كان يخجل من أن تظهر عليه أيّ مشاعر.

- «والآن سأعطكم بخطبة قصيرة: 'أيّها الأطفال، أحبّوا بعضكم بعضًا'. طلبت من أمي أن تعطيني موعظة واعتقدت أنّ هذا سيكون شيئًا جيدًا، لذا ابقوا في أماكنكم وسوف أعطكم بها. اسمعيني يا ماريون وكفّي عن الهمس. ينبغي أن نكون طيبين مع بعضنا البعض، وأن نلعب بشرف وأن لا نتصارع مثلما فعلنا هذا اليوم حول العربة. جاك لا يمكنه القيادة دائمًا وينبغي ألّا يغضب لأنّني أحبّ أن أذهب مع فرانك. على أنيت أن يكون حصانًا في بعض المرات وليس قائدًا طوال الوقت. وايلي يجب أن يتدبر الأمور ويترك ماريون تبني منزلها بجواره لأنّها ستفعل ذلك بالفعل، وليس عليه أن يقلق بخصوص ذلك. يبدو أن جيمي صبيّ جيد لكن ينبغي أن أعطه إذا لم يكن كذلك. لا يا بوكي الناس لا يقبّلون بعضهم في الكنيسة أو يرتدون قبعات. والآن يجب عليكم جميعًا أن تتذكروا ما قلته لكم لأنّني الكابتن ويجب أن تنتبهوا لي».

كانت هذه ملاحظة الملازم جاك الذي تحدّث مباشرة في لقاء مع المتمردين:

- «كما تشاء... لا تهتم... لكنّ نصيحتي لك أن تنتبه لنفسك وتخبرنا كيف أخذت حزامي، واحتفظت بأكبر قطعة من الكعكة، ولم تخطّط بعدل حينما كانت

مكتبة ياسين

لدينا الشاحنة».

صرخ وايلي سنو وهو يتمايل في مقعده: «نعم... وأنت صفعت فرانك لقد رأيتك».

صاح أنيت الأقدم في مجموعة سنو الثلاثية: «وأنت أخذت كتابي وخبأته لأنّني لم أرغب في الذهاب والتمايل كما أردت منّي أن أفعل».

انضمّت ماريون الصغيرة إلى هذا التمرّد: «لن أقوم ببناء منزلي بجوار وايلي إذا لم يرد أن أفعل».

صاحت بوكي بغضّ النظر عن جهود جيمي لتهدئتها: «سوف أعيد إصلاح نسيج ديمي، ولقد مزقتُ قبعتي بعدما شبكت بمسمار».

بدا على كابتن دوف الاندهاش من هذه الثورة في صفوف الفرقة، ولكن لكونه شخصيّة كريمة وهادئة قمع التمرّد المتصاعد ببراعة ومهارة كبيرة بقوله باختصار:

- «سنغنّي الترنيمة الأخيرة، 'جميل... جميل... إلى اللقاء'، وأنتم جميعًا تعرفونها لذا سننشدها بلطف وبعدها سوف نذهب ونتناول الغداء».

انتعشت بيس على الفور وانفجرت ضحكات مكبوتة من روز وماك غطّت على اللّحن. وجدا أنه من المستحيل الاحتفاظ برزانتهما خلال الجزء الأخير من هذا المشهد الرائع. خمس عشرة دقيقة من الراحة جعلت من المستحيل بدنيًا بالنسبة لأفراد الفرقة أن يخرجوا بهدوء مثلما دخلوا. أحزن أن أقول إنّ القوات بأكملها اندفعت بأقصى طاقتها إلى المنزل وسرعان ما

مكتبة ياسين

بدأت المناوشات بخفّة على الغداء ونسوا تمامًا ما قاله جيمي الذي أُعجب بالخطبة كثيرًا، وأسماها «عظة الكابتن الجميلة الراسخة».

كان من المدهش أنهم جميعًا وجدوا ما يفعلونه في ركن مريح. ماك بدلًا من الاستلقاء والقراءة على الأرجوحة الشبكية، كما كان يتوقّع منه البعض، كان أكثرهم انشغالا. تمّت دعوته ليعاين وينظّم سكيترفيل(56)، تلك المدينة التي استيقظ فيها الأطفال في مرعى التوت، وقد وجد تسليته في تخطيط طرق صغيرة وتحديد المناطق السكنية والاهتمام بالأعمال المائية والتشاور مع المجلس المحليّ عن أفضل المواقع بالنسبة للمباني العامّة، فما زال ماك صبيًا على الرغم من بلوغه الخامسة عشرة وولعه بالكتب.

ثم ذهب للصيد مع رجل لطيف ومرِح من الغرب رغم أنه من النادر أن يصطاد شيئًا، فهو فقط يصاب بنزلات البرد، إلا أنه يستمتع كثيرًا بالتدرب على مطاردة سمك السلمون ويقفز من أجل الحصول عليه. نشأ عند ماك أيضًا هوس جيولوجي وذهب يدقّ الصخور والحجارة باحثًا بحكمة في «الطبقات متتبعًا مراحلها ومحاولا الوصول إلى البقايا الحفرية» بينما روز قطفت الأوراق والأشنيات(57) وأعطته دروسًا في علم النبات مقابل محاضراته في الجيولوجيا.

لقد عاشوا حياة سعيدة للغاية، وبالنسبة لفتيات أتكينسون فقد كانت حياتهم عبارة عن نزهة، وكانت نزهة جميلة، حتى إنّهم لم يشعروا بالتعب أبدًا، لذلك

مكتبة ياسين

انتعش زوارهم. وقبل وقت طويل من انتهاء الشهر، كان من الواضح أنّ الدكتور أليك قد وصف الدواء المناسب لمرضاه.

مكتبة ياسين

الفصل الرابع عشر
ميلاد سعيد

كان الثاني من أكتوبر هو يوم الاحتفال بميلاد روز، لكن بدا أنّه لا أحد يتذكّر تلك المناسبة المهمّة، شعرت بالحرج من تذكيرهم بذلك، لذا خلدت إلى النوم في الليلة السابقة وهي تتساءل إن كانت ستحصل على هدايا. جاءتها الإجابة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، حيث استيقظت على نقرة في وجهها ففتحت عينيها لترى شكلًا صغيرًا أسود وأبيض يجلس على وسادتها، يحدّق إليها بعينين دائريتين تشبهان تمامًا التوت البري، بينما يربّت مخلب ناعم على أنفها لجذب انتباهها. كانت كيتي كوميت أجمل الهررة، ومن الواضح أن كوميت لديها مهمة تؤديها، فلديها قوس يزيّن رقبتها بورقة تحمل كلمات «إلى الآنسة روز من فرانك».

سرّها ذلك كثيرًا، وكان هذا فقط هو بداية المرح، فقد توالت المفاجآت والهدايا عليها بهذه الطريقة الرائعة نفسها طوال اليوم. فتيات أتكينسون أشهر من يلقين النكات وهنّ المفضلات عند روز. لكنّ أفضل الهدايا كانت في الطريق إليها حيث انطلقت ثلاث حمولات مبهجة بعد الإفطار مباشرة من أجل هذه المناسبة العظيمة. فذهب الجميع وهم يثبون من أجل قضاء المزيد من الأوقات الرائعة، وبخاصة الأم أتكينسون التي كانت ترتدي قبعة عريضة الحواف كالمظلة وفي يدها بوق العشاء تنفخ فيه كي تحافظ على مسار القطيع.

مكتبة ياسين

قال ماك لروز بثقة: «سوف أذهب لتوصيل خالتي والأطفال الصغار، لذا ينبغي عليك أن تمتطي المهر، ويرجى البقاء خلفنا قليلًا عندما نذهب إلى المحطة، فالطرد في الطريق ومن المفروض ألا تريه حتى وقت العشاء، لن تمانعي، أليس كذلك؟».

أجابت روز: «من دون شك». ثم أضافت بعد ثوانٍ من الصمت: «إنّه أمر يؤلم مشاعري كثيرًا أن يقالَ لي ابتعدي عن الطريق، لكن في أعياد الميلاد والكريسماس جزء من المتعة أن نكون عميان وأغبياء، وأن نتسلّل إلى الزوايا، سوف أكون جاهزة بمجرد أن تنتهي».

- «قفي تحت شجرة الإسفندان حتى لا تري أيّ شيء إلى أن أناديكِ».

أضاف ماك بينما يساعدها على امتطاء المهر خاصته الذي أرسله له أبوه لاستخدامه. كان باركيز مهرًا لطيفًا، رغم خوفها من امتطائه فإنها رغبت في مفاجأة الدكتور أليك حينما يراها عائدة إلى المنزل «تمشي بخفة على التلال وتبتعد(58)» مع ماك الذي فضل سوريرل العجوز، فرس السيد أتكينسون.

ذهبا بعيدًا، وحينما اقتربا من شجرة الإسفندان الأحمر أطاعتهم روز وتوقّفت لكنّها لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر تجاه تلك المفاجأة قبل أن يستدعيها الفتيان. حقًا كان هناك شيء أسفل مقعد روز وبينما كانت تهمّ بإزاحته لمحت رجلًا طويلًا، كان ماك يصفر له في العربة، ونظرة واحدة منها كانت كافية لأن تصرخ من

مكتبة ياسين

الفرح وتركض عبر الطريق بأقصى سرعة يمكن لباركيز أن ينطلق بها.

فكّرت، «الآن سأذهل عمّي، سأندفع بشكل رائع وأريه أنّني لم أعد جبانة». ملأها هذا الطموح بالحماسة ففاجأت باركيز بخزة حادّة أذهلته حينما دفعته لينزل في الطريق الصخريّ محاولةً التحكّم به على طريقتها. كان يمكن لتلك الطريقة أن تنجح لو أن روز توقفت قليلا وألقت السلام على دجاجتين أو أكثر ضلوا الطريق ومروا بجوار باركيز وكان صوت صياحهم كالصراخ، الأمر الذي جعل باركيز يتوقف فجأة ما جعل راكبته تسقط من فوقه بشكل مشين على كومة أسفل أنف سوريرل العجوز المندهش.

وقفت روز بسرعة قبل أن يخرج الدكتور أليك من سيارته وألقت بذراعيها المتربتين حول رقبته تبكي بصوت لاهث.

- «أوه يا عمّي، أنا سعيدة جدًا لرؤيتك. رؤيتك أفضل من عربة مليئة بالهدايا، ووجودك أجمل بكثير يا عزيزي».

أجاب الدكتور وهو في قمّة قلقه بينما كان يفحّص فتاته بكلّ اهتمام: «طمئنيني يا طفلتي هل أصابك أيّ أذى؟ لقد كان سقوطًا صعبًا وأنا أخشى أن تكوني قد تضرّرت بشكل أو بآخر».

قالت روز وهي مكتئبة وتهتزّ: «لقد تأذت مشاعري، لكنّ عظامي كلّها بخير... هذا شيء سيّئ! كدت أن أتمّ الأمر ببساطة لولا تلك الدجاجات الغبيّة التي

مكتبة ياسين

أفسدت كلّ شيء».

- «لم أصدق عينيّ عندما سألت 'أين روز'، وأشار لي ماك إلى تلك الفتاة المحاربة الصغيرة التي تنزل من أعلى التلّ بهذه الطريقة. لا شيء يسعدني بقدر رؤيتك تفعلين ذلك، فأنا مسرور لرؤيتك وأنت تمتطين الجواد بشكل جيّد. الآن هل ستفعلين ذلك مرة أخرى أم سيوصلك ماك على حصانه؟».

سأل الدكتور أليك بينما اقترحت العمّة جيسي على الجميع أن يتبعوها.

قال ماك الذي يكون عدائيًا عندما تُتاح له فرصة جيدة للتّنمر على الآخرين ويُمنع منها: «لا تستعرضي مرة أخرى، فدائمًا يتبع التعالي السقوط يا سيدتي».

فكّرت روز وهي تخفي آلامها بشجاعة: «حقًا التعالي يؤدّي بالفعل إلى السقوط، لكنني أتساءل هل يأتي بعدهما كاحل ملتوٍ دائمًا؟». ثم أجابت بكبرياء:

- «أنا أفضّل الركوب، هيّا بنا وانظر من منّا سيصل أوّلًا».

كانت مستعدّة وبعيدة وهي تحاول أن تمحو من ذاكرتها حادثة سقوطها. فجلست مستقيمة، المرفقان في الأسفل، رأسها مرفوع تتحرك كالمهر مثل باركيز الذي يعدو بسهولة كالكرسي الهزّاز.

قال ماك ردًّا على مدح خاله لتلميذته: «كان عليكَ أن تراها وهي تقفز من فوق السياج في سباقنا معًا. يمكنها أن تعدو كالغزالة عندما نلعب 'اتبع القائد' وعند إلقاء

مكتبة ياسين

الحجارة واللّعب بالمضرب كما أفعل بالضبط».

أضافت السيدة جيسي التي كانت طيلة شبابها فتاة طائشة: «أخشى أن تظنّ أنّها فتاة مسترجلة يا أليك، لكن في الحقيقة هي تبدو بحال جيدة وسعيدة، لقد جرت بشكل غير متوقّع كالمهر. تقول إنّها تشعر أنها ممتلئة بالطاقة ويجب أن تجري وتصرخ سواء كان ذلك مناسبًا أم لا».

فرك الدكتور أليك يديه بحماسة، وقال: «عظيم... عظيم هذه أفضل أنباء يمكنك إخباري بها، دعي الفتاة تجري وتصيح قدر استطاعتها فهذه علامة على الصحّة، وعلامة على أنّها طفلة طبيعية وسعيدة وتمرح مثل حيوان صغير ممتلئ بالحيوية. الفتيات المتشبّهات بالصبيان دائمًا ما يصبحن سيدات أقوياء، وأنا أفضّل أن تلعب روز مع ماك كرة القدم على أن تعبث بالحرز مثل تلك الفتاة المصطنعة أنّابيل بليس».

قالت جيسي: «لكنّها لن تستطيع أن تستمر في لعب كرة القدم لفترات قادمة، ويجب ألا ننسى أنّ لديها عملًا كامرأة عليها القيام به».

- «وأيضًا ماك لا يمكنه لعب كرة القدم لفترات طويلة قادمة، لكنّه سيكون قادرًا على القيام بأيّ عمل بشكل أفضل وذلك بسبب الصحّة التي منحتها له. تخطى الصعاب عندما يكون الأساس قويًا، فالطلاء بالذهب لن يجدي نفعًا إذا لم يكن الخشب صلبًا بما يكفي. أنا متأكد أنّني على حق يا جيسي، ولو استطعت الاستمرار على هذا الأداء نفسه مع فتاتي في الشهور

مكتبة ياسين

القادمة فأنا متأكد بأنّ تجربتي سوف تنجح».

- «سوف تنجح بالفعل، فعندما أقارن هذا الوجه اللامع المشرق بذلك الوجه الشاحب الضعيف منذ فترة أشعر بأنّ قلبي يؤلمني على ما مرّت به. يمكنني التصديق بأنّي معجزة بعد ذلك». قالت السيدة جيسي بينما تجول روز بعينيها على المناظر البديعة في البستان المجاور وخداها يشبهان التفاح الأحمر، وعيناها صافيتان كسماء الخريف بحيوية وتدفّق أنثوي.

أعقب التشية الصعبة بين الصخور غداء غجريّ معتاد، رغب الشباب بالمساعدة في تحضيره. ارتدت الأم أتكينسون مريلتها، شمّرت كمّيها واندمجت في العمل بحماسة كما لو كانت في مطبخها، تغلي الغلاية القائمة على ثلاثة أعواد فوق لهيب النار المنبثقة من احتراق أغصان شجرة التنوب، بينما تجهّز الفتيات منضدة عتيقة الطراز مع وليمة من كلّ الأشياء الجميلة. ويتدافعَ الأطفال في طريق كلّ شخص حتّى جعلهم صفير البوق يستقرّون كقطيع من الطيور الجائعة.

بمجرد انتهاء وجبة المرح وفترة الراحة القصيرة، كان هناك تصويت بالإجماع على إقامة بعض التمثيليات. تمّ اختيار بقعة خضراء مستوية بين شجرتي صنوبر كبيرتين من أجل إقامة المسرح. علقت الشالات وجمعت التجهيزات، انفصل الجمهور عن الممثلين وتمّ سريعًا اختيار كلمة وتمثيلها ليعرف المتفرّجون ما هي الكلمة.

تكشّف المشهد الأول عن ماك في حال بائس وثياب بالية ومن الواضح أنّه مضطرب للغاية، دخل إلى المشهد

مكتبة ياسين

مخلوق غريب، على رأسه كيس ورق بنّيّ اللون، يخرج أنفه الورديّ الصغير من فتحة في منتصفه وأسنانه البيضاء تظهر من فتحة أخرى، وعيناه متوهجتان بشدة، والعشب على جانبي فمه كما لو كان شعرًا. الزوايا العلوية للكيس مشدودة كأذنين ولا يشكّ أحد في لحظة أنّ الوشاح المثبت أسفل ظهره هو ذيل.

بدا هذا الحيوان الطريف من خلال تمثيله الإيمائي كما لو كان يعمل على راحة سيّده وتقديم المشورة له، تلك المشورة التي استمع إليها أخيرًا. أما ماك فقد خلع حذاءه وألبسه لهذا الوحش الصغير وأعطاه حقيبة، ثم قبّل مخلبه. أطلق الحيوان هريرًا كصيحة تقول: «قط... أم أرنب وحشي... أم حذاء؟»».

أجابه الجميع: «القطة هي الكلمة الصحيحة»، ثم أسدلت الستائر.

كان المشهد الثاني عبارة عن لغز، حيوان آخر يمشي على أربع، له ذيل أيضًا لكنّه مصنوع بشكل مختلف، وأذنان طويلتان وشال رماديّ يخفي وجهه، لكنّ انعكاس أشعة الشمس كشف عن لمعة عدسات نظارتين بانت من حافة الشال. وعلى ظهره ركب سيد صغير في ثياب شرقية وبدا أنه يجد بعض الصعوبات في الحفاظ على ثباته في مقعده بينما يهرول جواده. وفجأة ظهرت روح بيضاء بجناحين طويلين مصنوعين من الجرائد ومثبتين على ظهرها وخصلات من الشعر الذهبي حول وجهها. ما إن رأى الوحش هذا الخيال حتى تراجع في الحال، لكن من الواضح أنّ الراكب لم يرَ أيّ

مكتبة ياسين

شيء واستمرّ في لكز الوحش بلا رحمة لكن من دون فائدة.

وقفت الروح أمامهم في الطريق، لكنّ الوحش الأليف لم يتزحزح قدمًا واحدة. تبع ذلك اشتباك مفعم بالحيوية انتهى بالسيد الشرقي مقلوبًا بين شجيرات السرخس العطريّ، بينما الحيوان المهذب الجميل انحنى أمام الحيوان اللامع في النور.

كلّ الأطفال كانوا يقفون في الظلام حتى قالت الأم أتكينسون بصوت متسائل:

- «لو لم يكن هذا المشهد هو بلعام والحمار(59) فأيّ مشهد يكون. مثّلت روز الملاك بشكل رائع، أليست هي ملاكًا بالفعل؟»».

«الحمار» كانت هي الإجابة بوضوح. عاد الملاك لطبيعته بابتسامة إنسانيّة راضية بعدما وصلت إلى مسامعها هذه المجاملة اللطيفة.

المشهد الثاني كان مشهدًا قصيرًا جميلًا من القصة الخالدة «الأطفال في الغابة»(60). جاء جيمي وبوكي مَهرولَيْن يمسك كلّ منهما بيد الآخر، كانا قد حصلا على أدوار في المشاهد التمثيليّة السّابقة وأدّياها بكلّ سلاسة وطلاقة، فكانا يوجّهان بعضهما بصوت مسموع من وقت لآخر إبان تمثيلهما. جمع التوت وضاع الطريق وانهمرت الدموع وتمّت السيطرة على الأطفال، ثم بعد ذلك استلقى الطفلان وكأنّهما تحت عربة ومثّلا أنهما ميّتان، فتحا أعينهما على اتساعها بذهول وأصابع

مكتبة ياسين

قدميهما الصغيرة تخرج من أحذيتهما. مثّلا المشهد بأقصى طريقة بائسة استطاعا الوصول إليها.

سمع أحد الميّتَيْن البريئين يقول: «يجب أن تأتي الطيور الآن، فأنت طائر صغير ميّت الآن يا ديمي، سوف أختلس النظر لأرى إن كانت ستجيء».

تمتم الآخر: «أتمنى أن تأتي سريعًا لأنّي أنام على حجر والنمل يسير على قدمي كجنيات صغيرة».

أخيرًا جاءت الطيور ترفرف وتحمل على صدورها شالًا أحمر وأوراق أشجار في أفواهها ونثرتها بحرص على الطفلين حتى غطتهما بالكامل. أوراق التوت الأسود الخشنة جاءت على أنف بوكي فسببت لها العطس الشديد حتى إنّ قدميها الصغيرتين كانتا تطيران في الهواء مع كلّ عطسة.

جيمي أول من أبدى تعجّبه قائلا: «أوه»، ثم تبعه باقي الرفاق فهربت الطيور وهي تقهقه.

بعد بعض المناقشات كان القرار بأنّ المقطع المقصود هو في الغالب عن «الأعشاب»، ثم انتظروا ليروا إن كان تخمينهم صحيحًا أم لا. أمّا هذا المشهد فقد تكشّف عن أنيت سنو في فراشها ومن الواضح أنّها مريضة وأمّها السيدة جيني قلقة عليها، تخوض مناقشة طريفة أمتعت المستمعين حتى دخل ماك بدور طبيب وقال العديد من النكات الجيدة ساخرًا من ساعته الكبيرة وطريقته المبالغ فيها وأسئلته اللامعقولة. أوصى بجبّة دواء لها اسم صعب جدًا في النطق وغادر بعد أن طلب عشرين دولارًا لهذه الزيارة المختصرة.

مكتبة ياسين

أخذت حبة الدواء التي وصفها الطبيب لكنّ آلامها لم تزل، مما زاد من حيرة أمّها وجعلها تتوسّل لجارهم بأن يجري سريعًا ويستدعي العرّافة العجوز التي تعرف كلّ شيء. ركض الجار بالفعل وعاد بسيدة عجوز صغيرة الحجم ورشيقة بقبعة على رأسها ونظارة، وتحت ذراعها حزمة من الأعشاب. وما إن دخلت حتى أدّت العديد من المشاهد المضحكة وهي تشرح مزايا أعشابها العديدة بينما تلوّح بها في الهواء كي تضمّد بها الجرح، فألصقت مسحوق النعناع البرّي بالجروح، ثم ربطت ورقتين من نبات المولين حول الحلق الملتهب. وبلمح البصر أحسّت المريضة بالراحة وقامت الطفلة المحتضِرة على قدميها تطلب فاصولياء مطبوخة.

عرض عليها الأهل الممتنّون خمسين دولارًا، لكنّ العرّافة رفضت بكبرياء ومشت وهي تبتسم معلنة بأنّه لا يصحّ أن تأخذ مقابلًا من الجار، وأنّ أجر الطبيب كان محض احتيال.

غرق المستمعون في نوبات من الضحك على هذا المشهد فقلّدت روز السيدة أتكينسون بقدر ما استطاعت، وكيف أنّ العلاج بالأعشاب كان له شأن عظيم حيث اعتقدت السيدة أن «تلك الأعشاب» ستنقذ البشرية لو استُخدمت بشكل مناسب. فاق استمتاعها بـ«تلك الأعشاب» الجميع، بينما كان الأطفال الوحيدون يجهّزون للمشهد الأخير في فرح ومرح.

كان المشهد الختاميّ مختصرًا ولافتًا للنظر، قطاران لكل واحد منهما أكثر من عربة ويُسمع طنينهما من

مكتبة ياسين

الاتجاهات المتعاكسة، اصطدما فأحدثا تحطيمًا كاملًا في منتصف المسرح، كارثة حقيقية اكتملت فصولها.

قالت روز التي كانت مستعدّة أن تفني روحها لتكون متميزة أمام العمّ أليك: «والآن دعونا نمثل مَثلًا، عندي مثل جاهز».

الجميع، عدا ماك الشاب القادم من الغرب، وروز، جلسوا على مقاعد تهتزّ وناقشوا آخر تمثيلية، كانت جميلة ومتنوّعة حيث أعلنت بوكي بصراحة أنّ مشهدها هو «الأفضل على الإطلاق».

في غضون خمس دقائق كانت الستارة قد رُفعت، لا شيء ظهر غير ورقة كبيرة بنّية اللون مثبتة في شجرة وعليها رسم ساعة تشير عقاربها إلى الرابعة، وملاحظة صغيرة مدونة أسفلها تعلن أنّ الوقت كان صباحًا. استطاع الجمهور بالكاد أن يلاحظ تلك الحقيقة المهمّة بعدما انفلت جزء من طرف الورقة عن جذع الشجرة وانثنى ليخبئ أحد العقربين، كان على شكل ثعبان، أو دودة بحجم البوصة ربّما كان التعبير الأدقّ، حيث كان العقرب محميًا بطريقة تشبه تلك الزواحف الطريفة.

فجأة تقدّم طائر نشيط يقظ جدًّا ينقر ويزقزق ويحكّ بنشاط. فوق رأسه تتماوج خصلة من ورق الشجر الأخضر كعرف، وخصلة من الأسلاك صنعت ذيلًا، وشال متعدد الألوان استُخدم كجناحين يخفقان. طير مهيب حقًا اختال في مشيته بعينين تلمعان بحذر وصوت له دويّ يدخل الرعب في نفس أيّ دودة. كانت الدودة تتلوى، تتعوّر، تتحدّب محاولة الهرب لكنّ

مكتبة ياسين

جهدها ضاع سدى، فالطائر كان يراقبها ويطلق نوعًا من الصياح المخيف، حتّى انقضّ عليها وخفق بجناحيه منتصرًا.

- «تلك دودة كبيرة جدًا على فم هذا الطائر بالكاد يستطيع حملها». قالت العمّة جيسي ضاحكةً، بينما صاح الأطفال حولها ردًا على تلك النكتة مقترحين اسمًا مستعارًا لماك.

قالت روز وهي تشعر بالدّودة ذات القدمين بجانبها: «هذا واحد من الأمثال المفضلة لعمّي، لذا قررت أن أؤدّيه من أجله».

سأل الدكتور أليك وقد جلست روز بجانبه: «جيد جدًا، وماذا بعد؟».

أجاب ماك بتواضع: «الصبية الذين يؤدون أدوار الطيور سيمنحوننا مشهدًا من «حادثة في حياة نابليون» كما يسمّونها».

اعتقد الأطفال أنّ هذا شيء رائع وأنّ الرفاق الصغار يفعلون ذلك بشكل جيّد إلى أبعد حد.

أمام خيمة تتحرك إلى الأمام والخلف، كان هناك حارس صغير يقوم بمناجاة مختصرة. أخبر المشاهدين بأنّ الجميع كان في حالة ارتباك عظيم وأنّه مشى مئات الأميال أو أكثر ذلك اليوم، وأنّه سيموت من شدّة رغبته في النوم، ثمّ توقّف متّكئًا على بندقيته وبدأ يغفو. الحارس الصغير عديم الإيمان سقط ببطء وغلبه النوم، وأخيرًا رقد منبطحًا والبندقية إلى جانبه.

مكتبة ياسين

دخل نابليون بقبعة عسكريّة ومعطف رماديّ وحذاء عالٍ عاقدًا يديه متجهّمًا، يسير بطريقة ميلودراميّة. فريدي دوف دائمًا يحيط نفسه بهالة من المجد في هذا الجزء و«يخطف الأجواء» على المسرح بطريقة نابليونيّة. صبيّ رأسه كبير بعيون مهيبة داكنة وجبين مربّع.

«لم يعد غير هذا الوغد ليعلّمنا الحكمة»، هكذا قالت الأم أتكينسون.

من الواضح أنّ خطّة عظيمة تختمر داخل عقله القويّ عن رحلة حول جبال الألب، حلقة نار في موسكو أو ربما معركة في ووترلو. سار بجلال يعمّه الصمت، إلى أن سمع فجأة صوت شخير أزعج الخيال الإمبراطوري. رأى الجنديّ النائم فحملق فيه بغضب قائلا بنغمة مروّعة:

- «ها! نائم في مركز خدمته! الموت هو العقوبة الرّادعة، يجب أن يموت».

التقط بندقية الجندي القديمة وكان على وشك أن ينفذ حكم الإعدام العادل كما اعتاد الأباطرة أن يفعلوا حينما يجدون جنودهم على هذه الحال. ربّما هذا الجندي يستحقّ ذلك بالفعل، لكنّ جاك الصغير كان أكثر المحاربين انشغالًا، وقد استلقى وقبعته لا تغطي سوى نصف رأسه. وجهه الطفولي يحاول أن يكون رزينًا وشاربه أسود عظيم فوق فمه الورديّ. أمام هذا الحارس، من الممكن أن يلين قلب أيّ نابليون. والعريف الصغير أثبت أنه رجل بعطفه وقوله بلفتة سامية من المغفرة:

مكتبة ياسين

- رفيق شجاع، إنه منهك، سوف أدعه ينام وأحرس مكانه.

ثم حمل هذا النبيل بندقيته وتمشى إلى الأمام والخلف بهيبة دبّت الرعب في المتفرجين الصغار. استيقظ الحارس وعرف ما حدث وشعر بالضياع، لكنّ الإمبراطور أعاد له سلاحه، وبابتسامة تكسب كلّ القلوب قال مشيرًا إلى صخرة عالية تصادف أنّ عليها غرابًا:

- «كن شجاعًا ويقظًا وتذكّر أن أجيالًا بعيدة تنظر إليك».

بهذه الكلمات التي لا تُنسى اختفى تاركًا الجندي يجفل وهو واقف ويده على صدغه في تفان خالد طُبع على وجهه الصغير.

لم يهدأ التصفيق الذي أعقب هذه المقطوعة الرائعة حينما تدفّقت المياه فجأة بصوت صاخب تسبب في تزاحم شديد ناحية الشلال، جرى الجميع بين الصخور وهم يغنّون بعذوبة.

حاولت بوكي أن تثب فوقعت في المياه، لكنّ المياه كانت قليلة العمق فتبعها جيمي بشجاعة في محاولة عبثيّة لانتشالها من الماء وكلاهما كانا يسبحان نصف خائفين ونصف مسرورين بهذا الاستحمام غير المتوقع.

هذا الحادث المؤسف جعل من الضروري إعادة الطفلين المبللين إلى المنزل في أقرب وقت ممكن، لذا تمّ تحميلهما في العربات وذهب الجميع بعيدًا بمرح كما

مكتبة ياسين

لو كان في هواء الجبال حلوى بدلًا من الأوكسجين. هكذا قال الدكتور أليك عندما قال ماك إنّه يشعر بالسعادة كما لو أنّه يشرب شامبانيا بدلًا من النبيذ الذي جاء مع كعكة كبيرة متجمدة مزينة بالورود السكرية في سلة العمّة بلينتي المليئة بالأشياء الجميلة.

شاركت روز في كلّ المرح ولم يظهر عليها سواء بنظرة أو بكلمة وخز الألم الذي تعاني منه في كاحلها. لقد أعفت نفسها من المباريات في المساء وجلست تتحدّث مع العم أليك بطريقة حيويّة أسعدته وأسَرّته. أسّرت له أنّها لعبت الحصان مع الأطفال، وتسلّقت الأشجار وفعلت أشياء مروّعة أخرى كان من شأنها أن تجعل العمّات يصرخن بصوت عالٍ إذا علمن بها.

وعندما تخيّلت فزع السيّدات المحترمات، قالت: «لن أبالي البتّة بما سوف يقلنَ إذا لم تمانع يا عمّي».

- «آه... من الجيّد تحدّيهم، لكنّك بهذا تكونين عنيفة، وأخشى أن تحديني المرة القادمة وعندها ماذا سأفعل؟».

- «لا... لن أفعل ذلك، لن أتجرّأ لأنّك الوصي عليّ، وبإمكانك أن تفرض عليّ أيّ عقوبةٍ إذا شئت».

وضحكت روز في وجهه واستكانت بالقرب منه بإيماءة ثقة لطيفة.

- «قسمًا بشرفي يا روزي، بدأت أشعر أنّني مثل رجل ابتاع فيلًا ثم لم يعرف ماذا يفعل معه. اعتقدت أنّني حصلت على حيوان أليف ودمية للسنوات القادمة

مكتبة ياسين

لكن ها أنتِ تكبرين مثل ساق فاصولياء، وقبل أن أستدير وجدتك امرأة صغيرة قويّة الذهن بين يديّ وهذه محنة لرجل وعمّ».

هدأت تلك المحنة الهزليّة للدكتور أليك في الوقت الذي بدأ فيه الأطفال حفلة مفاجئة وهم يرقصون رقصة العفاريت على العشب، وعلى رأسهم فوانيس من اليقطين نثب كوهج المستنقعات.

عندما ذهبت روز إلى الفراش وجدت أن العم أليك لم ينسها، إذ وجدت على المنضدة حاملًا صغيرًا رقيقًا يحمل اثنين من المجسَّمات الصغيرة موضوعين في قطعة قطيفة. تعرفهما جيدًا. وقفت تنظر إليهما حتى اغرورقت عيناها بالدموع السارة والحزينة، فقد كانا وجهي أمها وأبيها في نسخةٍ جميلة.

في الحال جثت واضعة ذراعيها حول الصورتين الصغيرتَين تقبّل الواحدة تلو الأخرى وتقول لنفسها بجدّية: «سأبذل قصارى جهدي لأجعلهما سعداء حقًا أكثر وأكثر».

وكانت تلك صلاة روز الصغيرة ليلة عيد ميلادها الرابع عشر.

عاد آل كاميل إلى المنزل بعد يومين، ومجيئهم كانت الحفلة أكبر. أمّا الدكتور أليك فقد واكب ولادة القطة كوميت ووضعها في سلة مع طاسة حليب، وبعض الشطائر الصغيرة، وطبق الدمية لتشرب فيه بالإضافة إلى سجادة صغيرة لتستلقي عليها في قصرها العربة، حيث ظلت تمدّ رأسها منها بطريقة رائعة.

مكتبة ياسين

كانت هناك قُبَل كثيرة وعناقات وتلويح بالمناديل ووداع أخير. وهم يتحركون استعدادًا للرحيل، كانت الأم أتكينسون تركض وراءهم حاملةً بعض الفطائر الصغيرة الساخنة من الفرن، «للأعزاء، الذين قد يسأمون من الخبز والزبدة خلال يوم السفر الطويل».

بداية أخرى ووقفة أخرى، كانت عندما جاء أطفال الثلج وهم يصرخون مطالبين بالقطط الثلاث التي تحملها بوكي في حقيبة السفر. وتم انقاذ القطط الصغيرة التعيسة، نصف المخنوقة، وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين وسط نحيب شديد من الخاطفة الصغيرة التي أكّدت أنّها «أخذتها فقط من أجل أن توصلها إلى أختها توميت».

البداية الثالثة والتوقف الثالث، كان حينما ناداهم فرانك وفي يده سلة الغذاء التي نُسيت بعدما اعترض الجميع على أنّها غير آمنة.

سارت الأمور على ما يرام بعد ذلك، والرحلة الطويلة مرت بسعادة على بوكي وبوسي اللتان لعبتا معًا بشكل جميل حتى إن الجميع اعتبرهما غاية في اللطف.

قال ماك وهم يقتربون من المنزل القديم: «روز لا تريد العودة إلى المنزل لأنّها تعلم أنّ العمّات لن يسمحن لها بالتمرد كما فعلت في الركن الهادئ».

- «لا يمكنني التمرد حتى لو أردت، لفترة من الوقت على الأقل، وسوف أخبرك لماذا. لقد التوى كاحلي عندما سقطت من على باركيز وازداد حاله سوءًا على

مكتبة ياسين

الرغم من أنّني فعلت كلّ ما أعرفه لأعالجه وأخفيه حتى لا أزعج أيّ شخص آخر».

همست روز وهي تعقد حاجبيها من الألم وتستعدّ للنزول وتتمنى أن يأخذ عمّها بيدها بدلًا من أن يحمل أمتعتها. كيف سيفعل ذلك، هي لا تعرف أبدًا، لكنّ ماك ساعدها في صعود الدرج ووضعها على أريكة حجرة الاستقبال.

- «والآن أنتِ هنا في أمان ولو أزعجك كاحلك وأنتِ تستندين عليه. اعتبريني خادمك، فأنتِ لكِ عندي حقّ، ولن أنسى كم كنتِ عطوفة معي».

وذهب ماك لمناداة فيبي وهو يشعر بأنّ عليه واجب ردّ الجميل تجاه روز وسيسعده أن يخدمها.

مكتبة ياسين

الفصل الخامس عشر
الأقراط

ثبت أن التواء كاحل روز صار في مرحلة خطيرة بسبب الإهمال. أمرها الدكتور أليك بأن تستلقي على الأريكة لمدة أسبوعين على الأقل. كانت كئيبة وتتألم، غير أنها لم تجرؤ على التصريح بالشكوى خشية أن يلقي عليها الصبية المواعظ التي كانت دائمًا تلقيها عليهم عن الصّبر.

لقد حان دور ماك الآن، وقد قام بسداد دينه بشرف، فهو حتى الآن ممنوع من الذهاب إلى المدرسة، ولديه وقت فراغ كبير كرّس معظمه لخدمة روز. اتّخذ من أجلها خطوات كبيرة، حتى إنّه وافق على أن تعلّمه الحياكة بعد أن أكّد لنفسه أنّ العديد من الاسكتلنديين الشجعان يعرفون كيف «تصنع الغرز»، وكان عليها أن تأخذ عهدًا على نفسها بالتزام السرّيّة قبْل أن يوافق، مع أنّه لا يمانع أن يُطلق عليه «صاحب النظارات أو ممرض» رغم أنّ تلك الأوصاف لا تتناسب وروح الشباب. مع اقتراب أيّ شخص من العشيرة، كان يختفي أيّ أثر للحياكة كما لو كان سحرًا، ولم يكن في الحياكة المضافة على سجادة روز الجديدة أيّ دليل على أنّ ماك هو من صنعها.

كانت مشغولة بهذا العمل الجميل بعد ظهر أحد أيام أكتوبر المشرقة. الجميع يستقرونّ على أريكتها في الصالة العلويّة بينما جيمي وبوكي -وقد خصّصا لتسليتها-

مكتبة ياسين

يستقران في المنزل في ركن مع كوميت ودمية روز القديمة.

وفي الحال ظهرت فيبي ومعها بطاقة قرأتها روز وعبست ثم ضحكت وقالت:

- «سوف أرى الآنسة بليس».

وفي الحال ارتدت قناع الجدّيّة، فسحبت قلادتها وفردت شعرها.

- «عزيزتي كيف حالك؟ كان عليَّ الاتصال بك منذ عودتك، غير أن لدي الكثير من الارتباطات، وفي الحقيقة لم أستطع أن أتدبّر أمري سوى اليوم. أنا سعيدة لأنّكِ بمفردك، فقد قالت أمي إنّ بإمكاني الجلوس لفترة قصيرة وأحضرت معي شغل التريكو لأريه لكِ لأنّه أكثر من رائع». صاحت الآنسة بليس وهي تحيّي روز بقبلة من دون أن تبادلها روز دفء اللّقاء، رغم أنّ روز شكرتها بأدب على مجيئها وأمرت فيبي بأن تجهّز لها مقعدًا مريحًا.

بينما تستقرّ في مكانها بكثير من الفوضى، قالت أنّابيل: «يا له من شيء لطيف أن يكون عندك خادمة»، لكن رغم ذلك يا عزيزتي أنتِ وحيدة وبالتأكيد تشعرين بالرغبة في صديق حميم».

نظرًا لطريقة زائرتها المتعالية التي عكّرت صفوها، ردّت روز بفخر: «عندي أبناء عمومتي».

- «لطيف يا طفلتي، أنتِ لا تصادقين هؤلاء الصبية، أليس كذلك؟ تقول أمي إنه لا ينبغي أن تنخرطي مع

مكتبة ياسين

هؤلاء الصبية كثيرًا».

- «إنهم مثل أخوتي وتظنّ عماتي أنّ ذلك مناسب لي جدًا».

أجابت روز بجدّيّة لأنّها شعرت أنّه ليس من شأن الآنسة بليس أن تتدخل في مثل هذه الأمور.

- «كنت سأقول فقط إنّني سأكون مسرورة لو عرّفتك على صديقتي الحميمة هاتي ماسون، لكن تذكرت أنّ بيننا مشاجرة مروعة فلم نعد نتكلم، إنها لئيمة جدًا لذا لم تعد صديقتي. تخيّلي أنها لم تبادلني ولا قطعة حلوى كالتي أعطيتها لها ولم تدعني إلى حفلتها. من الممكن أن أسامحها فيما يخص موضوع الحلوى، لكنّ إهمالي بهذه الطريقة الوقحة كان أكثر مما يمكن تحمّله، وأخبرتها ألا تفكّر باستعادة صداقتنا مرة أخرى مدى الحياة».

عندما توقفت آنابيل عن عجرفتها وهزّت رأسها الكآبيّ ردًا على تصرفات هاتي ميسون الوقحة، قالت لها روز: «أنتِ عطوفة جدًا لكن لا أظنّ أنّني أحتاج صديقةً حميمةً، شكرًا لكِ».

الآنسة بليس تظنّ في أعماق قلبها أنّ روز «متعجرفة» لكنّ الفتيات الأخريات يردن التعرّف عليها ولا يستطعن. المنزل القديم مكان ساحر لأيّ زائر ويعتبر الصبية رفقاء جيدين وآل كامبل «من أعرق العائلات» تقول أمي. لذا أخفت آنابيل انزعاجها بسبب برود روز وغيّرت الموضوع بأسرع طريقة.

مكتبة ياسين

سألت وهي تقلب في أوراق «بول وفرجينيا» الموضوعة على الطاولة: «تدرسين اللغة الفرنسية كما أرى، مَنْ هو معلمك؟».

- «أنا لا أدرسها فأنا أقرأ الفرنسية مثل الإنكليزية، وغالبًا ما أتحدث أنا وعمي بها لساعات. إنه يتحدث كأهل اللغة الأصليين ويقول إن لهجتي جيدة».

لم تستطع روز أن تتمادى في هذا العرض المتكبّر أكثر من ذلك، فالفرنسية كانت إحدى نقاط قوتها وكانت مغرورة بذلك، رغم أنها تحاول دائمًا إخفاء نقاط ضعفها. شعرت بأن آنابيل ليست الخصم المناسب لهذا الصدام البسيط، ولم تستطع أن تقاوم إغراء التعالي عليها بدورها.

- «أوه، حقا». قالت الآنسة بليس ولم تكمل، فلم تكن الفرنسية إحدى نقاط قوتها على أيّ حال.

وأكملت روز تماديها بكبرياء واضح: «سأسافر إلى الخارج مع عمّي لعام أو اثنين، فهو يدرك جيدًا أن تعلّم اللغات شيء مهم. نصف الفتيات اللاتي غادرن المدرسة لا يستطعن التحدّث بالفرنسية بشكل لائق وعندما يذهبن إلى الخارج يكنّ خائفات جدًا. سأكون سعيدة لمساعدتك، إذا أردتِ. بالطبع لا يوجد أحد في المنزل تتحدثين معه الفرنسية».

رغم أنّ آنابيل تشبه الدّمية إلّا أنّ بداخلها مشاعر لا نشارة خشب. وقد تأثّرت مشاعرها نوعًا ما بلهجة روز الّتي كانت متعجرفة بحيث إنّ الآنسة بليس لم تعرف كيف تطيح بها رغم تمنيها ذلك. شعرت كما لو

مكتبة ياسين

أنّها تلقّت صفعة على أذنها، وبشكل تلقائيّ رفعت يدها لتتحسّس مكانها، ولما لمست يدها قرطها شعرت بنوع من العزاء ساعدها على التفكير بطريقة تحاول بها ردّ الصاع صاعَين.

- «أشكرك يا عزيزتي، لا أريد أيّ مساعدة فعلمي من باريس، وهو بالتأكيد يتحدّث الفرنسية أفضل من عمّك».

ثم لوّحت برأسها حتى وخزتها أجراس أقراطها، فأضافت:

- «ما رأيك في قرطيَّ؟ منحني أبي إياهما الأسبوع الماضي واتفق الجميع على أنّهما رائعان».

نزلت روز من كبريائها بسرعة وبطريقة مضحكة، فلأنّابيل اليد العليا الآن، وروز تعشق الأشياء الجميلة وتمنّت لو تزيّنت بهكذا قرطين. قفزت الأنثى بداخلها متمنّية أن تثقب أذنيها بتلك الأقراط. وحده الدكتور أليك يعتقد أنّ هذه حماقة لذا لم تضع أقراطًا أبدًا. فهي قد تمنح كلّ الفرنسية التي تستطيع أن ترطن بها مقابل زوج من الأقراط بأجراس ذهبية ولسانين من اللؤلؤ كالذي تمتلكه أنّابيل. شبكت يديها وأجابت بنبرة انكسار:

- «إنهما رائعان من دون أدنى شكّ، لو سمح لي العمّ بوضع مثلهما سأكون في قمّة سعادتي».

قالت أنّابيل وهي راضية تمامًا عن أدائها: «لا أعترض على كلامه، فأبي سخِر منّي أول الأمر لكنّه يحبّهما

مكتبة ياسين

الآن، ويقول إنّه سيجعلني أضع أقراطًا من الألماس عندما أبلغ الثّامنة عشرة من عمري».

قالت روز: «عندي الآن زوج من الأقراط كانا لأمي وزوج من اللؤلؤ الفيروزي، أتمنى أن أتزيّن بها». ثم تنهدت.

- «افعليها. سأثقب أذنيكِ ويجب أن تضعي فيهما شيئًا من الحرير حتى يصبح حالهما جيدًا، وسوف تخفيهما خصلات شعرك بشكل جيد. وعندما تشفى أذنيكِ ضعي قرطين صغيرين، وأتحداكِ إن لم يحبّهما عمّك».

- «سألته ذات مرة ألا يجعل هذا عينيّ صافيتين حينما يكونان حمراوين؟ لكنّه ضحك فقط. يفعل الناس ذلك عادة لمعالجة العيون الضعيفة، أليس كذلك؟».

قالت أنّابيل وهي تحدّق في العين الواسعة والصافية التي تتفحّصها: «نعم بالفعل ولديكِ احمرار بسيط، دعيني أرى... نعم أعتقد أنّ عليكِ القيام بذلك قبل أن تسوء حال عينك».

سألت روز وهي ترتجف: «هل يؤلم الثّقب كثيرًا؟».

- «أوه، لا يا عزيزتي مجرد وخز بإبرة وسحبها وهذا هو كل شيء، لقد ثقبت العديد من الآذان وأعرف كيف يتم ذلك، والآن ارفعي شعرك وأحضري لي إبرة كبيرة».

ارتبكت روز حينما حان وقت تنفيذ الأمر: «لا أحب فعل ذلك من دون إذن عمّي».

تسألها أنّابيل وهي تحوم حول الفريسة كمصاص دماء:

مكتبة ياسين

«هل هو دائمًا يقرّر المسموح والممنوع؟».

- «لا.. أبدًا».

صاحت الآنسة بليس وهي تخفي من أجل تنفيذ المهمة: «إذًا فلتفعليها إذا لم تكوني خائفة».

الكلمة الأخيرة كانت بداية تنفيذ المهمة. أغلقت روز عينيها وقالت: «اتقي»، قالتها بلهجة مَنْ يحسم الأمر: «تنفيذ». ثم ثقبت أنّابيل أذن روز وتحملت الضحيّة في صمت بطوليّ رغم أنّ لونها كان شاحبًا وامتلأت عيناها بالدموع من شدّة الوجع.

- «والآن ضعي شيئًا من الحرير وكريمًا مرطبًا على أذنيك كلّ ليلة وستكونين جاهزة لارتداء الأقراط».

قالت أنّابيل وهي راضية تمامًا عمّا فعلت، فقد استلقت الفتاة التي تتحدّث الفرنسية «بلهجة ممتازة» على الأريكة يبدو عليها التعب كما لو كانت أنّابيل قد قطعت أذنيها.

- «إنها تؤلمني بشدة وأنا أعرف أنّ عمّي لن يحبّ ذلك».

تنهدت روز فقد بدأ شعور النّدم يخزها.

ثمّ أضافت بلهجة متوتّرة ناسية تمامًا الثقبين في أذنيها والدموع في عينيها وشكلها الواضح من بعيد: «عديني أنكِ لن تخبري أحدًا وإلا سأعذّب نفسي حتى الموت».

قالت أنّابيل بينما تسمع صوت وقع أقدام وأصواتًا تنبعث من الأسفل: «لن أقول... عذرا... ما هذا؟».

مكتبة ياسين

همست روز مرتبكة محاولة إخفاء كلّ آثار الجريمة عن عيون العشيرة الحادّة: «إنه صوت الصّبية، أخفِ الإبرة، هل تظهر أذنيّ؟ لا تنبسي بكلمة!».

جاءوا في ترتيب رائع محمّلين بالمكسّرات، وحصيلة رحلة استكشافية. فهم دائمًا يقدّمون تقاريرهم إلى روز ويشيدون بملكتهم بأحسن طريقة.

قالت روز وهي تغمر يديها في كيس المكسرات البنيّة اللامعة بينما يستريح أفراد العشيرة وهم ينظرون إلى أنّابيل: «يا لها من كمية كبيرة! سيكون لدينا حفلة تحميص بعد الشاي، أليس كذلك؟».

قال ماك وهو يقدّم لها بعض المكسرات: «هذه قطفتها خصيصًا من أجلك يا روزي، لقد قطفت كلّ واحدة بنفسي وكلّ واحدة منها مقرمشة أكثر من الأخرى».

قال ستيف وهو يتكاسل على مقعد أسفل الشباك: «كان عليكِ أن تري السيد «نظارات» وهو يسعى ليقطفها، كادت رقبته تنكسر وهو ينزل من على الشجرة لو لم يلحق به أرشي».

ردّ عليه ماك وهو يرجع ظهره إلى الوراء: «أنت يا داندي لا تعرف الفرق بين قطعة الخشب والكستناء، وظللت تضغط عليها بأسنانك لو لم أوضح لك الفرق».

أجاب ستيف من دون أدنى احترام لأخيه الأكبر: «أنا لا أرتكب خطأ عندما أضربك أيها الدّودة القديمة، اهتم بشأنك فقط».

مكتبة ياسين

- «لقد حلّ الظلام ويجب أن أعود وإلا سوف تنزعج أمي». قالت آنابيل وهي تنهض بسرعة مفاجئة رغم تمنّيها أن يُطلب منها البقاء من أجل حضور حفلة المكسّرات.

لم يدعُها أحد للبقاء، وجرّبت أن تتأخّر وهي تلملم أشياءها وتدردش مع روز بينما كان الصبية يتناقشون بشأن ذهابها، إذ تقتضي اللياقة أنه على واحد منهم أن يصطحب السيدة الشابة إلى منزلها. لم يجد أيّ صبي في نفسه البطولة الكافية للقيام بهذه المهمة، حتى أرشي المهذّب تهرّب من هذا الواجب بقوله لتشارلي بينما يتسللون بهدوء إلى غرفة مجاورة:

- «أنا لست الشخص المناسب لهذا التسكع، دع ستيف يوصل هذه الفتاة الوقحة إلى المنزل ويُظهر أخلاقه».

أجاب البرنس الذي يكره الآنسة بليس، خاصة وأنها حاولت مغازلته: «سأشنق إذا فعلت ذلك».

- «إذًا سوف أفعل ذلك».

وقد أثار استياء الفتيان الجبناء أن يخرج الدكتور أليك من الغرفة ليقوم بواجبه تجاه «الفتاة الوقحة»، ومع ذلك فقد كان قد قضى الأمر، ذلك أن ماك تحرّك بسبب نظرة من روز جعلته يضحّي بنفسه ويمشي بعيدًا بخنوع متمنيًا للفتاة اللطيفة آنابيل أن تسقط في قاع البحر الأحمر.

- «حسنًا، فلنأخذ هذه السيدة إلى الأسفل لتناول

مكتبة ياسين

الشاي، فها هي الشابة الأخرى قد وجدت شاباً يصحبها إلى المنزل. أرى المصابيح مضاءة في الأسفل وأشمّ رائحة تخبرني بأنّ العمّة تحضّر لنا شيئاً مميزاً للسهرة».

وبينما يتحدث البرنس كان الدكتور أليك يجهّز نفسه ليحمل روز إلى الأسفل كالمعتاد، لكنّ أرشي والبرنس اندفعا إلى الأمام متوسلين بحرص شخص نادم أن ينالا شرف حملها وهي جالسة على كرسي. وافقت روز خشية أن تكتشف عين العمّ الحادة قطعة الحرير. شبك الصبية أيديهم وقبض كلّ واحد منهم بقوة من جانبه وحُملت روز إلى الأسفل بينما تبعهم الآخرون ممسكين بالدرابزين.

طُلب الشاي في وقت مبكر عن المعتاد حتى يستمتع جيمي ودميته على الأقل بوقتِ الإجازة، كان بإمكانهم البقاء حتى السابعة، وسُمِحَ لهم باثنتي عشرة حبة من المكسرات المحمّصة فقط، وفُرض عليهم ألّا يأكلوا منها حتى اليوم التالي.

جاء الشاي سريعًا وتجمّع الكلّ حول المحمصة الكبيرة في حجرة السفرة حيث تتراقص المكسّرات بسعادة على المجرفة الساخنة، أو تقفز بين الجميع متسبّبة بهلع لطيف بين الصغار.

- هيا يا روزي، تعالي وأخبرينا قصّة بينما نعمل، فأنتِ لا يمكنك فعل أكثر من ذلك ومن واجبك أن تسلينا.

هكذا اقترح ماك الجالس بجانب المكسرات التي

مكتبة ياسين

تتقافز، والذي يعتبر أنّ روز ابنة خاله بمثابة شهرزاد صغيرة.

قال شارلي الذي ألقى بحبّات ساخنة من المكسرات في حجرها ثم نفخ في أصابعه: «نعم، نحن القرود الصغيرة لا نحرق كفوفنا من أجل اللاشيء، لذا هيا أخبرينا يا بوسي».

أجابت روز التي كانت مولعة برواية الحكايات المفيدة: «حسنًا لقد تصادف أنّ في ذهني قصة صغيرة لها مغزى أخلاقيّ، وسوف أحكيها على الرغم من أنّها مخصّصة للأطفال الأصغر منكم».

- «هيا احكِ من دون تردّد». قال جوردي.

وأطاعته روز بينما يخالجها خوف بسيط من أن يكون مصيرها مثل مصير بطلة تلك القصة.

- «حسنًا، كان يا ما كان، كان هناك بنت صغيرة ذهبت لرؤية سيدة في مقتبل العمر كانت مغرمة بها. تصادف أنّ هذه السيدة عرجاء وعليها أن تضمّد قدمها كل يوم. لذا احتفظت بسلة من الضمادات، جميعها ملفوفة بشكل جيد وجاهزة للاستعمال. أحبّت الفتاة الصغيرة أن تلعب بتلك السلة. وذات يوم، أخذت إحدى هذه اللفائف من دون استئذان ووضعتها في جيبها وهي تعتقد أن لا أحد يراها».

وهنا انتبهت بوكي التي كانت تحدّق بلطف في المكسرات الخمس الدافئة في قاع جيبها الصغير ونظرت إلى الأعلى فجأة وقالت: «أوه» بنبرة صوت مرتعشة كما

مكتبة ياسين

لو أنّ الحدوته التي لها مغزى أخلاقيّ قد أصبحت محطّ اهتمامها في هذه اللحظة.

سمعت ورأت روز الحيانة البريئة للمذنب الصغير، واستطردت بطريقة معبّرة بينما يغمز الصبية لبعضهم البعض كما لو أنهم يستمعون لنكتة:

- «لكنّ عينًا ما لاحظت الفتاة الشقية، عين مَن تلك يا ترى؟»».

- «عين دود (ا ن)».

تمتمت بوكي معذّبة الضمير تفرد يديها الممتلئتين -أمام وجهها المستدير- اللتين لم تنجحا في تخبئة أيّ شيء.

كانت روز مذهولة بهذه الإجابة لكنّها شعرت أنّها تركت أثرًا جيّدًا فأضافت بجدّية:

- «أجل، رآها الربّ، كما رأتها السيدة أيضًا. لكن السيدة لم تقل شيئًا، انتظرت حتى ترى ماذا ستفعل البنت بهذه الضمادة. شعرت بالسعادة قبل أن تأخذ الضمادة لكنّها بعد أن أصبحت في جيبها توتّرت وتوقّفت عن اللعب وجلست في ركن. ظلّت تفكر لدقائق قليلة ثم ذهبت وأعادت الضمادة إلى مكانها بهدوء عندها تهلّل وجهها وأصبحت فتاة سعيدة مرة أخرى. كانت السيدة سعيدة بهذا وتساءلت ماذا حدث وجعل الفتاة تعيد الضمادة إلى مكانها؟»».

تمتم صوت نادم من وراء أيدٍ صغيرة تضغط بقوة على وجه بوكي الأحمر: «وخز ضميرها».

سألت روز كأنها مدرّسة تشعر بأنّ كلّ المستمعين

مكتبة ياسين

كانوا مهتمين بحكايتها وبنهايتها غير المتوقعة: «ولماذا أخذتها في رأيك؟»».

أجاب الصوت الصغير: «كان شيئًا ملفوفًا ويبدو لطيفًا جدًا وقد أرادته بشدة».

- «حسنًا، أنا مسرورة لأن ضميرها حيّ. المغزى الأخلاقيّ أن الناس الذين يسرقون شيئًا لن يستمتعوا به ولن يشعروا بالسعادة حتى يعيدوه لأصحابه». ثم سألت روز وهي تنهي قصتها: «لماذا تخبئ الفتاة وجهها؟»».

انتحبت المذنبة الصغيرة وتغلّب عليها الندم والارتباك نتيجة هذا الإفشاء المروع: «أنا خجلة من بوكي».

- «انظري يا روز، لم يكن شيئًا لطيفًا منكِ أن تقومي بتلك الخدعة الصغيرة أمام الجميع وتعظيها بهذه الطريقة، لو كنتِ مكانها لن تحبّي هذا». قال الدكتور أليك وأخذ المنتحبة فوضعها على ركبتيه وقدّم لها العزاء مع الكثير من القبل والمكسّرات.

قبل أن تتمكّن روز من التعبير عن أسفها، فإنّ جيمي، الذي كان وجهه يتضرج من الاحمرار والانزعاج كالديك الرومي الصغير لمرات عديدة، انفجر بسخط عازمًا على الانتقام بسبب الجرح الذي سبّبته لدميته المحبّبة.

- «أنا أعرف شيئًا سيّئًا فعلته وسأقوله على الفور، أنتِ تظنين أنّ أحدًا لم يرك لكننّا رأينا، وأنتِ قلتِ لتلك الفتاة إنّ الخال لن يحبّ ذلك والصبية سوف يزعجونك، وجعلتها تأخذ عهدًا على نفسها بألا تقول إنّها ثقبت

مكتبة ياسين

أذنيك لتضعي فيهما أقراطًا، والآن هذا أسوأ بكثير من أن تأخذي قطعة قماش قديمة. أنا أكرهك لأنّكِ جعلتِ دميتي بوكي تبكي».

اندفاع جيمي جعل بوكي تشعر كم أن ذنبها ضئيل، بل كادت تنساه، وشعرت روز بأنّ دورها قادم.

- «ماذا! ماذا! ماذا!».

صاح الصبية معًا في آن وأسقطوا مجارفهم وسكاكينهم ملتفّين حول روز بعدما كشفها الذنب المعلق في أذنيها. وبصرخة ضعيفة صاحت روزي: «أنابيل أغوتني»، وخبأت رأسها بين الوسائد مثل نعامة صغيرة سخيفة.

سألت المعذّبة وهي تفرد خصلة شعر مجعدة تظهر من الوسائد: «هل ستتجوّل الآن وهي تجرّ أقفاص طيور وسلالًا وعربات وخنازير وكلّ ما أعرف بأذنيها كما تفعل بقية الفتيات، ولم تعد تشبه السُذّج؟».

أجاب ماك بنبرة محبطة فهمت منها روز أنها سقطت من نظر ابن خالها الحكيم: «لا أعتقد ذلك، سوف تكون في غاية السخف».

قال البرنس الذي يشعر برغبة قوية في زجر هذه السيدة كما يزجر الكلب الغاضب قطة مؤذية: «هذه الفتاة مصدر إزعاج وينبغي ألّا يسمح لها بالمجيء إلى هنا بمقترحاتها وأفكارها غير المقبولة».

سأل أرشي رئيس العائلة، والذي يعتبر حريصًا على الانضباط مهما كان الثمن: «ما رأيك في ذلك يا عمي؟».

مكتبة ياسين

أجاب الدكتور أليك متنهدا كما لو كان يتوقّع أن روز ملاك وفوق كلّ مغريات الكون:

- «أنا مندهش جدًا، لكنّني أرى أنها فتاة رغم كلّ شيء، ويجب أن تتزيّن مثل كلّ الفتيات».

تساءل جوردي مستفسرًا عن العقوبة التي سوف تنالها تلك الأنثى الجانية: «ماذا ستفعل يا سيدي؟».

- «بما أنها مغرمة بالحلي يجب أن نعطيها خاتمًا للأنف أيضًا، لديّ واحد في مكان ما كانت ترتديه ملكة جمال (فيجي) ذات مرة، سوف أبحث عنه».

تُركت بوكي في رعاية جيمي ونهض الدكتور أليك كما لو كان سينفّذ اقتراحه بجدّية.

- «حسنًا... حسنًا سنفعل ذلك على الفور! هذا هو المثقاب، لذا امسكوها جيدًا أيّها الصبية حتى أتمكّن من ذلك الأنف الصغير المحبّب». صاح شارلي وهو يطوّح الوسادة بعيدًا بينما باقي الصبية يرقصون على الأريكة كأهل فيجي الحقيقيين.

كانت لحظة مخيفة. لم تهرب روز، لكنّها أمسكت بأنفها الثمين بيد ومدّت الأخرى مستغيثة: «أوه عمّي أنقذني.. أنقذني».

بالطبع أنقذها، وعندما حاوطها بذراعه القويّة اعترفت بحماقتها في ذلّ. وبعد أن ضحك الصبية كثيرًا عليها قرروا أن يسامحوها ويلقوا باللّوم على أنّابيل التي أغوتها. حتّى أنّ الدكتور أليك كان قد أحضر لها قرطين ذهبيين للأذن بدلًا من حلقة نحاسية لأنفها. هذا الفعل من

مكتبة ياسين

شأنه أن يثبت أنّه حتى ولو كانت روز ضعيفة تجاه الحلي لكونها أنثى، فقد ناقض الدكتور أليك نفسه ليعطي لمريضته الجميلة ما أرادته بالضّبط على الرغم من أحكامه.

مكتبة ياسين

الفصل السادس عشر
خبز وعُروات

في أحد أيام نوفمبر عاد الدكتور أليك من انشغالاته ليجد روز تجلس مكتوفة الأيدي، ومن تعبير وجهها يبدو فكرها منشغلًا جدًا. فسألها: «ما الذي تفكر فيه فتاتي في هذا العالم بمفردها.. هنا.. بمثل هذا الوجه الرصين؟».

قالت منتبهة من شرودها كما لو أنّها لم تسمع سؤاله: «عمّي... أريد أن أجري معك نقاشًا جادًا لو يسمح وقتك».

- «أنا كلّي في خدمتك وسعيد جدًا لسماعك». أجاب بأكثر طريقة مهذبة عنده، فحينما تقوم روز بدور السيدة الصغيرة يعاملها الدكتور أليك باحترام يليق بسيدة بالفعل، وهو الأمر الذي يسعدها كثيرًا.

والآن جلس بجانبها فقالت بوقار شديد:

- «إنّني أحاول أن أصل لقرار، فأنا أفكّر في أيّ مجال سوف أتاجر؟ وأريد نصيحتك».

- «تجارة يا عزيزتي!!».

بدا الدكتور أليك مندهشًا فسارعت تشرح له:

- «لقد نسيت، فأنت لم تسمع ذاك الحديث الذي كان يدور بين جميع السيدات عندما رأيتنا نجلس في ذلك الركن الهادئ تحت أشجار الصنوبر، نخيط ونتحدث معًا. وقد أحببت ذلك كثيرًا. تعتقد الأم

مكتبة ياسين

أتكينسون أنه ينبغي علينا جميعًا أن يكون لدينا تجارة أو شيء لنكسب ما يجعلنا قادرين على تدبّر حياتنا. من دون العمل، الأغنياء يمكن أن يخسروا ثرواتهم والفقراء لن يحصلوا على الدّخل اللازم لحياتهم. بنات الأم أتكينسون ماهرات جدًا ويمكنهن فعل الكثير من الأشياء. ظنّت العمّة جيسي أنّ السيدة العجوز كانت على حقّ، لذا عندما رأيت كم كانت هؤلاء السيّدات سعيدات ومستقلات فكّرت في التجارة. وأعرف أنّ المال لن يشكل أيّ عائق، رغم أنّني أحبّ أن أحصل على كفايتي منه».

استمع الدكتور أليك إلى هذا الشرح بمزيج غريب من المفاجأة والسعادة والتسلية، وقد ظهرت هذه المشاعر على وجهه. نظر إلى ابنة أخيه الصغيرة كما لو أنها تحوّلت فجأة إلى سيدة صغيرة، لقد كبرت كثيرًا في الأشهر الستّة الأخيرة وكثير من الأفكار تدور في ذلك الرأس الصغير، وسيدهشه أكثر لو عرف كل ما يحويه حقًا. روز من تلك الفئة المحبّة للمعرفة والتأمّل كثيرًا، ومن حين لآخر تذهل أصدقاءها بملاحظة حكيمة أو غريبة.

قال الدكتور أليك بجدّية: «أنا أتّفق تمامًا مع السيّدات، وسأكون سعيدًا لمساعدتك لو قرّرت ذلك. ولكن أخبريني، إلى أي شيء تميلين؟ فالفطرة والموهبة تساعدان جدًا في الاختيار كما تعلمين».

أجابت روز، وقد بدت متشوّقة لتجريب الفقر حتى تستطيع ممارسة عملها الذي تحبّه: «ليس لديّ موهبة

مكتبة ياسين

أو اهتمام خاص، ولذلك لم أستطع أن أقرّر يا عمّي، إنما أعتقد أن أفضل شيء هو أن أنتقي عملًا مفيدًا وأتعلّمه. عملٌ لن أقوم به من أجل سعادتي فقط، لكن كجزء من الدراسة ومن أجل أن أكون جاهزة في حال تعرّضي للفقر».

- «حسنًا، والآن هناك شيء ممتاز جدًا وضروريّ وأنثويّ ولا يمكن لأيّ فتاة أن تحيا من دونه ويعتبر مساعدة للأثرياء والفقراء، كما أنّ راحة العائلات تتوقّف عليه. هذه الموهبة الجميلة مهملة هذه الأيام ويعتبرها الناس شيئًا غير عصريّ وهو شيء محزن ولن أتهاون فيه إبّان تربية فتاتي. يجب أن يكون جزءًا من تعليم أيّ فتاة، وأنا أعرف سيدة بارعة ستعلمك هذا بأفضل وأحسن طريقة».

صاحت روز باشتياق إلى معرفة هذا الشيء من أعماق قلبها: «أوه! ما هذا الشيء؟».

أجاب الدكتور أليك: «التدبير المنزلي».

سألت روز: «أهذا يعتبر إنجازًا؟». وقد بدت علامات خيبة الأمل على وجهها، فقد أطلقت العنان لكلّ أحلامها المبهمة والسارة.

- «أجل.. إنّه واحد من الفنون الجميلة والمفيدة التي يجب على السيدة تعلمها، ربما ليس رومانسيًا جدًا كالغناء والرسم والكتابة، أو التدريس حتّى، لكنّه شيء يجعل الآخرين سعداء ومرتاحين والمنزل هو أفضل مكان في العالم... نعم يمكنك فتح عينيك الكبيرتين لكنّها حقيقة، ذلك أنّه من الأفضل أن أراك تديرين

مكتبة ياسين

منزلك جيدًا عن أن أراكِ أجمل فتاة في المدينة. إنّها مهمّة لا تحتاج أن تتداخل أو تتعارض مع أيّ موهبة تمتلكينها، لكنّها جزء مهم في تعليمك وأتمنى أن تشرعي في تعلّمها في الحال والآن لأنّك قويّة وصحّتك جيّدة».

سألت روز وقد كانت متأثّرة بحديث عمّها الصادق: «من هي هذه السيدة؟».

- «العمّة بلينتي».

جوابه فاجأ روز، فهذه العمّة الكبيرة تبدو أقل معرفةً من بقيّة العمّات، فردّت بنبرة متسائلة: «وهل هي بارعة؟».

- «كلّ ما هو جيّد في الطريقة القديمة هي بارعة جدًا فيه، جعلت هذا البيت مصدر سعادة منذ أن وعِينا عليه. هي لا تهتمّ بالأناقة، لكنّها جيدة حقًا ومحبوبة جدًا ومحترمة وتترك فراغًا كبيرًا في حال عدم وجودها، ولا يمكن لأحد أن يملأ هذا الفراغ. فقد أصبحت الفضائل المنزلية أشياء غير عصريّة في حين أنّ الجديد يكاد يكون نصف مرضٍ، على الأقل بالنسبة لي».

سألت روز بقليل من وخز الندم للتفكير في أنّ العمّة بلينتي كانت سيدة عجوزًا عادية: «أريد أن يشعر الناس هكذا ناحيتي، هل ستعلمني ما تقترحه وكيف أكبر بشكل جيد؟».

- «نعم، إذا كنتِ لا تحتقرين الدّروس البسيطة التي سوف تعطيكِ إيّاها. أعرف أنّ قلبها العجوز سيمتلئ فخرًا من مجرد الإحساس بأنّ شخصًا ما يهتمّ لأن يتعلّم

مكتبة ياسين

منها، ذلك أنّها تعتقد بأنّ عصرها قد ولّى. دعيها تعلّمك كيف تكونين ربّة منزل مبتهجة، مدبّرة، وماهرة، صانعة وحارسة لمنزل سعيد، ومع مرور الوقت سترين كم كان هذا الدرس مفيدًا لكِ».

- «سوف أفعل يا عمّي، كيف ومتى يمكنني البدء؟».

- «سأتحدث معها حول هذا الموضوع وسوف ترتّب كلّ شيء مع دوللي، فالطبخ هو أحد الأشياء الرئيسية كما تعلمين».

- «فعلا هو كذلك، ليس عندي أيّ اعتراض على هذا الكلام، أحبّ التجربة ولطالما فعلتُ ذلك في المنزل، لكن لم يكن لديّ من ينصحني ويرشدني، لذلك لم أجنِ سوى إفساد مريلتي. الفطائر ممتعة جدًا لكنّ دوللي وحدها من سيعترض فأنا لا أصدّق أنها ستدعني أقوم بعمل أيّ شيء في المطبخ».

- «إذًا سنطبخ في حجرة الاستقبال، أعتقد أن العمّة بلينتي سوف تتدبر هذا الأمر، لا داعي للقلق. فقط عليكِ أن تبدي الاهتمام فإنّني أفضّل أن تتعلمي كيف تصنعين خبزًا جيدًا أكثر من الفطائر المخبوزة. حينما تحضّرين لي رغيفًا جميلًا وصحيًا مخبوزًا بيديك سأكون مسرورًا أكثر من أن تعطيني زوجًا من النعال المزيّنة بأحدث طراز. لن أتملقك لكنّني سوف أمنحكِ قبلة من كلّ قلبي وأعدك بأن أستمتع بكل قضمة منه».

- «إنّها صفقة عظيمة! تعالَ وأخبر عمّتي بكلّ شيء فأنا متشوّقة للبدء».

مكتبة ياسين

انطلقت روز وهي ترقص أمامه ناحية حجرة الاستقبال حيث تجلس العمّة وحيدة تخيط بإتقان، والآن هي مستعدة لتلبية أيّ مساعدة من أيّ نوع مهما كان الطلب.

ليست هناك حاجة لوصف حالة العمّة بلينتي بين الدهشة والسرور حين تمّت دعوتها لتعليم روز الفنون المنزلية التي تعتبر قمّة إنجازاتها، ولا كيف كانت متحمّسة للقيام بمهمتها التي تفضّلها. دوللي لم تتجرأ على التذمّر فالعمّة بلينتي هي الشخص الوحيد الذي تطيعه، وفرحت فيبي بهذه الفكرة فالدروس الجديدة سوف تقرّب روز منها وتجعل المطبخ أكثر حلاوةً في عيون الفتاة.

إحقاقًا للحق، العمّات الأكبر سنًّا أحيانًا ما يشعرن بأنّهن لم يأخذن نصيبهن من ابنة أخيهنّ التي فازت بقلوبهن منذ زمن بعيد، وكانت مصدر إشراق للمنزل. أحيانًا يدور هذا الكلام بينهن لكنهن ينهين الحوار بأنّ أليك عليه كلّ المسؤولية وينبغي أن يكون له النصيب الأكبر من حبّ الفتاة ووقتها، وأنهن سوف يكتفين بما يتبقى من أوقات تُقرّبهنّ منها.

اكتشف الدكتور أليك هذا السّرّ الصغير، وبعد تأنيبه لنفسه لكونه أعمى وأنانيًّا حاول أن يبتكر طريقة لإصلاح الأمور من دون إزعاج أحد. فرغبة روز الجديدة كانت طريقة ممتازة لفطام روز منه ولو بشكل قليل. لم يكن يعرف كم كان مغرمًا بها إلى أن سلّمها للمعلم الجديد، وغالبًا لم يكن باستطاعته مقاومة تلصّصه

مكتبة ياسين

من الباب ليرى كيف تسير أمورها، أو يسترق بعض النظرات الماكرة عبر فرجة في الباب عندما تكون منهمكة في إعداد العجين، أو تستمع باهتمام لمحاضرة مهمة من محاضرات العمّة بلينتي. كانتا تقبضان عليه بين الحين والآخر، تأمرانه بأن يغادر المكان مهدّدتان باستخدام طرف الشوبك (النشابة)، ولو نجحتا بشكل غير عادي أو كانتا في مزاج معتدل تغريانه بقطع من خبز الزنجبيل أو شطيرة لم تكن جيدة بما يكفي لوضعها على المائدة.

لقد شارك في العديد من المأكولات اللذيذة على الطاولة. الطاهيتان تعملان بحماسة تضمن الحصول على طعام فاخر كلّ يوم. لقد كان لكلّ طبق مذاق خاص، وبدا له أنّ وجود روز أضفى على الأطباق شيئًا لذيذًا.

وعندما عبّر عن ذلك ردّت روز على ثنائه وقد توّرد وجهها بفخر بريء. وقالت بتواضع:

- «أشكرك يا عمّي، وأنا مسرورة أنّ ما حضّرته أعجبك».

مرّ بعض الوقت قبل أن يظهر الرغيف المثالي، فصنع الخبز ليس بالمهمة السهلة والعمّة بلينتي دقيقة في تدريباتها، لذا تدرّبت روز على الخميرة أولًا وبعد اجتياز مراحل مختلفة من (الكيك والبسكويت) توّج جهدها أخيرًا بـ«رغيف جميل وصحّي» ظهر في وقت احتساء الشاي على طبق فضّي جاءت فيبي تحمله بفخر، ولم تستطع الامتناع عن الهمس بوجه مبتهج وهي تضعه أمام الدكتور أليك: «أليس جميلًا هذا الرغيف يا

مكتبة ياسين

سيدي؟»».

سأل وهو يتفحص الرغيف ذا الشكل والرائحة الجيدين باهتمام وسعادة: « إنّه رغيف رائع جدًا! هل صنعته فتاتي بنفسها؟»».

أجابت العمّة بلينتي وهي تطوي يديها برضى تامّ عن تلميذتها الّتي أدّت المهمّة على أكمل وجه: «لقد صنعته بنفسها ولم تطلب أيّ مساعدة أو نصيحة من أيّ شخص»».

قالت روز وهي تتنهد وتتذكر صعوبة تلك اللّحظة عليها: «واجهتني الكثير من الصعاب واختبرت الفشل أكثر من مرة لدرجة شعرت معها أنّني لن أستطيع أن أصنع رغيفًا بمفردي أبدًا. وقد تركت دوللي مجموعة من الأرغفة تحترق لأنّني نسيتها. كانت هناك وشمّت الرائحة لكنّها لم تفعل شيئًا وقالت لي إنّه عندما أقوم بصنع الخبز عليّ أن أنتبه له جيدًا. أليس هذا أمرًا صعبًا؟ كان ينبغي عليها أن تستدعيني على الأقل»».

- «كانت تقصد أنّ عليكِ أن تتعلمي بالتجربة، مثلما فعلت روزاموند(62) في موضوع البرطمان البنفسجي كما تتذكرين»».

- «كنت دائمًا أظنّ أنّه ليس من العدل أنّ أمها لم تحذّر المسكينة ولو بإبلاغها أن تحضر السلطانيه قبل الشروع بالعمل، وكانت لئيمة باطّراد عندما طلبت روزاموند سلطانية لتضع الشيء البنفسجي فيها، فردّت بطريقة استفزازية: 'أنا لست موافقة على أن أزوّدك

مكتبة ياسين

بسلطانية، مع أنني سأفعل هذه المرة يا عزيزتي'. أريد دائمًا أن أزجر تلك السيدة البغيضة رغم أنها كانت أمًا على خُلق».

قال الدكتور أليك وقد أعجبته طريقة روز في التعبير عن غضبها: «دعي روزاموند وشأنها الآن، وأخبريني كلّ ما يخصّ هذا الرغيف».

- «ليس هناك شيء أقوله يا عمّي عدا أنّني قمت بواجبي على أكمل وجه، وأعطيته كلّ تركيزي، وجلست أراقبه جيدًا عندما كان في الفرن حتى خرج منه. كلّ شيء كان مضبوطًا في ذلك الوقت وخرج رغيف لطيف، دائري، محمّص كما ترى. والآن تذوّقه وأخبرني إذا كان ناضجًا وبحالة جيدة».

- «هل أقطعه أم أضعه تحت غطاء زجاجي وأحتفظ به في غرفة الاستقبال مثلما يفعلون مع الزهور والأعمال الفنية من هذا النوع؟».

- «ماذا تقول يا عمّي، سوف يتعفّن ويفسد بالإضافة إلى أنّ الناس سيضحكون علينا ويسخرون من إنجازي التقليدي. لقد وعدتني بأنّك ستأكله ويجب عليك فعل هذا، ليس كلّه مرة واحدة ولكن قدر استطاعتك وسوف أصنع لك الكثير».

بجديّة، قطع الدكتور أليك قطعة محمّصة منه وتذوقها ثم مسح شفتيه ومسّد على شعر روز وقبّلها في جبينها قائلا من أعماق قلبه:

- «عزيزتي إنّه رغيف مثالي وأنت شرف لمعلمك،

مكتبة ياسين

عندما يكون عندنا مدرسة نموذجية سوف أخصّص جائزة لأفضل رغيف وستحصلين أنتِ على الجائزة».

- «لقد حصلت عليها وأشعر بالرضى التام».

قالت روز وهي تتقلقل على مقعدها محاولة أن تخبئ الحرق في يدها اليمنى. لكن الدكتور أليك رآه وخمّن مصدره، وبعد الشاي أصرّ على أنه يجب تخفيف هذا الألم الذي بالكاد تعترف به روز.

عندما كانا يتمشيان ذهابًا وإيابًا في الصالة وقت الغسق، وضعت روز يدها المصابة بحذر على ذراع الدكتور أليك، قالت له:

- «تشتكي العمّة كلارا من أنّني أذيت يدي، لكنّ ذلك لا يهمّني فأنا أمضيت وقتًا ممتعًا مع العمّة بلينتي، وأظنّ أنها استمتعت به مثلي أيضًا. شيء واحد فقط ضايقني يا عمّي وأريد أن أسأل عنه».

- «هيا اسألي يا عزيزتي».

- «حسنًا، أنت ترى أنّني أشعر كما لو أن العمّة بيس تريد أن تفعل شيئًا ما من أجلي وقد اكتشفت ما هذا الشيء. أنت تعلم أنها لا تستطيع فعل أشياء مثل العمّة بلينتي ونحن مشغولون جدًا في الوقت الحاضر لدرجة أنّها تشعر بالوحدة إلى حدّ ما، وأنا أخشى هذا. لذا أريد أن آخذ دروسًا في الخياطة منها، فهي تقوم بعمل أشياء جميلة وهذا شيء مفيد كما تعلم، وأريد أن أكون خيّاطة ماهرة مثلها، أريد أن أكون ربّة منزل جيدة، ما رأيك؟».

مكتبة ياسين

- «بارك الله قلبك الطيّب يا حبيبتي، هذا بالضبط ما كنت أفكر فيه عندما قالت العمّة بيس إنها نادرًا ما تراكِ، وكنت أفكر أن أخبركِ بذلك لكنّكِ كنتِ مشغولة جدًا ولديكِ الكثير من المهام للقيام بها. سيكون من دواعي سروري أن تعلّمك بيس كلّ ما تعرفه من أعمال يدوية خاصة العروات، لأنّني أعرف أنّ الكثير من السيدات الشابات يفشلن فيها، وأنت لا تعرفين أصول وفنّ الحياكة والخياطة، لذا كرّسي بعضًا من وقتك لتعلّمها، وعندك ملابس يمكنك التدرّب عليها وأنا سوف أرتدي أيّ شيء تحوكينه».

ضحكت روز على هذا العرض المتهوّر، ووعدته بالاهتمام بهذا الشيء رغم أنها تعرف أن التهور هو نقطة ضعفها. عندئذ قام العم أليك بإعطائها جوارب حالتها مزرية لتقوم بإصلاحها وبخاصة عند الكعب وهو ما اعتبره نقطة البداية.

ثم ذهبا لتقديم طلبهما بالشكل المناسب للعمّة بيس اللّطيفة التي تحمّست جدًا للمرح الذي سوف يحصلون عليه إبان قيامهم بالحياكة والبحث عن إبر الرفو، لذا قامت بتجهيز سلة لطيفة فيها كلّ الأدوات المناسبة لتلبيذتها.

كانت روز مشغولة للغاية وسعيدة جدًا، تتجوّل منذ الصباح مع العمّة بلينتي في المنزل، تهتمّ بخزائن الملابس وغرف التخزين، وترتّب وتستكشف الغرف العليا والدهليز لترى إن كان كلّ شيء على ما يرام وتتعلّم القيام بالأمور المنزلية بطريقة تقليديّة جيدة.

مكتبة ياسين

في الظهيرة، بعد التمشّي أو ركوب الخيل، تجلس مع العمّة بيس تلضم الإبر، بينما تفشل عينا العمّة بلينتي في مثل هذه الأمور، لكنّها تحوك وتدردش بعزيمة وتخبرهم العديد من الحكايات المسلية عن الزمن القديم حتّى تجعلهم يضحكون ويبكون ثلاثتهم. كان هناك العديد من الإبر لاستخدامها في زخرفة كلّ أنواع الموديلات المعبّرة عن حياة صانعيها رغم أنّها كانت تبدو من بعيد مجرد وسائد قطنية أو أنهم يرتقون بعض الجوارب.

كان مشهدًا جميلا أن ترى الخادمة الصغيرة ذات الوجه الوردي تجلس بين سيّدتين كبيرتين في السن، تستمع إلى تعليماتهما وتطيعهما سعيدة بتلقي دروسها وبحديثها المبهج وضحكها المرح.

إذا كان المطبخ قد شكّل إغواءً للدكتور أليك حينما كانت تعمل روز فيه، فإنّ حجرة الحياكة لا تقاوَم. وقد استطاع أن يجعل حضوره محبّبًا فلم يقوَ قلب أحد على إبعاده خاصة حينما كان يقرأ بصوت عال أو يلفّ الخيط.

ذات يوم،بعد أسابيع من درسها الأول، قالت روز: «لقد صنعت لكَ ملابس نوم لطيفة، لكلّ قطعة أربع عروات، انظر وأخبرني برأيك».

- «جميل حتّى آخر خيط، والعروات لطيفة محكمة لا يمكنني فسخها حتى لو شددت الأزرار بقوة. عمل رائع سيدتي وأنا شاكر جدًا وسوف أخيط هذه الأزرار بنفسي حتى أنقذ أصابعك المرهقة من أيّ وخز آخر».

مكتبة ياسين

صاحت روز وعيناها مفتوحتان على اتساعهما من الدهشة: «أسوف تخيطها؟»».

- «انتظري قليلًا حتى أحضر عدة الخياطة وسترين ماذا أستطيع أن أفعل»».

سألت روز العمّة بيس بينما يسير العم أليك باهتمام: «أهذا معقول؟ هل سيتمكّن من فعل ذلك؟»».

- «أوه، أجل لقد علّمته منذ سنوات قبل أن يذهب إلى البحر، وأنا أظنّ أنّ بإمكانه القيام ببعض الأعمال لنفسه بشكل أو بآخر، ومنذ ذلك الوقت وهو يتدبّر أموره بنفسه»».

وبالفعل عاد ومعه حقيبة العمل وأخرج منها «الكشتبان» من دون غطاء ولضَمّ الإبرة وبدأ يخيط الأزرار بسهولة لدرجة أذهلت روز وأسعدتها.

قالت بنبرة إعجاب واحترام كبيرين: «أتساءل عمّا إذا كان هناك أيّ شيء في العالم لا يمكنك فعله»».

أجابها بضحكة من طرف عينيه بينما يُحكم الخيط مزهوًّا بنفسه: «هناك شيء أو شيئان لم أتمكن من القيام بهما بعد»».

- «إنّني أحبّ أن أعرف ما هما؟»».

- «الخبز والعروات سيدتي»».

مكتبة ياسين

الفصل السابع عشر
صفقات جيدة

كان الجو ماطراً ظهيرة يوم الأحد حينما حاول الصبية قضاء اليوم في «المكبة»(0.3) كما يسميها جيمي، وهي الحجرة المخصصة للقراءة في منزل العمة جيسي. ويل وجوردي ممدّدان على الكنبة منشغلان بمغامرات العابثين والصعاليك الرائجة جدًا في هذه الأيام.

استرخى أرشي على كرسيّ مريح محاطًا بالمجلات، ووقف شارلي على السجادة بهيئة رجل إنكليزي، ويؤسفني القول إن كلاهما يدخن سجائر.

قال البرنس وهو يكاد يشقّ حلقه من الثثاؤب: «في رأيي أنّ هذا اليوم لن ينتهي أبدًا».

ردّ أرشي وهو يحدّق بجدّيّة في الورقة التي كان يغفو خلفها: «اقرأ وطوّر عقلك يا بني».

- «لا تعظ أيّها الكاهن، ارتدِ حذائك واخرج واستمتع ولا تطل التفكير في النار مثل العجائز».

- «لا، شكرًا لك، التسكّع في عاصفة رياحها شرقيّة لا يبدو شيئًا مسليًا بالنسبة لي».

هنا توقف أرشي ورفع يده ناحية صوت لطيف يُسمع في الخارج قائلًا:

- «هل الصبية في المكتبة يا عمّتي؟».

أجابت العمّة جيسي:

مكتبة ياسين

- «أجل عزيزتي ومتشوقون لأشعة الشمس لذا اركضي وأحضريها لهم».

- «إنّها روز».

ألقى أرشي سيجارته في النار. فسأله شارلي: «لماذا تفعل ذلك؟».

- «الرجال اللّطفاء لا يدخنون أمام السيدات».

- «هذا صحيح، لكنّي لن ألقي بسيجارتي».

وضع البرنس سيجارته في محبرة فارغة اعتبروها منفضة.

نقرة خفيفة على الباب تبعتها إجابة الكورال، «ادخلي». دخلت روز مع نسيم الهواء البارد وقد بدت مبتهجة ومرحة.

قالت وهي تقف على عتبة الباب بتردّد متواضع، حيث إن شيئًا ما في وجوه الصبية الأكبر سنًا أثار فضولها: «إذا كنت قد أزعجتكم فسأخرج».

بينما انتزع القراء أنفسهم من حكايات أبطالهم في انحناءة طويلة بما يكفي للتعبير عن الترحيب بضيفتهم، قال المدخّنان: «أنتِ لا تزعجيننا أبدًا يا ابنة الحال».

عندما انحنت روز لتدفئ يديها، كانت سيجارة أرشي تحوّل إلى رماد مطلقة دخانًا كثيفًا برائحة قوية.

- قالت روز موبّخةً: «أوه، إنّكم أولاد سيئون، كيف تجرّأتم على فعل ذلك؟».

سأل أرشي: «أين الضّرر في ذلك؟».

مكتبة ياسين

- «أنت تعلم كما أعلم أنّ أمك لن يعجبها ذلك، وأنّها عادة سيّئة لأنّها تهدر المال ولا تفيدك، بل تسبّب الضرر».

- قال شارلي بطريقة مزعجة: «يا للقرف! كلّ الرجال يدخّنون، حتى الخال أليك الذي تظنين أنّه مثالي».

صاحت روز بحماسة: «لا إنّه لا يدخن، لقد أقلع عن التدخين وأنا أعرف لماذا».

قال أرشي متسائلًا: «صحيح، لا أظن أنّه يدخن. لم أرَ الغليون في المنزل منذ جاء، هل امتنع عنه من أجلنا؟».

- «نعم».

وروت روز المشهد الصغير على شاطئ البحر أيّام المخيم.

بدا أرشي منبهرًا جدًا وقال بذكاء: «إنه لن يفعل ذلك من أجل لا شيء كما أعتقد، لا يهمني التدخين مطلقًا لذا يمكنني الإقلاع عنه بسهولة وأعدك أنّني سأفعل، أنا أدخّن فقط بين الحين والآخر من أجل التسلية».

- «وأنت أيضًا؟». ورفعت روز بصرها ناحية البرنس الوسيم الذي لم يبدُ أنّ وسامته تأثرت بسبب هذه اللحظة، واستأنف تدخين سيجارته ليزعجها.

مع أن شارلي لم يكن يهتم كثيرًا بالتدخين مثل أرشي، فإنّه لم يكن ينوي الإقلاع عنه. لذا هزّ رأسه وأطلق دخانًا كثيفًا وقال بتعال:

- «أيّتها النساء أنتنّ تطلبن منا دائمًا التخلي عن الأشياء الصغيرة التي تعتبرنها ضارة فقط لأنكن لا توافقن عليها،

مكتبة ياسين

هل تودّين أن أفعل الشيء نفسه معكِ يا آنسة؟»».

أجابت روز بحماسة: «لو كنت أفعل أشياء ضارّة أو سخيفة سوف أشكرك على إخباري بها وسأحاول أن أصلح من شأني»».

رأى البرنس أنّها فرصة جيدة لإظهار نوع من التفوّق، فقال: «حسنًا، والآن سنرى إن كنتِ صادقة في كلامك هذا أم لا. سوف أقلع عن التدخين لإرضائك لو أقلعتِ عن فعل شيء ما لإرضائي»».

- «سأوافق لو كان أمرًا أحمق كالتدخين»».

- «أوه، إنه أكثر سخافة من أيّ شيء»».

- «إذًا أعدك بذلك. ما هو؟»».

ارتجفت روز من القلق لمعرفة ما هو الشيء الذي تمتلكه أو العادة التي عليها أن تكفّ عنها.

- «تخلي عن وضع أقراطك»». قال شارلي وضحك بطريقة شريرة، متأكدًا أنّها لن تتمسك بهذه الصفقة.

أطلقت روز صرخة ووضعت كلتا يديها عند أذنيها حيث الأقراط الذهبية.

- «أوه شارلي، هل هناك شيء آخر ترغب فيه؟ لقد مررت بالكثير من المضايقات والمتاعب وأريد الاستمتاع بأقراطي الجميلة فأنا يمكنني وضعها الآن»».

ردّ الولد السيّئ-: «ضعي ما تشائين ودعيني أدخن بسلام»».

قالت روز بتوسل: «أليس هناك شيء آخر يرضيك؟»».

مكتبة ياسين

فردّ بصرامة: «لا شيء».

وقفت روز صامتة لمدة دقيقة تفكر في شيء قالته لها العمّة جيسي ذات مرة: «لديكِ تأثير على الصبية أكثر مما تتصورين، استخدميه لصالحهم وسأشكرك مدى حياتي». وهنا أتيحت لها الفرصة للقيام بشيء مفيد مقابل تخلّيها عن شيء يغريها، لذا شعرت أنه يتوجّب عليها فعل ذلك فسألت بحزن:

- «هل تقصد ألّا أضعها أبدًا يا شارلي؟».

- «أبدًا إلا إذا كنتِ تريدينني أن أدخن».

- «حسنًا، لن أضعها».

- «إذًا تمت الصفقة».

لم يكن يتصوّر أنّها من الممكن أن تفعل ذلك، وتفاجأ كثيرًا عندما انتزعت الأقراط من أذنيها بحركة خاطفة وأعطتها له قائلة بنبرة مليئة بالنوايا الطيبة جعلت خدّه البنيّ يحمرّ:

- «إنّ اهتمامي بشأن أبناء عمومتي أشدّ من اهتمامي بأقراطي، لذا أعدك بذلك وسأحفظ العهد».

ترك أرشي الجريدة من يده وصاح بنبرة ساخطة: «عيب عليك يا برنس دع لها أقراطها إن كانت تحبّ ذلك، ولا تقم بصفقات لمنعها عن فعل تعلم أنّه صواب».

لكنّ روز كانت عازمة على أن تُظهر لعمّتها مقدرتها على استخدام نفوذها لصالح الصبية. فقالت بثبات: «إنّه أمر عادل، لا مشكلة لدي، وساعتها ستصدقون

مكتبة ياسين

أنّني كنت جادّة، كلّ واحد منكم سوف يحتفظ بأحد القرطين ليذكّره بوعده، أنا لن أنسى أبدًا أنّني قريبًا لن أتمكن من وضع أيّ أقراط حتى لو أردت ذلك».

وبينما هي تتحدث قدّمت روز قرطًا صغيرًا لكلّ منهما. ولاحظ الصبية إخلاصها فأطاعوها. وحينما حانت لحظة الالتزام بالعهد مدّت يدها لكلّ منهما ومدّ الفتيان أيديهما بشكل حميم، نصف راضين ونصف خجلين من الشقّ الذي يخصّهم في الاتفاق.

في تلك اللحظة جاء الدكتور أليك والسيدة جيسي.

صاح العمّ أليك وهو يتفحص الثلاثي المرح بدهشة: «ما هذا؟ انتصار السيدات الراقصات يوم الأحد؟».

بينما تسلّلت روز بعيدًا إلى عمّتها، ودفن أرشي السيجارتين أسفل خشبة خلف ظهره، قال شارلي: «لا يا سيدي إنّها رابطة مكافحة التبغ، هل ستنضم إلينا؟».

عندما وضح الغموض، كان الكبار سعداء وتلقّت روز شكرًا جعلها تشعر كما لو أنّها قدمت خدمة لبلدها حينما جعلت كلّ صبيّ منهما يقلع عن تلك العادة السيّئة ما يمكّنه من أن يكون مواطنًا صالحًا.

قالت السيدة جيسي وهي تجلس على الأريكة بين القرّاء الذين ثنوا أرجلهم لإفساح المكان لها: «أتمنى أن تقوم روز بصفقة مناسبة مع ويل وجوردي أيضًا، فأنا أظنّ أنّ هذه الكتب غير مناسبة للأولاد الصغار، كالسجائر بالنسبة للأكبر منهم».

علّق الدكتور أليك الذي جلس على الكرسي الكبير

مكتبة ياسين

مع روز: «أعتقد أنّهم يقرأون الأشياء الرائجة الآن».

فقالت العمّة جيسي: «وكذلك التدخين، لكنه ضارّ. كُتّاب هذه القصص الشعبية كانت نيتهم جيدة من دون أدنى شك لكنّهم فشلوا حينما جعلوا شعارهم «كن ذكيًا وسوف تصبح ثريًا» بدلًا من «كن أمينًا وسوف تصبح سعيدًا». أنا لا أحاكمهم من فراغ يا أليك فقد قرأت عشرات القصص منها حتّى القصص الجذابة للأولاد وجدت فيها أشياء سيئة، وباقي أولياء الأمور قالوا الشيء نفسه عندما سألتهم».

صاح ويل: «الآن، هذا كلام في غاية السوء يا أمي، لقد أحببتها لأقصى حدّ، هذا الكتاب مثلا أكثر من رائع».

أضاف جوردي: «إنّها كتب فتوّة، وأودّ أن أعرف أين الضرر؟».

أجابت الأم سريعًا: «لقد أظهرتم لنا للتّو أحد عيوبها الرئيسية، إنها تلك العامية التي تتحدثون بها».

اعترض ويل: «علينا أن نتحدث هكذا يا أمي، لو كان هؤلاء الشباب يتحدثون بلغة رفيعة لما كانت هناك أيّ متعة في قراءتها».

- «ماسح الأحذية لا يجب أن يستخدم قواعد لغويّة سليمة، وبائع الصحف يجب أن يكون في كلامه القليل من البذاءة وإلا لن يكون منسجمًا مع شخصيّته». أوضح جوردي.

وقد كان كلاهما على استعداد لخوض معركة من

مكتبة ياسين

أجل كتبه المفضلة.

- «لكنّ أولادي ليسوا ماسحي أحذية أو بائعي صحف، وأنا أعترض على سماعهم يستخدمون كلمات مثل «فتوّة، تمّر، صراخ، مغفّل». في الحقيقة، لقد فشلت في أن أرى أيّ مزايا في تلك الكتب التي تحكي عن هؤلاء الناس، إلا إن كُتبت بطريقة مختلفة جدًا. أنا لا أظن أنّها من الممكن أن ترتقي بالصعاليك إذا قرأوها، ومتأكدة أن لا خير يرتجى منها لأولاد الطبقة الراقية الذين بسبب هذه الكتب قد تعرضوا لمحاكم الشرطة، أو اقترفوا التزييف، أو ارتادوا أماكن الميسر وأماكن الشرب وجميع أنواع الأشياء السيئة».

- «بعضهم يحكي عن أولادٍ من الطبقة الراقية يا أمّي، يذهبون إلى البحر ويدرسون ويجرون حول العالم، تطوف حولهم الطيور الجميلة طوال الطريق».

- «لقد قرات عنهم يا جوردي، رغم أنّهم أفضل من الآخرين فإنّني غير راضية عن تلك الأوهام كما أسميها. الآن أترك لكم الحكم، هل من الطبيعي لفتيان في الخامسة عشرة أو حتّى الثامنة عشرة أن يقودوا سفنًا، ويهزموا قراصنة، ويخدعوا مهرّبين، ويدّعوا المجد لأنفسهم. وحينما يدعوهم الأميرال فراجوت(64) إلى العشاء يقول: «أيّها الفتى النبيل، أنت شرف لبلدك»! أو لو كان البطل من الجيش تجد دائمًا بينهم وبين الموت شعرة. في الواقع إنّ القليل من تلك المغامرات كفيل بأن يحوّل شعرك إلى اللون الأبيض. وفي النهاية يذهب ذلك البطل إلى واشنطن بناء على

مكتبة ياسين

رغبة صريحة من الرئيس أو القائد العام لتتمّ ترقيته إلى ما لا نهاية من النجوم والمناصب. حتّى لو كان البطل مجرّد صبيّ نزيه يحاول كسب رزقه، فلن يسمح له بالقيام بذلك إلّا بطريقة طبيعية من خلال العمل الجاد وسنوات من الجهد والصبر. لكن ما يحصل أنه فجأة يتمّ تبنيه من قبل مليونير أعاد له محفظته الضائعة، أو يظهر له عمّ غنيّ من البحر في الوقت المناسب. أو أنّ الفتى الرائع يكسب بضعة دولارات ويتخصّص في الفول السوداني أو ربطات العنق، ويصبح ثريًا لدرجة أن سندباد في وادي الألماس فقير مقارنة به. ألا تحصل الأمور كذلك يا أولاد؟».

- «حسنًا، الرّفاق في هذه الكتب محظوظون جدًا وأذكياء جدًا، علّني أقول ذلك».

أجاب ويل وهو يتفحّص صورة على صفحة مفتوحة أمامه، في الصورة يقوم شاب صغير، ولكن فاضل، بإغضاب عملاق ثمل في حانة وتحتها نقش أنيق: «ديكي دانتلس يلكم رأس سام سوكر(65)».

- «لكنّها كتب تعطي للأولاد أفكارًا خاطئة عن الحياة والعمل، تظهر الكثير من الشرّ والابتذال لهم وهم ليسوا بحاجة لمعرفة شيء عن ذلك، وتجعل الناجح هو الذي يحصل على الثروة، كابنة سيد عظيم أو أيّ صاحب مجد آخر، رغم أنّ الفوز في كثير من الأحيان يتمّ من دون أي عناء. إنّ الأمر بالنسبة لي هو أنّ على شخص أن يكتب حكايات مشوّقة، طبيعية تساعد على إثراء لغة القرّاء وتدعم القيم النقيّة، وأبطالها مثلنا،

مكتبة ياسين

نستطيع فهمهم بالرغم من الأخطاء التي يقترفونها. لا أستطيع تحمل رؤية مثل هذه الحشود من الصغار المتحمّسين في المكتبات لقراءة تلك القمامة الركيكة. من قال إن إطعام تلك العقول الجائعة هذه الأشياء ليس شرًّا؟ هنا يا أولاد انتهت محاضرتي، والآن سأستمع إليكم أيها الشباب لأعرف رأيكم».

وهدأت العمّة جيسي باحمرار جميل على وجهها المليء بقلق الأمومة على أولادها.

فقال أرشي: «توم براون(66) يناسبني أنا وأمي، وأتمنى أن يكتب السيد هيوز قصة أخرى جيدة».

- «لن تجد أشياء مثل تلك لدى توم براون، بالإضافة إلى أن هذه الكتب موجودة في مكتبات مدارس الأحد».

قرأت السيدة جيسي الفقرة التالية من كتاب أخذته من يد ويل:

- «في هذا المكان رأينا سِنّ يوحنا المعمدان. قال بن إنه رأى الجراد والعسل البري يلتصقان به. لم أر، ربما استخدم يوحنا قطعة الصليب الحقيقية لالتقاط السِن».

صاح ويل: «صبيّ من النوع المرح يقول هذا. إنكِ يا أمي، ونحن أيضًا، نتخطى الأجزاء التي يصفون فيها ما رأوه في البلاد المختلفة».

ربّتت الأم على شعر هذا الوجه الصغير الصادق الذي بدا خجلا من هذا البيان الصحيح للقضية، وقالت: «أتخيل أن هذه الأوصاف، التي أخذ معظمها من

مكتبة ياسين

كتب الإرشادات، هي الأشياء الحقيقية الوحيدة الموجودة. إنّ ورطات الأولاد الأشرار هي التي تصنع منها بقية القصة. ومن أجل أشياء كهذه تقرأ هذه الكتب على ما أعتقد».

علّق جوردي: «يا أمي، إنّ الجزء الذي يتعلّق بالسفينة مفيد لأنّنا نتعلم كيفية الإبحار بها، وبهذا سيكون كلّ شيء في متناول اليد عندما نذهب إلى البحر».

- «في الواقع يمكنك أن تشرح لي هذه المناورة بالطبع». وقرأت السيدة جيسي من صفحة أخرى الفقرة البحرية التالية:

- «الرياح جنوبية- جنوبية غربية، ويمكننا أن ندير الدفة أربع نقاط أقرب تجاه الريح وستظل السفينة على بعد ست نقاط. وعندما تبحر، علينا أن نرفع الشراع الرئيس ونتركه للريح ثم نَثبت على ذلك الوضع».

قال جوردي وقد بدا متحيّرًا بشكلٍ واضح: «أخمّن أنني أستطيع فعل ذلك، لو لم أكن خائفًا من خالي. إنه يعرف أكثر بكثير وسيضحك منّي».

صاح ويل فجأة مهاجمًا عدوّه، مما أثار اشمئزاز جوردي: «أوه، أنت تعرف أنّك لا تستطيع، ما الذي يجعلك تصدّق نفسك؟ نحن لا نفهم نصف لغة البحر يا أمي بل كل معارفنا عنه خاطئة».

قالت روز معترضةً شاكية: «الآن أفهم لماذا تحدث الأولاد معي كما لو كنتُ سفينة». وأردفت: «هبت الريح عليّ هذا الصباح وأنا عائدة من الكنيسة فصاح

مكتبة ياسين

ويل في الشارع: 'اجهزي للإبحار وارفعي الشراع الأمامي'، ذلك سوف يسيرها».

صاح الأولاد بالنبرة الحزينة نفسها التي كررت بها روز الكلمات التي أساءت إليها. وسعى ويل جاهدًا -لكن من دون جدوى- أن يفسّر لها أنّه لم يكن يقصد سوى أن تضبط لف عباءتها وتربط قبعتها بإزار حتى لا تطير.

- «في حقيقة الأمر لو كان لا بدّ للأولاد أن يتحدثوا لغة عامّية فلتكن «لغة البحر» كما أسماها ويل، فهي أفضل من أيّ لغة عامّية أخرى. حينما أسمع الأولاد يقولون جملة مثل: «اجهزي للإبحار» تزعجني، لكن ليس كثيرًا مثل قولهم «شدّي» أو «انقطع حبلك»(67). في مرة وضعت قانونًا يقضي ألّا يتكلم أيّ شخص في المنزل باللغة العامّية لكنّني يئست واستسلمت. الآن أعترف أنّني لم أستطع الحفاظ على ذلك، لكن ليس إلى درجة أن يكون في بيتي كتب قبيحة، لذا تخلص من هذين الكتابين بعد أن تتخلّص من سجائرك».

وأمسكت السيدة جيسي الولدين الصغيرين بسرعة وذراعاها حول عنقهما. وحينما انتزعت منهما الكتابين، كلّ ما استطاعا فعله هو أنّهما انثنيا فزعين.

- «نعم، خلف الخشبة الخلفية». واستطردت بنشاط: «هناك، يا رفيقيّ -تحبّون عامية البحر خذوا القليل منها-، الآن أريد منكما وعدًا ألا يقرأ هذا النوع من الكتب لمدة شهر، وسوف أوافق على أن أحضّر لكما

مكتبة ياسين

كل ما تحبّون من الطعام».

صاح ويل: «أوه، ولا حتّى يوم واحد يا أمي».

توسل جوردي: «ألا يمكنك أن تسمحي لنا بإنهاء الكتابين؟».

- «رمى الكبار سجائرهم من دون أن يكملوها وسوف يلحق الكتابان بهما. مؤكد أنكما تريدان الاقتداء 'بالرفاق القدامى' كما تسمّونهم أم أنكما لا تريدان الانصياع لأمكما كما انصاع رفاقكما لروز».

أخذ ويل عهدًا على نفسه متصرّفًا كالبطل: «بالطبع لا، تعال يا جوردي».

تنهد أخوه وأطاع لكنّه قرّر بينه وبين نفسه أن ينهي كتابه قبل أن ينتهي الشهر.

قال الدكتور أليك وقد أسعدته القرارات المتّخذة: «لقد حددتِ لنفسك مهمّة صعبة يا جيسي. بات عليكِ تقديم قراءة مفيدة للأولاد الذين عاشوا على القصص المثيرة. هذا يشبه الانتقال من تناول فطائر التوت الأحمر إلى الخبز الحاف بالزبد، لكن ربما بهذا تنقذينهم من الحمّى الصفراء».

قال أرشي وهو يحدّق شارد الذهن في المكتبة الجميلة التي أمامه: «أتذكر أنّني سمعت جدّي يقول إنّ حبّ الكتب المفيدة هو أفضل الضمانات التي يمكن للإنسان أن يحصل عليها».

قاطعه شارلي محاولا أن يبدو حكيمًا مخضرمًا: «نعم، ليس هناك وقت للقراءة هذه الأيام، فالإنسان يتكالب

مكتبة ياسين

للحصول على المال وإلا لن يكون إنسانًا».

قالت جيسي بحزن: «هذا الحب للمال هو لعنة أمريكا. من أجله سيبيع الرجال الشرف والأمانة حتّى لا نعرف بمن نثق. إنّه فقط العبقري أجاسيز(68) الذي تجرأ وقال: 'لن أضيّع وقتي من أجل أن أكون ثريًا'».

سأل أرشي باندهاش: «هل تريدين أن نصبح فقراء يا أمّي؟»».

- «لا يا عزيزي، لن تصبحا أبدًا فقراء طالما تعملان بجدّ، لكنّني أخاف عليكما من الجشع وإغراء المال. أوه يا أولادي، أرتجف عندما أفكر بالوقت الذي ينبغي فيه أن أتركَكم، لأنّني أعتقد أن ذلك سوف يكسر قلبي في حال فشلتم كما يفشل الكثيرون. سوف يكون من الأسهل عليّ أن أراكم موتى إذا لم يقل الناس عليكم كما قالوا عن سومنر(69) الذي 'لم يجرؤ أحد أن يقدّم له رشوة'».

كانت السيدة جيسي صادقة في قلقها كأمّ لدرجة أنّ صوتها تلاشى في الكلمات الأخيرة، وعانقت الرؤوس الصفراء القريبة من ذراعيها كما لو كانت تخاف عليهم مغادرة هذا المرفأ الآمن إلى البحر الكبيرحيث تحدر الكثير من تلك القوارب الصغيرة. كان الفتيان الصغار يقتربون منها، وقال أرشي بطريقته الهادئة والحازمة:

- «لن أستطيع أن أعدك يا أمي بأنّني سأكون مثل أجاسيز أو سومنر، لكن أعدك بأنّني سأكون شخصًا أمينًا أخاف الله في عباده».

مكتبة ياسين

- «إذًا أنا راضية».

وضغطت بقوّة على يده التي أعطاها لها، وختمت العهد بقبلة تحمل كلّ أمل وإيمان الأم.

همست روز متأثّرة بقوّة بالمشهد البسيط: «لا أعرف كيف يمكن لهم أن يكونوا سيئين؟ إنّها مغرمة بهم ونفورة جدًا».

أجاب الدكتور أليك وهو ينظر إليها بعين راضية: «ينبغي أن تساعديها في جعلهم كما ينبغي أن يكونوا، ولقد بدأتِ بالفعل. وعندما أرى هذه الأقراط في مكانها تكون فتاتي في نظري أجمل من أفضل أنواع الألماس التي تلمع في أذنيها».

- «أنا سعيدة لاعتقادكَ أنّني أستطيع فعل أيّ شيء. فأنا أحاول جاهدة أن أكون ذات فائدة، فالجميع يحسن معاملتي خاصّة العمّة جيسي».

- «أظن أنّكِ في الطريق الصحيح لتسديد دَينك، فعندما تتخلّى الفتيات عن غرورهنّ والصبية عن رذائلهم الصغيرة ويحاولون دعم بعضهم البعض في العمل الجيد، تسير الأمور كما ينبغي. واصلي العمل يا عزيزتي وساعدي أمهم في الحفاظ على هؤلاء الأبناء أصدقاء لائقين لمخلوق بريء مثلك، وسيكونون الأكثر رجولة ويمكنني أن أؤكد لكِ ذلك».

مكتبة ياسين

الفصل الثامن عشر
الموضة ووظائف الجسد

قالت فيبي وهي تمدّ رأسها في المكتب حيث يجلس الدكتور أليك يقرأ كتابًا جديدًا: «من فضلك سيّدي، أظنّ أنّه من الأفضل أن تصعد على الفور وإلا سيكون الوقت قد فات. سمعت الآنسة روز تقول إنّها تعرف أنّك لن تحبّ ذلك وهي لن تجرؤ أبدًا على أن تدعَك تراها».

رفع بصره وهزّ رأسه كما لو أنّه مستعدّ لهذا النوع من المعارك: «إنّهم هناك، أليس كذلك؟».

أجابت فيبي: «نعم سيدي، من الصعب عليهم الكلام... لا يبدو أنّ الآنسة روز تعرف ماذا تفعل... كلّ شيء أنيق للغاية وهي تبدو راقية فيها، رغم أنّني أحبّها في الأشياء القديمة أكثر».

- «أنتِ فتاة حسّاسة جدًا، سأسوّي الأمور مع روزي وأنتِ ستساعدينني، هل كلّ شيء في غرفتها جاهز؟».

- «أوه، أجل يا سيدي لكنّها مضحكة جدًا، أعرف أنّ الآنسة روز ستعتقد أنّها مزحة». وضحكت فيبي كما لو أن شيئًا ما يدغدغها بشدّة.

- «لا تهتمّي بما تعتقد ما دامت تطيع، أخبريها أن تفعل ذلك من أجل خاطري وستكون أفضل مزحة رأتها على الإطلاق. أتوقّع أنّنا سنمرّ بوقت صعب خلال ذلك لكنّنا سنفوز».

مكتبة ياسين

قال الدكتور وهو يصعد للطابق العلوي، كتاب في يده وابتسامة غريبة على وجهه. كان هناك كثير من الصخب في حجرة الخياطة إلى درجة أن لا أحد سمع نقرته على الباب، فدفع الباب وألقى نظرة. العمّات بلينتي وكلارا وجيسي مستغرقات في التحديق بروز، التي كانت تدور ببطء بينهم وبين المرآة الكبيرة في زيّ شتويّ كامل من أحدث صيحات الموضة.

قال الدكتور متنهدًا: «غير معقول! أسوأ حتّى ممّا توقعت». ففي نظره تبدو الفتاة كطائر مكّل والثوب الجديد ليس فيه ميزة أو جمال، بل إنّه غير مناسب لها ليزكّيه.

كان لون الرداء بدرجتين غريبتين من ظلال اللون الأزرق، مرتّب بحيث تختلط البقع الفاتحة بالداكنة بشكل يرهق العين. التنورة من الأعلى مشدودة بربطة بسيطة من الخلف بحيث يصبح من المستحيل معها أن تخطو خطوة واسعة، ومن الأسفل محشوة بطبقات من التول تجعلها «تتأرجح». لا يمكن التعبير عن التنورة سوى بالقول إنّها مجموعة من الطبقات طوي بعضها على بعض فوق مؤخرتها، وقوس كبير يظهر من الأمام. معطف قصير بالخامات نفسها مبهرج بأطواق عالية من الخلف وفتحة عند أعلى الصدر يظهر منها بعض الدانتيل... أقواس... انتفاخات وكشكشة هنا وهناك. بهذه الطريقة ظهر الفستان الذي ما إن تراه حتّى تفكر في كمّ الجهد الضائع ومقدار العمل المهدَر. لا تفصيلة واحدة فيه تشدّ العين، وجمال الخامات قد ضاع تمامًا

مكتبة ياسين

في هذه الوفرة من الزخرفة.

قبعة عالية من القطيفة مثنية إلى الأمام بحِدّة، وحزمة من الأزهار الوردية على حوافها، ريش فوق أذن واحدة، وشعرها المجعّد المضفور كيفما اتفق خلف رقبتها. بدا رأس روز أكثر شبهًا برأس فارس متعجرف منه برأس فتاة صغيرة نجولة. حذاء ذو كعب عال يجعلها تميل إلى الأمام كثيرًا، مع فراء رفيع مقصوص بطول ذراعها ينتهي بإزار مربوط بإحكام قريب جدًا من وجهها، كان بمثابة اللّمسة الأخيرة في تلك المهزلة السخيفة.

قالت العمّة كلارا بلهجة رضا عظيمة: «الآن تبدو كباقي الفتيات، وكما أحبّ أن أراها».

أجابت العمّة بلينتي وهي تحدّق من خلال نظارتها بنظرة مربكة: «إنها تبدو كسيدة شابة عصرية، لكنّني بشكل ما أفتقد روز الصغيرة التي ترتدي مثل الأطفال». لم تستطع تخيّل أنّ تلك المخلوقة كانت تجلس على حجرها وتركض وتملأ البيت بهجة بحضورها المرح.

قالت السيدة كلارا مشيدةً بعملها: «لقد تغيّرت الأمور كثيرًا عن أيامك يا عمّتي، وسيستغرق الأمر وقتًا حتى نعتاد على الأشياء الجديدة. لكنّكِ يا جيسي بالتأكيد تحبين هذا الزيّ بدلًا من الأشياء الرثّة التي كانت ترتديها روز طوال الصيف. الآن، كوني صادقة واعترفي».

أجابت السيدة جيسي بصراحة تسبّبت في توقف روز

مكتبة ياسين

عن الدوران بارتباك: «حسنًا عزيزتي، لأكون صادقة تمامًا أعتقد أنّه شيء مخيف».

- «اسمعوا، اسمعوا».

صاح صوت عميق، وأدركت السيدات أنّهن في حضور عدو.

احمرّت روز خجلا ووقفت تنظر كما لو كانت حمقاء، بينما السيدة كلارا سارعت إلى الشرح.

- «بالطبع، لا أتوقع أن يعجبك هذا يا أليك لكنّني لا أعتبرك حكمًا على ما هو مناسب وصالح لآنسة شابة، لذا تركت لمخيلتي العنان لاختيار أكثر شيء جميل ومناسب لها. لن ترتديه لو اعترضت، فأنا أعرف جيدًا أنّنا وعدناك بأن تكون صاحب القرار بخصوص العزيزة المسكينة لمدّة عام».

سأل الدكتور: «إنه لباسٌ معقّد، أليس كذلك؟». ودقّق النظر في اللباس، واستطرد: «هل تعلمين بأنّني لم أتوقّع أبدًا أنه مصنوع خصيصًا من أجل شتاء مفعم بالنشاط؟ خذي لفّة من أجلي يا روزي لأرى جماله ومميزاته».

حاولت روز المشي بخطوتها الحرة المعتادة لكن (الجيبون) الداخلية أعاقت طريقها والتنورة العلوية ضيقة جدًا لدرجة أنّها لم تسمح لها بأن تخطو خطوة طويلة. والحذاء جعل من المستحيل أن تحمل نفسها منتصبة تمامًا.

بدت متألمة وهي تشيح بقدمها، وعادت وهي تمشي

مكتبة ياسين

على هون، قائلة: «لم أعتد على ذلك بعد».

سأل الدكتور وعيناه مثبتتَان على القبعة البشعة: «افترضي أنّ هناك كلبًا غاضبًا أو حصانًا هاربًا يلاحقك، هل يمكنك تغيير الطريق بسرعة والنجاة بنفسك؟».

- «لا أعتقد سأستطيع، غير أنّني سأحاول». واندفعت روز عبر الغرفة.

علق حذاؤها بالسجادة فانفكت عدة خيوط، وانقلبت القبعة على عينيها فانقلبت روز على الكرسي حيث جلست وهي تضحك بشدّة لدرجة أنّ الجميع، باستثناء السيدة كلارا، شاركوها ضحكها.

قال الدكتور أليك: «عليَّ أن أقول إنّ هذا الرداء إن كان للمشي، لا يمكن لأحد أن يمشي فيه، وكرداء للشتاء يعرّض الحلق والرأس والقدمين للبرد والرطوبة. رداء فاشل في كليهما يا كلارا إضافة إلى أنه ليس فيه أيّ جمال يجعلنا نحتمله».

وراح يساعد روز على فك الإزار مضيفًا بنبرة منخفضة:

- «إنّه شيء لطيف للعين، أنّ تلك البقع المضيئة ستظل تظهر حتّى بعد أن تخلعي هذا الرداء، وستخفّ شيئًا فشيئًا بعد زيارة طبيب العيون».

صاحت السيدة كلارا: «أنت لا تراه جميلًا!». وبدت الدهشة على وجهها. أضافت: «إنّه مجرد عمى الرجال. هذا أفضل أنواع الحرير وشعر الجمال، ريش نعام حقيقي

مكتبة ياسين

وغطاء من الفرو الغالي، أيّ شيء قد يكون أفضل أو مناسبًا أكثر لفتاة صغيرة؟»».

أجاب الدكتور: «سأريكِ، لو ذهبت روز إلى حجرتها وتفضّلت عليّ بارتداء ما تجده هناك».

شبكت السيدة كلارا يديها وقالت بنبرة انتصار: «لو كان بنطلونًا سأعترض يا أليك، فقد توقّعت ذلك لكنّني لن أستطيع تحمّل رؤية هذه الطفلة الجميلة وهي تنصاع لأفكارك الجامحة عن الصحّة. أخبرني أليس بنطلونا بالفعل؟»».

- «لا، ليس بنطلونًا».

تنفست كلارا الصعداء: «الحمد لله». وأضافت بنبرة حزن: «كنت أتمنى أن توافق على الرداء لأنّ روز المسكينة ابتليت بملابس من البشاعة بما يكفي لإفساد ذوق أيّ فتاة».

ردّ الدكتور مشيرًا إلى الرداء غير العصري الذي كان يبعد نظره عنه بأسرع ما يمكن: «أنتِ تتحدثين عمّا أفعله مع الفتاة باعتباره ابتلاءً، وتريدين أن تجعليها شخصًا عاجزًا من دون فائدة».

توجّه نحو الباب وهو يهزّ كتفيه، لكن قبل أن يتمكن أيّ شخص من التعليق، التقطت عيناه شيئًا جعله عابسًا، فسأل بلهجة ساخطة: «بعد كلّ الذي قلته هل ستغرين فتاتي بهذه الأشياء البشعة؟»».

تمتمت السيدة كلارا وهي تخفي زوجًا من المشدات بعيدًا عن نظره شاعرة بالذنب: «أعتقد أنّنا أبعدناهما

مكتبة ياسين

حينما لم ترتدِهما».

غير أن الدكتور تجمّد في مكانه، فهذه الأشياء تمثّل فواحش بالنسبة له.

فاستطردت كلارا بنبرة هادئة كأنّما تحاول إقناعه: «أحضرتهما فقط لتجرّبهما. روز تكبر سريعًا وتبدو كامرأة حقًا من دون أن ننتبه لذلك».

- «تكبر سريعًا! أجل الحمد لله أنّها كذلك، وتستطيع الاستمرار. فالطبيعة تعرف كيف تشكل جسد المرأة أحسن من أيّ صانع مَشّدات، ولن أدع أيّ شخص يتدخل في ذلك. عزيزتي كلارا هل فقدتِ كافّة حواسك حينما فكرتِ ولو للحظة أن تضعي فتاةً في سنّ النمو في أداة تعذيب كهذه؟».

وبشكل خاطف التقط المشدات من تحت الوسادة، ورماهما وعلى وجهه تعبير شخص رأى كلّ خراب العصور القديمة.

قالت السيدة كلارا مدافعة عن الوهم اللذيذ لمعظم النساء: «لا تكن سخيفًا يا أليك، لا يوجد تعذيب في هذا، فالرباط المحكم طراز قديم ونحن لدينا أشياء أفضل منه هذه الأيام. أشياء يرتديها الجميع، حتّى الأطفال الرضّع يوجد لهم أشياء تربط وسطهم لدعم ظهورهم الضعيفة».

- «أعرف، فالأرواح الصغيرة المسكينة لها ظهور ضعيفة طوال أيامها كما كان لأمهاتها من قبل. من العبث الجدال في هذه المسألة ولن أحاول ذلك،

مكتبة ياسين

وأتمنّى أن أذكر مرة وإلى الأبد أنّني لو رأيت مثل هذه المشدات بالقرب من روز، سأضعها في النار، وربما ترسلين لي الفاتورة».

لكنّ السيدة جيسي أمسكت بذراعه وهي تصيح بمرح: «لا تحرقهما أرجوك يا أليك، إنّهما مليئان بعظام الحوت وسوف تنبعث منهما رائحة كريهة، أعطهما لي فهما أشياء غير مؤذية».

تذمّر الدكتور تاركًا سبب الخلاف بهزّة أخيرة من رأسه تشي بالازدراء: «عظام حوت... حقًا! سياج منتظم من هذه العظام، وأعمدة بوابات معدنية من الأمام! كما لو أنّ عظامنا ليست كافية لو أعطينا لها الفرصة للقيام بمهمتها». ثم صفا وجهه فجأة رافعًا أصبعه وقال بابتسامة: «اسمعوا ضحك هؤلاء الفتيات، لا يمكن للرئتين المتشنجتين أن تخرج منهما موسيقى صادقة كتلك».

عمّ رنين ضحك، وابتسامات تلقائية كانت تداعب شفاه المستمعين الذين استمعوا لصوت السعادة.

سألت العمّة بلينتي ببساطة، فقد أصبحت تؤمن بمعظم المفاهيم الغريبة لابن أخيها بعدما ثبتت صحّتها: «يعجبني مزاحك يا أليك. فقد أدخل علينا الفرح».

- «أجل يا سيدتي، إليكِ مزحتي الأخيرة وأتمنّى أن تعجبك. منذ فترة اكتشفت ما الذي كانت تفعله كلارا. لذلك أحضرتُ رداءً جاهزًا سوف ينافس ما قدمته لروز اليوم. لن أجبر روز على لبس الرداء، لكنّني سأدعها تختار، وإذا لم أكن مخطئًا تمامًا ستفضل

مكتبة ياسين

الملابس التي اخترتها، وبينما ننتظر سأشرح لكِ وأنت ستقيّمين. حصلت على هذا الكتاب الصغير وذهلت من ذوقه البديع وإحساسه الرائع، فهو يقترح طريقة صحية وجميلة في الوقت نفسه لملابس المرأة، وهذه نقطة عظيمة. يبدأ بالأساسيات كما سترين لو نظرتِ إلى هذه الصور وأعتقد أن النساء سيبتهجن من خفة هذا الرداء على أجسادهن».

وبينما يتحدّث، وضع الدكتور الكتاب أمام العمّة بلينتي التي أطاعته وأحضرت نظارتها لتقرأ التوضيحات، وبعد نظرة طويلة صاحت بوجه جريء، قائلة:

- «الرحمة يا رب، هذه الأشياء تشبه السراويل التي يرتديها جيمي في الليل. أنت بالتأكيد لا تقصد القول بأن روز سوف تخرج بهذا الزي؟ إنه غير مناسب ولن أوافق على ذلك».

- «أنا فعلًا قصدت ذلك، ومتأكد أن عمّتي ذات الحسّ المرهف ستوافق حينما تفهم أن هذه الأشياء سوف نسمّيها باسم هندي ونقول إن (البيجاما) لباس داخلي، ويمكن أن يكون لدى روز فساتين جميلة كما تحب لترتديها في الخارج. هذان الرداءان من نسيج ناعم، كلّ منهما قطعة واحدة من الرأس إلى القدم، نضيف إليهما تنورة أو شيئًا كهذا يناسب هذا الخصر، سوف تحافظ على الطفلة دافئة من دون أن تثقل نفسها بالأحزمة والطيات الكثيرة والأبازيم والأربطة حول الوسط، ونطلق سراح العضلات التي تحتاج لمزيد من المساحة لتعمل بكفاءة. لن تعاني أبدًا من آلام الظهر

مكتبة ياسين

إذا كان بإمكاني مساعدتها، ولا من القائمة الطويلة من العلل التي تعتقدن أيّتها النساء العزيزات أن لا مناص منها».

قالت السيدة كلارا: «أنا لا أعتبر ذلك مناسبًا ومتأكدة أن روز سوف تُصدم حين تراه...»، لكنّها توقفت فجأة، فقد ظهرت روز في المدخل، عليها الرداء وغير مصدومة البتّة.

قال عمّها بنظرة رضا بينما تدخل وتبدو عليها سعادة شقيّة. فمن الواضح أنّها أعجبت بالمزحة: «تعالي يا نموذجي الصحّي ودعينا نراكِ».

قالت السيدة كلارا شاعرة أنّ ملاحظتها الأخيرة كانت على غير ما توقّعت: «حسنًا لا أرى أيّ شيء مميز، إنه رداء أنيق وبسيط. الخامات جيدة، ليست مكروهة لو كانت ترتديها فتاة صغيرة في المدرسة، لكن ليس له شكل مميّز ولن يرغب أحد في أن يلقي نظرة ثانية عليه».

أجاب الدكتور المستفَزّ وهو يفرك يديه شاعرًا بالرضا: «هذا تمامًا ما أريده. روزي تشبه نفسها الآن، فتاة متواضعة صغيرة لا تحبّ أن يحدّق فيها أحد. أظنّ أنّها ستستقبل نظرة استحسان من الناس الذين يملكون إحساسًا بالبساطة وليس الصخب والريش. دوري يا حبيبتي ودعيني أنعش عينيَّ بلمحة منكِ».

تفاصيل قليلة لتراها، فقط فستان جميل بنيّ، دافئ وناعم ينسدل على زوج مزركش من الأحذية وجورب من الحرير، قفازان وقبّعة مع لمحة من

مكتبة ياسين

القرمزي الهادئ على الرقبة، وضفائر جميلة مربوطة بشرائط من القطيفة اللّامعة باللّون نفسه، تكمل زينتها الخارجية وتجعلها تبدو كطائر أبو الحناء الشتوي، شيء دافئ حقًا.

سأل الدكتور شاعرًا أنّ رأيها أهم بكثير لنجاح فكرته الجديدة من رأي جميع العمّات على التلّ. «ما رأيك يا روزي؟».

أجابت روز بقفزة رشيقة أبانت جمال القماش (الجبردين) على قدميها وقدرتها على الحركة فيه بحرية كما لو كانت صبيًا في رداء فتاة: «أشعر أنّني غريبة جدًا وخفيفة، لكنّني دافئة (كالتوست) ولا شيء يعوقني».

- «يمكنك الآن الهرب من الكلاب الغاضبة والانطلاق بخطى رشيقة من دون أن تتدحرجي على أنفك، أتصوّر ذلك».

- «نعم عمّي! لنفترض أن الكلب قادم سوف أقفز فوق السور، وحينما أمشي في يوم بارد أمشي هكذا».

للدخول في صلب الموضوع، أربجت روز نفسها فوق ظهر الأريكة المرتفع بسهولة مثل أحد أبناء عمومتها، ثم ذهبت إلى أسفل الصالة الطويلة كما لو أن حذاءها القوي يعود إلى زمن الأحذية السحريّة السبعة.

صاحت السيدة كلارا بينما كانت روز تعود راكضة: «أترى منظرها الآن، ألبستها بهذه الطريقة الصبيانية وستتصرف كصبيّ، أنا أكره كلّ هذه الاختراعات من النساء ذوات العقلية الخشنة».

مكتبة ياسين

- «أوه، لكنّك ترين أن بعضًا من هذه القصّات التي أتى بها عقل خياط عصريّ ماهر سوف يجعلك تبدين أجمل، أو ماذا تفضلين أكثر من الشياكة في الخارج والراحة في الداخل. كانت السيدة فان تاسيل عند مدام ستون وكانت ترتدي رداء كاملًا من هذا النوع. فان نفسها أخبرتني عندما سألتها عن حالتها قائلة لي إنّها تخلت عن الاستلقاء على الأريكة. وكانت تجري بطريقة مدهشة للغاية خاصة وأنّنا ننظر إليها على أنها ضعيفة الصحة».

- «أتقول ذلك! دعني أرى هذا الكتاب للحظة».

وتفحّصت العمّة كلارا نماذج «الموديلات» الجديدة بمزيد من الاحترام، فلو كانت السيدة الأنيقة فان تاسيل ترتدي تلك «الأشياء المخيفة» فهي أشياء جديرة بأن ننظر إليها.

نظر الدكتور أليك إلى السيدة جيسي، وابتسم كلاهما وكأنّما اكتشفت الأم الصغيرة السرّ واستمتعت به في الغالب.

قال وهو يهزّ رأسه: «أعتقد أنّ ذلك من شأنه تسوية الأمر».

أجابت السيدة جيسي وهي تومئ برأسها في وجهه: «لن أنتظر السيدة فان لتقود المسألة، ولمرة واحدة في حياتي تبنّيت موضة جديدة قبل كلارا. لقد طلبت لنفسي واحدًا من تلك الأردية، وليس بعيدًا أن تراني وأنا ألعب مع روز والصّبية».

مكتبة ياسين

في غضون ذلك كانت العمّة بلينتي تتفحص رداء روز من دون القبعة والحقيبة، كانت الفتاة تشرح بشوق جمال الملابس الداخلية الجديدة.

- «أترين يا عمّتي، كلّ هذا النسيج الناعم القرمزي و«الجيبونة» الصغيرة والمبهجة والجوارب الطويلة، كل شيء رائع. كنت أنا وفيبي سنموت من الضحك حينما ارتديت هذه الملابس لكنّني أحببتها كثيرًا. الفستان مريح وليس بحاجة إلى حزام أو وشاح، ويمكنني الجلوس من دون كلّ تلك الطبقات والتجعيدات. يا لها من راحة! أحبّ أن أكون نظيفة، فحينما أرتدي أشياء مزعجة، أظلّ أفكر في ملابسي طوال الوقت وهذا مملّ. هل تقولين إنّكِ معجبة بها؟ أنا سأرتديها من أجل إرضاء عمّي فهو يعرف عن أمور الصحة أكثر من أيّ شخص آخر. أنا متأكدة من ذلك وسأرتدي حقيبة لو طلب منّي ذلك».

أجاب الدكتور أليك متأكدًا من فوزه: «لن أطلب ذلك منكِ يا روز، كلّ ما أتمناه هو أن تزِني الأمور وتقارني بين الرداءين ثم تختاري أيّهما أفضل بالنسبة لكِ. سوف أترك الأمر لذوقك».

- «سآخذ هذا الرداء بالطبع يا عمّي. صحيح أن الرداء الآخر عصريّ وصحيح جميل، لكنّه ثقيل جدا وسأكون مضطرة لأن أدور كالدمية المتحركة لو ارتديته. أنا ممتنّة كثيرًا لعمّتي لكنّني سأرتدي الذي أحضرته أنت من فضلكِ».

تحدثت روز بلطف لكن بحزم رغم وجود نظرة ندم

مكتبة ياسين

عندما وقعت عيناها على الرداء الآخر الذي أحضرته فيي لها، وكان من الطبيعي جدًا أن تبدو مثل الفتيات الأخريات.

تنهدت العمّة كلارا، وابتسم الدكتور أليك قائلا بلطف:

- «شكرًا يا عزيزتي والآن اقرأي هذا الكتاب وستفهمين لماذا اخترت هذا الرداء لكِ، ثم إذا أعجبك سأعطيكِ درسًا جديدًا، لقد طلبتِ درسًا بالأمس وهذا الدرس أفضل بكثير من اللّغة الفرنسية أو من أعمال المنزل».

قالت روز باندهاش: «أوه، ماذا؟». والتقطت الكتاب الذي ألقته السيدة كلارا باشمئزاز.

رغم أنّ الدكتور كان في الأربعين من عمره إلا أن حبّه للمشاكسة لم يمت فيه بعد، وكونه مبتهجًا جدًا بفوزه لم يستطع مقاومة إغراء صدم السيدة كلارا باقتراح احتمالات مروعة، لذلك أجاب بنصف جدّية ونصف مرح:

- «جديًا يا روز، ألا تحبين أن تكوني تلميذة صغيرة في كلية الطبّ مع العمّ الدكتور كمعلم، وتكوني على استعداد لإكمال مسيرته حينما يتوقف. لو وافقتِ سأبحث عن الهيكل العظمي القديم خاصتي غدًا».

كان هذا أكثر ممّا يمكن أن تحتمله العمّة كلارا، فغادرت مسرعة في حالة اضطراب، وقد أصابها بالحزن زيّ السيدة فان تاسيل الجديد، ودراسة روز الجديدة.

مكتبة ياسين

الفصل التاسع عشر
عظام «أخينا هذا»

قبلت روز عرض عمّها، كما اكتشفت العمّة ميرا بعد يومين أو ثلاثة، فقد حضرت عقب استدعاء مبكر وسماع أصوات في المكتب، ففتحت الباب وأطلقت صيحة ثمّ أغلقته سريعًا والذهول على وجهها. ظهر الدكتور فورًا وتوسّل إليها ليعرف ما الخطب؟

أجابت السيدة ميرا وهي تشير إلى الهيكل العظميّ المعلّق في النجفة، ويبتسم ابتسامة عريضة في كل الناظرين: «كيف تسأل وهذا الصندوق الطويل يبدو كالتابوت. بل أعتقد أنّه واحد بالفعل. وذلك الشيء المخيف حدّق في وجهي عندما فتحت الباب».

قال الدكتور وهو يمد يده مع انحناءة مهذبة: «هذه كلّية الطبّ حيث يتمّ قبول النساء بحرية، لذا يمكنك الدخول يا سيدة والانضمام للمحاضرة إذا كنتِ ترغبين في منحنا هذا الشرف».

صاحت روز وظهر وجهها النضر خلف ضلوع الهيكل العظمي، تبتسم وتومئ برأسها بطريقة أكثر مرحًا: «ادخلي يا عمّتي إنّه رائع جدًا».

سألتها العمّة ميرا وهي تجلس على كرسيّ وتحدّق فيها: «ماذا تفعلين أيّتها الطفلة؟».

أطلعتها روز على القليل ممّا تعرف: «أوه! أتعلّم اليوم عن العظام، وقد أحببتها كثيرًا، هناك اثنا عشر ضلعًا كما تعلمين. ويسمّى الضلعان السفليان بالضلعين العائمين

مكتبة ياسين

لأنّهما غير مثبتين بعظام الصدر، لذا يتحركان بسهولة حينما تضعين رباطًا محكمًا يعتصر رئتيكِ وقلبكِ. دعيني أعرّفك ما الكلمة الكبيرة... أنا أعرف إنّه القفص الصدريّ». ثم ابتسمت بفخر.

قالت العمّة ميرا وهي تشاهد روز تعدّ الفقرات وتهزّ مفصل الورك في مكانه بوجه متسائل: «أتعتقد يا أليك أنّ هذا شيء جيد لتعرفه؟ إنّها طفلة متوترة وأخشى أن يسبّب ذلك ضررًا لها».

- «بل هي دراسة ممتازة، خاصة وأنّها استمتعت بها. وأنا أقصد أن أدرّس لها كيف تتحكم في أعصابها حتى لا تكون لعنة عليها مثل العديد من النساء اللاتي صرن جاهلات بسبب نقص العلم. جعلكِ هذه الأشياء مرعبة أو تعاملكِ معها كلغز شيء خاطئ، أقصد أنّ روز ينبغي عليها فهم واحترام جسدها جدًا لدرجة أن لا تجرؤ على العبث به كما تفعل معظم النساء».

- «وهل أحببته بالفعل يا روز؟»

- «جدًا يا عمّتي، إنّه رائع جدًا ومنظّم بشكل لطيف إلى حدّ يصعب معه تصديق ما ترينه. تصوّري أنّ هناك ستّ مئة مليون خلية هوائية في زوج من الرئتين وألفي مسام في كلّ بوصة مربعة من الجلد، عندها سترين كميات الهواء التي نحتاجها وشكل العناية التي علينا أن نوليها للجلد حتّى يعمل كلّ شيء بشكل صحيح. والمخ يا عمّتي هل لديك فكرة كم هو مثير للفضول. لم أصل إليه بعد لكنّني أتشوق لاكتشافه وسيريني عمّي دمية مخصّصة للتّشريح يمكن تقطيعها إلى أجزاء. فقط فكّري

مكتبة ياسين

كم سيكون من الرائع رؤية جميع الأعضاء في أماكنها. كم هو جميل أن نعرف كيف يعمل كلّ عضو من أعضائنا».

من المضحك رؤية وجه العمّة ميرا بينما تقف روز بجانبها تتحدّث ويدها موضوعة فوق كتف الهيكل العظمي بطريقة ودودة. كلّ كلمة يتفوّه بها الدكتور أليك وروز تمثل ضربة للسيدة العزيزة في مناطق ضعفها. وبينما هي تنظر وتستمع وجدت أمامها صفًا طويلًا من الزجاجات وعلب الحبوب -يؤنّبها «جهلها والرغبة في المعرفة»- وهذا بدوره جعلها تبدو متوترة، متشائمة، وسيدة عجوزًا وغير عصريّة.

قالت العمّة ميرا متنهدة: «حسنًا، أنا لا أعرف كلّ ذلك، لكن ربّما تكون على صواب يا أليك، كلّ ما في الأمر أنّني لا أريد أن أتعمّق بعيدًا، السيدات لسن بحاجة إلى الكثير من هذا النوع من المعرفة وليست مناسبة لهن. أنا لن أستطيع تحمّل لمس هذا الشيء القبيح، ومجرّد الاستماع إلى كيفيّة عمل هذه الأعضاء يسبب لي قشعريرة».

سألت روز بضحكة شقيّة في عينيها لأنّها علمت مؤخرًا أنّ الكبد عندها ليس في مكانه المناسب: «أليس من الجميل معرفة أنّ الكبد على الجانب الأيمن يا عمّتي وليس الأيسر؟».

كان ردّ العمّة ميرا المبهج: «إنّه عالم الموتى يا طفلتي ولا يهمّ مطلقًا مصدر الألم، لأنّنا عاجلًا أم آجلًا سوف نسقط ولن يرانا أيّ شخص آخر».

مكتبة ياسين

- «حسنًا، أنا أنوي أن أعرف أيّ الأشياء يمكنها القضاء عليّ إن استطعت معرفة ذلك. وفي الوقت نفسه سأستمتع بحياتي رغم أنّه عالم الموتى. أتمنّى أن تفعلي مثلي وتأتي للدراسة مع العمّ وسوف تكونين أفضل، أنا متأكّدة».

وعادت روز لتعدّ الفقرات بهذا الوجه السعيد، والعمّة ميرا لم يطاوعها قلبها لتقول لها ما يخفّف من حماستها.

همست لأليك وهي تخرج من الغرفة: «ربما يكون من الجيد السماح لها قليلًا بفعل ما تحبّه أثناء فترة وجودها معنا، لكن من فضلكَ كن حذرًا بألّا تثقل كاهلها بالعمل».

- هذا بالضبط ما أحاول القيام به يا سيدتي، مع أنّه عمل صعب كما أتصوّر.

قال وهو يغلق الباب وراءها.

بعد نصف ساعة قوطعا مرة أخرى بسبب ماك الذي أعلن عن وصوله بملاحظة مختصرة وأنيقة: «مرحبًا، ما هذه اللّعبة الجديدة؟».

شرحت روز فأطلق ماك صفيرًا طويلًا من الاندهاش ثم قام بجولة حول الهيكل العظميّ وتفحّصه بجدّية: «أخونا يبدو مرحًا جدًا، لكنّني لا أستطيع قول الكثير عن جماله».

قالت روز مدافعة عن صديقها الجديد بحماسة: «لا تسخر منه فهو رفيق قديم جميل، وستكون قبيحًا هكذا لو نزعنا لحمك عن عظمك».

مكتبة ياسين

سأل ماك الذي تحسّنت عيناه لكن ما زالت ضعيفة على قراءة الكتب: «لن أجرؤ على السخرية، وأريد أن أحتفظ بلحمي، شكرًا لك. أنتِ مشغولة جدًا وأتصوّر أنّك لن تتمكّني من القراءة لرفيق».

روز التي اعتبرت أنّه ليس لدى ماك أيّ شوق لمعرفة معلومات عن جسده، حاولت تشجيعه فقالت: «ما رأيك أن تأتي وتنضمّ لمحاضرتنا. العمّ أليك يشرح لنا كلّ شيء ويمكنك إلقاء نظرة على أقسام الجسم ووظائف كلّ عضو فيه. سوف نترك دراسة العظام اليوم ونتفحص العيون، سيكون أمرًا مثيرا بالنسبة لك».

قال الدكتور أليك هامسًا بشكل سريع وبإيماءة ناحية ماك الذي تجّه نظارته بأسى تجاه الكتب الممنوعة عنه: «روز، يجب ألّا ننتقل من درسٍ إلى آخر بهذه الطريقة».

ردّت هامسةً: «لقد جاء إليّ لأقرأ له، ولأنّني غير متفرّغة اقترحت موضوعًا يهمّه لكي نسليه، فلنشرح له في محاضرة صغيرة ما يتعلّق بالعيون وسوف يسعده ذلك. لا تهتم بشأني يا عمّي».

نقر الدكتور نقرة على الطاولة وقال: «ممتاز، اجلسا من فضلكما».

روز التي تفتح المجال له، ترى أنّ عليه أن يتعامل مع نقاط ضعفه. فنحن جميعًا معرّضون لذلك، قالت: «تعال، اجلس بجانبي وهكذا سيمكننا رؤية الصور معًا، ولو أتعبك رأسك يمكنك الاستلقاء هنا».

مكتبة ياسين

جلسا جنبًا إلى جنب يستمعان لشرح مبسّط للغاية عن آلية عمل العين، وكان الشرح رائعًا أشبه بقصة خرافية. وقد بذل المعلّم المجتهد قصارى جهده لتقديم الدرس بشكل جذّاب.

قال ماك وهو يحدّق بجدّية في كرة عين مجسّمة: «يا إلهي، لو كنت عرفت حجم الأذى الذي ألحقه بهذه الآلة الحسّاسة والقويّة، ما كنت لأجلس للقراءة على ضوء النار أو أدرس ووهج الشمس على كتابي». ثم دفع كرة العين بعيدًا وأضاف بسخط:

«لماذا لا يعرف الواحد منّا كلّ شيء عن جسده وكيفيّة التعامل معه، ويُترك هكذا يتخبّط في الجهل والخوف؟ وعندما يُفسَد الشيء نخبره بأنّه أساء استخدامه، فيجد المرء أنّ هذا الأمر كان خارج إرادته ولن يشكرك أبدًا على معلومات كتلك».

- «أوه، هذا يا ماك ما يجعلني أستمر في إلقاء المحاضرات. أنتم أيّها الفتيان في حاجة ماسّة إلى هذا النّوع من المعرفة، وينبغي على الآباء والأمهات أن يكونوا قادرين على منحها لكم، لكنّ معظمهم لا يهتمّ، وللأسف، القليل منهم قادر على ذلك، وهكذا تخبط جميعًا كما قلت. لو كان الأمر بيدي فأنا أنصح الفتيان بتعلّم القليل من اليونانية واللاتينية، والاهتمام بمعرفة شؤون الصحة. الرياضيات أيضًا مهمّة جدًا لكنّ الأخلاق أفضل. وأتمنى، بل كم أتمنى، أن أتمكن من مساعدة المعلّمين والآباء ليدركوا أهمّية ذلك كما ينبغي».

- «البعض يفعل، فالعمّة جيسي وأولادها يجرون

مكتبة ياسين

مناقشات حول حركة رأس المال وأتمنّى أن نفعل ذلك، لكنّ أمّي مشغولة جدًا بأعمال المنزل وأبي مشغول بعمله، ولا يبدو أنّ هناك أيّ وقت لهذا النّوع من الأشياء. وحتّى لو كان هناك بعض الوقت لن يكون من السهل التحدّث إليهم فيه، لأنّ هذا ليس أسلوبنا في الأصل كما تعلمين».

- «ماك المسكين كان عنده الحق في ذلك، وعبّر عن رغبة يتمناها كلّ صبيّ وكلّ فتاة. الآباء والأمهات منغمسون للغاية في الأعمال التّجارية والتدبير المنزليّ فلا يستطيعون أن يعلّموا أطفالهم، وتختفي تلك الثقة الطبيعية الجميلة التي تكسب الأطفال الحماية المؤكدة وتُكسب الأبوَيْن القدرة على فهم متطلبات أولادهم. لذا يختفي الأطفال الصغار مصاعبهم أو مغرياتهم حتى يقع الضرر، ويأتي الأسف المتبادل بعد فوات الأوان. أنا سعيد بالفتيان والفتيات الذين يقولون كلّ شيء بحرّية للأب أو الأمّ، واثقين من الشفقة والعون والعفو، وسعيد أكثر بالذين يقدرون أن يعلّموا ويرتقوا بالأرواح المسؤولين عنها بدافع من تجاربهم وفضائلهم».

كلام العمّ أثار في قلب ماك وروز الشوق بطريقة عفويّة، اتّجه كلّ منهما ناحية الدكتور أليك، ففي عالمنا الغريب هذا غالبًا ما تنبض قلوب الأعمام والعمّات قبل الزواج بالأمومة والأبوة وتنتابهم مشاعر الدّفء والحكمة. وفي تقديري أنّ أولئك الأشخاص المهمين هم منحة عظيمة من الطبيعة للعناية بأطفال الآخرين. فهم يحصلون بالتأكيد على راحة كبيرة في فعل ذلك

مكتبة ياسين

والكثير من العاطفة البريئة التي كانت ستضيع سدى.

الدكتور أليك واحد منهم، قلبه الكبير يتّسع لكلّ فرد من أبناء العمومة الثمانية، وخاصة اليتيمة روز والمصاب ماك، لذا حينما أسقط الصبيّ اللّوم على والديه بغير وعي وأضافت روز متنهدة: «إنّه من الجميل أن يكون لديك أم»، شعر الدكتور الطيّب بالشفقة عليهما. أغلق كتابه بصوت كالصفعة قائلًا بصوته الودود:

- «الآن انظروا هنا يا أطفالي، تعالوا وأخبروني بكلّ ما يقلقكم، وبعون الله سأحلّ جميع مشاكلكم. هذا سبب وجودي هنا، وسوف تكون سعادة كبيرة لي إذا وثقتم بي».

أجاب كلاهما بحماسة شديدة أسعدته كثيرًا: «نثق بك يا عمّي وسوف نفعل كلّ ما ذكرته».

- «جيّد، الآن انتهت حصتنا وأنصحكما بالذهاب وتجديد الستّة مليون خلية هوائية عن طريق الجري السريع في الحديقة. تعالَ مرة أخرى في أيّ وقت تريده يا ماك وسوف نعلّمك كلّ ما نستطيع بخصوص «أعضائك العاملة» كما تسميها حتى نستطيع الحفاظ عليها وهي تعمل بكفاءة».

- «بالطبع سآتي يا سيدي، شكرًا جزيلًا».

وخرج تلامذة صف علم وظائف الجسد إلى الخارج من أجل اللّعب.

ماك قرر أن يعود مرة أخرى، فهو سعيد لأنّه وجد شيئًا يمكنه دراسته بالرّغم من ضعف عينيه وسوف

مكتبة ياسين

يتعلم أشياء أهم بكثير من أيّ شيء تعلّمه في المدرسة.

بالطبع سخِر باقي الفتيان من الموضوع كلّه وأزعجوا تلاميذ الدكتور أليك، غير أنّ التلميذين أصرّا على استكمال دراستهما. وفي أحد الأيام حدث شيء جعل الرّفاق مهذّبين للأبد.

كان يوم إجازة وكانت روز في غرفتها في الطابق العلوي. ظنّت أنّها سمعت أصوات أبناء عمومتها لذا هرعت إلى الأسفل لتحييهم لكنّها لم تجد أحدًا. «لا عليكِ سيأتون وسنمرح كثيرا»، قالت لنفسها وفكرت أنّها أخطأت بمجيئها إلى حجرة الدرس للانتظار. كانت تتسكّع حول الطاولة وتنظر إلى الخريطة عندما تناهى إلى سمعها صوت غريب؛ نقر خفيف في مكان ما، وبعدما تتبّعت الصوت وجدت أنّه آت من داخل التابوت الطويل حيث يسكن الهيكل العظمي عندما لا يكون وقت الشرح.

وُضع التابوت في مكان مناسب بين خزانتي كتب في الجزء الخلفي من الحجرة. ركن مظلم حيث تقبع عظام «أخينا» كما يسميه الصبية. وبينما تنظر روز في هذا الاتجاه وتتساءل إن كان فأر قد قفز إلى الداخل، فُتح باب التابوت ببطء ورأت ذراعًا من العظم مرفوعة وأصبعًا تومئ لها أن تقترب. هرعت مسرعة تجاه باب الحجرة بقلب مرتعد. وعندما لمست مقبض الباب أوقفها نوع من الضحك الغريب الخانق فاحمرّ وجهها من شدّة الغضب. توقفت لحظة لتجمع شتات نفسها ثم تحرّكت ببطء تجاه العظم الذي يشير إليها. كشفت

مكتبة ياسين

نظرة قريبة منها عن خيوط سوداء مربوطة بالذراع والأصابع. نهايات الخيوط تختفي عند الجزء الخلفيّ من التابوت. مدّت رأسها لترى أكثر فرأت طرف مرفق مغطى بقطعة قماش رماديّة خشنة تعرفها جيدًا. أدركت المزحة فتبدّد خوفها، وبابتسامة شريرة أخرجت مقصها وقطعت الخيوط فسقط الذراع العظميّ محدثًا خشخشة. وقبل أن تقول: اخرج يا شارلي واترك الهيكل العظميّ خاصّتي. ظهر الصبية بشكل مفاجئ في حالة من الضحك معلنين للمؤذي المختبئ بأنّ مزحته باءت بالفشل.

أوضح أرشي وهو يخرج من الخزانة: «أخبرته ألّا يفعل ذلك حتى لا يفزعك».

أضاف ستيف الذي ظهر من خلف الكرسي الكبير: «لديّ زجاجة رائحة قوية جاهزة لو أغمي عليها».

قال ويل وهو يتدحرج مع جوردي من تحت الأريكة: «غريب أنّكِ لم تصرخي ولم تهربي، لقد حسبنا أنّكِ سوف تفعلين ذلك، وقدّرنا أنّنا سوف نحظى بكثير من المرح».

تذمّر شارلي وهو يخرج من مكانه الضيق، المترب والمقزّز: «أصبحتِ قوية العقل يا روز، معظم الفتيات لو كنّ مكانك لارتعدن من رؤية هذا الرفيق القديم وهو يشير بإصبعه».

- «أنا معتادة على مقالبك، لذا فأنا دائمًا على أهبّة الاستعداد لكنّني لا أسخر من عظام «أخينا هذا»، أعرف أن عمّي لن يحبّ ذلك لذا أرجوك لا تفعل».

مكتبة ياسين

قالت روز بينما دخل الدكتور أليك ولمح ما حدث فقال بهدوء: «اسمعوا كيف حصلت على هذا الهيكل العظمي، وعندها أؤكد لكم أنكم ستتعاملون معه باحترام».

على الفوراستقر كلّ واحدٍ من الأولاد على قطعة الأثاث القريبة منه واستمعوا بإخلاص.

- «منذ سنوات، عندما كنت في المستشفى تمّ إحضار زميل فقير، مرضه نادر ومؤلم للغاية. لم يكنْ لديه أمل لكنّنا قمنا بواجبنا على أكمل وجه، وكان ممتنًا جدًا لدرجة أنّه أوصى بترك جسده لنا لنكتشف ألغاز مرضه، وبذلك نكون قادرين على مساعدة أيّ شخص يبتلى بالمرض نفسه. لقد فعل خيرًا وتحلّى بصبر شجاع جعل سيرته تظلّ طويلًا بعد رحيله. كان يعرف أنّني كنت عطوفًا عليه فقال لطالب زميل لي: 'أخبر الدكتور أنّني سأمنحه عظامي فليس عندي سواها في هذا العالم ولن أحتاج إليها أبدًا'. وبهذا أصبحت هذه العظام ملكًا لي، لذا أنا حريص جدًا على الاهتمام بها. فرغم فقره، استطاع مايك نولان أن يساعد الآخرين وأثبت امتنانه لكلّ من ساعده».

بينما توقف الدكتور أليك عن الكلام، أغلق أرشي باب التابوت باحترام كما لو كان بداخله مومياء لملك مصريّ. نظر ويل وجوردي لبعضهما متأثرَين وقال شارلي بعد تفكير عميق من فوق دَلو الفحم الذي يجلس عليه: «لقد سمعت كثيرًا عن هيكل عظميّ في المنزل لكنّني أعتقد أن قلّة من الناس لديهم هيكل

مكتبة ياسين

مفيد ومثير للاهتمام كهذا».

مكتبة ياسين

الفصل العشرون
تحت نبات الهدال

روز جعلت فيبي تقطع عهدًا على نفسها بإحضار جوربها إلى «الهودج» كما تطلق روز على غرفتها الجميلة في صبيحة الكريسماس، لأن تنقيبهما الأول الممتع عن الكنز سوف يفقد نصف سحره لو لم تجتمع تلك الرؤوس الصغيرة وتطلق صيحات الدهشة.

صاحت مديرة المنزل الصغيرة وهي تبتسم بمرح: «عيد ميلاد مجيد».

ردت الخادمة الصغيرة بحماسة لسماعها تلك المعايدة الرقيقة منها: «عيد ميلاد مجيد».

قالت روز وهي تجلس بين الوسائد وتنظر بشوق كالأطفال: «أحضري الجوارب في الحال يا فيبي ودعينا نرى ماذا لدينا».

زوج من الجوارب المكعبرة أُلقي على غطاء السرير، فُحصت محتوياته بسرور رغم أنّ محتويات كلّ واحد منهما معروفة بكلّ دقة. لا تهمّ طبيعة تلك المحتويات، فمن الواضح أنّهما إلى حدّ ما راضيتان. استلقت روز على ظهرها وقالت متنهدة بصوت عالٍ بنبرة تعبّر عن الرضا: «الآن امتلكت كلّ شيء أريده في العالم».

أجابت فيبي مبتسمة وهي تخفي على حفنة الكنوز: «هذا الكريسماس هو الأروع منذ ولدت». تنهّدت ثم أضافت: «أتمنى شيئًا آخر بعدما علمت أن هديتين في انتظاري خلف الباب».

مكتبة ياسين

صاحت روز متحمسة للغاية: «أوه، ما هذا الثراء؟»، ثم استطردت:

- «كم تمنيت زوجًا من الأحذية الزجاجية مثل حذاء سندريلا، لكن لا يمكنني الحصول عليها، أنا حقًا لا أعرف ماذا أطلب».

صفقت فيبي وهي تقفز من على السرير وتجري إلى الباب قائلة بمرح: «واحد منها مناسب لقدميك على أيّ حال، لا أعرف ماذا ستقولين للآخرين لكنّني أعتقد أنّه أنيق».

صاحت روز عندما رأت زوجًا من الزلّاجات وعربة تزلج جميلة: «العم أرسلها. كنت أعرف أنّه سيفعل. كنت قدأخبرته أنّني أريد التزلج، أليست جميلة؟ انظري كم هي مناسبة لي».

جلست روز على عربة التزلج الجديدة محاولة التزلج بقدميها العاريتين بينما تنظر فيبي معجَبة بجمال المنظر.

- «الآن يجب أن نسرع ونرتدي ملابسنا لأنّ هناك اتفاق علينا الالتزام به اليوم، ولا أريد أن يمرّ الوقت ولم أجرّب عربة التزلج خاصّتي قبل العشاء».

- «يا إلهي ينبغي عليَّ أن أنفض الغبار من حجرة الاستقبال في هذه اللحظات السعيدة».

افترقت مديرة المنزل عن الخادمة الصغيرة بوجهَين سعيدَين حيث إنّ كلًّا منهما عرفت كيف سيكون اليوم من دون أن يخبرهما أحد.

مكتبة ياسين

- «جاء بيرنام وود(70) إلى دنيسينان يا روزي»، قال الدكتور أليك وهو يترك طاولة الإفطار ويفتح الباب ليجد موكبًا من أغصان شجرة الأرز ونبات الشوكران(71) والهولي(72) يتحرّك على الدرج. بينما تتطاير كرات الثلج وعبارة «عيد ميلاد مجيد» بخفة لدقائق عدة، ثم انغمس الجميع في تنظيم المنزل القديم، فالعائلة تتناول العشاء مجتمعة في ذلك اليوم.

قال شارلي وهو يثبت فرعًا أخضر على الثريّا في حجرة الاستقبال الأماميّة: «لقد قطعت أميالًا وأميالًا كما يقول بن لأحضر هذه الأشياء اللطيفة، وسوف أعلّقها هناك كلمسة نهائيّة».

علّقت روز وهي تنظّف المدخنة بسائل تلميع: «إنه نبات جميل جدًا».

أجاب البرنس طويل اللسان محتفظًا بمكانه وناظرًا بعاطفة إلى الفتيات اللائي انسحبن على عجل من المكان الخطير: «بغضّ النظر عن ذلك، إنّه نبات الهدال وأيّ شخص يقف تحته سيحصل على القبلات سواء أحب ذلك أم لا، والآن دوركن أيّتها السيدات».

قالت روز بكبرياء كبير: «لن تمسك بي».

- «سترين إن كنت سأفعل أم لا».

قال ويل بلهجة متعالية جعلتهم جميعًا يضحكون: «أنا اهتمامي منصبّ على فيبي».

أجابت فيبي بلهجة أموميّة جعلت ويل يتجمد: «الله يبارك لك، لا أمانع ذلك مطلقًا».

مكتبة ياسين

غنّت روز: «أوه يا فرع الهدال».

ردّد كلّ الأولاد: «أوه يا فرع الهدال».

وانتهت المضايقات بالأغنية الحزينة التي أحبّها الجميع.

كان هناك متّسع من الوقت لتجربة الزلّاجات الجديدة قبل العشاء. وقد حصلت روز على درسها الأول في الخليج الصغير الذي بدا وكأنّه قد تجمّد من أجل أن تحظى روز بدرس جديد. كانت تقع وتنهض المرة تلو المرة، وكان الأمر ممتعًا في البداية. لكنّها عندما وجدت أنّ ستّة صبيان يعلّمونها قرّرت تدبّر أمرها بنفسها ووقفت وحيدة راضية بهذا النجاح. وقد أنعشت نفسها بعشرات الشواطئ الكبرى التي ستزورها بواسطة «الأمازون» كما تسمّي زلاجتها.

تذمّرت العمّة ميرا عندما رأت روز تنزل متأخرّة قليلا بخدود حمراء كالتوت الذي على الحائط وضفائرها مصفّفة بقدر ما استطاعت فيبي أن تصنع:

«آه، هذا اللون قاتل! إنّه يكسر قلبي عند رؤيته».

فقالت العمّة كلارا بارتياح كبير لحقيقة أنّ فستان روز الأزرق الحريري فيه ثلاث طبقات: «يسعدني أن أرى أن أليك سمح للطفلة المسكينة بالاعتناء بجمالها على الرّغم من كلّ قواعده السخيفة».

- «إنّها طفلة ذكية ولديها شخصيّة مستقلّة». قالت العمّة جين بحنان عميق، خاصّة وأنّها رأت روز للتّو تعطي ماك منديلًا ليحمي عينيه من ضوء المدفأة.

«إذا كان لدي ابنة كهذه تعتني بجيم عند عودته إلى

مكتبة ياسين

المنزل سأكون امرأة سعيدة ومخورة». هكذا فكّرت العمّة جيسي، وبعد ذلك وبّخت نفسها لأنّها لم تكن راضية تمامًا عن فتيانها الأربعة الشجعان.

كانت العمّة بلينتي منغمسة في تحضير العشاء، فلم تستطع الاهتمام بأيّ شيء آخر، ولو لم تكن كذلك لأدركت أثر قبعتها الجديدة على الأولاد. وقد كان غطاء رأسها الرائع من قماش التول مزيّنًا بشرائط لامعة لدرجة أنّ من يراها يتصوّر أنّ قطيعًا من الفراشات الصفراء حطّ على رأسها العزيز. حينما تروح وتجيء بين الحجرات، يهتزّ هذا النسيج، وتلك الشرائط الصغيرة تنتصب واقفة، والشرائط الملوّنة تتماوج محدثة صوت هواء مضحك للغاية، وهذا في حقيقة الأمر ضروريّ جدًا لأرشي الذي كان يحاول أن يخفي ضحكات الأطفال الصغار بالستائر.

العمّ ماك أحضر فن سي على العشاء، وكان جميلًا أنه فعل ذلك، فقد وجد الفتيان الكبار متنفّسًا لمرحهم في السخرية من الرّجل الصينيّ الصغير بسبب مظهره الذي تبدّل. إنّه الآن في زيّ أمريكي، حليق الرأس ويتحدث لغة إنكليزية فصيحة بعد أن تعلّم لستة أشهر في المدرسة. ومع ذلك، وجهه الأصفر وعيناه الصغيرتان اللامعتان أوجدوا تضادًا بينه وبين آل كامبل الشّقر. أطلق ويل عليه «التيفون» وتعني زعيم، وظلّ الاسم ملتصقًا به لدرجة سبّبت له إزعاجًا.

جاءت العمّة بيس وجلست على الكرسيّ الكبير عند رأس الطاولة، فهي لن تترك يومًا كهذا من دون

مكتبة ياسين

مشاركة الأسرة. جلست تبتسم لهم جميعًا كما لو كانت «تجسيدًا لمعنى السلام على الأرض» كما قال العمّ أليك عندما جلس بجوارها، وعند الطّرف الآخر جلس العمّ ماك بجوار العمّة بلينتي.

همس جوردي لويل بينما كان يتفحص تلك المائدة العامرة متنهدا بيأس: «حتى الآن لم أستطع التخلّص من فطوري، حتى إنّني فعلت كلّ شيء أعرفه لأجوع لكنّني حقًا لا أعتقد أنّني أستطيع تناول الطعام إلا إذا فككت الأزرار».

قال ويل وهو يهجم على طبقه الممتلئ وكلّه إصرار على أن يأتي على كلّ ما فيه مثل الرجال: «الواحد لن يعرف أبدًا ما الذي يمكنه فعله حتّى يتذوّق كلّ هذه الأصناف من المأكولات».

كلّ شخص يعرف ماذا يعني عشاء يوم الكريسماس، لذا ليس هناك داع لوصف هذا الحدث، لكنّنا سنصف نهاية هذا اليوم على عجل. بالمناسبة كانت النهاية طويلة جدًا لدرجة أن المصابيح قد أضيئت قبل انتهاء تناول الحلوى لأنّ موجة ثلج هبّت وتلاشى ضوء النّهار الشتويّ بسرعة، غير أنّ تلك الأجواء جعلت كلّ شيء مبهج أكثر، ودافئ أكثر، غرف مشرقة ممتلئة بالأرواح السعيدة.

كان الجميع سعداء للغاية، لكن أرشي كان في حالة سموّ خاصة لدرجة أن تشارلي أسرّ لروز أنّه يخشى أن يكون أرشي قد أسرف في الشراب. أنكرت روز تلميحه لأنّهم عندما كانوا يتناولون الأنخاب على الطريقة

مكتبة ياسين

القديمة ليبدو كالكبار، لاحظت أنّ أبناء العمّة جيسي يملأون كؤوسهم بالماء، وكذلك فعلت هي على الرغم من النكات التي أطلقها البرنس كالسكران مناديًا: «يا روزي».

لكنّ أرشي بالتحديد كان متحمسًا بشكل غير عاديّ حينما تذكّر أنّ هذا اليوم هو ذكرى زواج العم جيم. تمنّى لو كان العم موجودًا ليلقي خطابًا في هذه المناسبة، غير أنّه قرّر أن يعوّض غيابه ويحاول إلقاء خطاب وهو ما أثار إعجاب العائلة. كان إلى حدّ ما خطابًا غير متماسك لكنّه منمّق كأولى الخطابات لكنّ النهاية كانت رائعة عندما وجّه الخطاب إلى أمّه مع غصّة بسيطة غريبة في صوته. قال إنّها «تستحقّ أن تكون سعيدة مع بيس وبلينتي وأن تُتوَّج بالورود وبحبّ الفتيان، وأن تحظى بأطنان من الفرح كلّ يوم في منزلها لأنّها أدخلت جيم الذي كان بمثابة جوهرة أخرى أضافتها إلى العائلة».

ذلك التلميح للقبطان الآن وهو في رحلة العودة، جعل السيدة جيسي تنتحب في منديلها وجعل الأولاد يهتفون، ثم، وكأنّ ذلك لم يكن كافيًا، اندفع أرشي فجأة خارج الغرفة كما لو كان قد فقد سلامة عقله.

قال تشارلي محاولًا أن يفسّر ما يجري: «هيا، مخجل أن تبقى خارجًا بينما يمدحك الآخرون».

صاحت روز مركّزةً نظرها بقوّة على الباب: «لقد رأيت فيبي تشير إليه».

سأل جيمي عندما بدا أخوه متحمّسًا أكثر من أيّ

مكتبة ياسين

وقت مضى: «هل هناك المزيد من الهدايا في الطريق؟».

- «أجل، إنّها هدية لأمّي، وها هي».

صاح أرشي وهو يفتح الباب على مصراعيه ليدخل رجل طويل ويقول:

- «أين سيدتي؟ أوّل قبلة لها وسوف أقبّل الباقي بعد ذلك».

وقبل أن تخرج الكلمات من فمه كانت السيدة جيسي نصف مختبئة تحت معطفه الكبير الخشن، والصبيان الأربعة يقفزون حوله يطالبون بدورهم.

بالطبع كان هناك صخب مفرح لبعض الوقت، وأثناء ذلك انزلقت روز داخل تجويف النافذة لتشاهد ما يحدث كما لو أنّه فصل في قصة الكريسماس. كان من الجميل رؤية خدعة العم جيم وهو ينظر بفخر لابنه الطويل ويعانق الصغار باعتزاز. من الجميل رؤيته يصافح أخوته كما لو أنّه لم يتركهم، ويقبّل أخواته بطريقة جعلت العمّة ميرا المهيبة تشرق في هذه اللحظة.

لكنّ الأفضل من هذا كلّه رؤيته أخيرًا وهو جالس على كرسيّ الجدّ الأكبر، و«سيدته» بجانبه وأبناؤه الثلاثة في حجره وأرشي يحوم فوقه كملاك طفل جميل. وهذا ما حدث بالفعل كما يقول تشارلي: «منظر طبيعي مفرح للقلب».

- «كلّ ما أمتلكه وأحبّه هنا، الحمد لله».

كان هذا أول ما قاله القبطان جيم عندما جلس وهو ينظر حوله بوجه شاكر.

مكتبة ياسين

- «الكلّ هنا ما عدا روز». قال جيمي الصغير المخلص لروز وهو يتذكّر الغائب.

القبطان الذي لم يرها منذ كانت طفلة رضيعة، سأل: «يا الهي! لقد نسيت الطفلة! أين هي فتاة جورج الصغيرة؟».

قال العمّ ماك الذي أعلن أنّه يغار من أخيه بجنون: «ربما من الأفضل أن تقول فتاة أليك الكبيرة».

ظهرت روز من وراء الستائر كما لو أنّها موجودة من أول لحظة: «أنا هنا يا سيّدي».

صاح القبطان جيم: «يا الله! كم كبرت العنّة!». ودفع الأولاد من حجره ونهض ليحيّي الفتاة الطويلة كرجل مهذّب كما هو دائمًا. لكن بطريقة ما عندما صافحها بدت يدها صغيرة بالنسبة لحجم يده. وذكّره وجهها بوجه أخيه الراحل كثيرًا وأنّه لم يكن ليرضى بترحيب بارد كهذا، انحنى فجأة وحملها بين ذراعيه وخدّه الخشن على خدّها الناعم، وهو يهمس:

- «بارك الله فيك أيتها الطفلة، سامحيني لو نسيتك للحظة، وتأكّدي أنّ لا أحد من أقاربك هنا تسعده رؤيتك أكثر من عمّك جيم».

هذا الكلام أعجبها وجعل كلّ شيء على ما يرام، وعندما وضعها كان وجه روز مشرقًا فكلامه أنساها إهمال وجودها الذي جعلها حزينة تختبئ خلف الستائر.

جلس الجميع واستمعوا إلى رحلة عودته إلى المنزل، وكم كان القبطان حريصًا على تمضية الكريسماس معهم،

مكتبة ياسين

ومع أنّ الظروف تآمرت عليه لتعيق نجاح خطّته، فقد ظلّ حتى آخر لحظة يعمل على الوصول في هذا الوقت، وقد أرسل برقيّة لأرشي يأمره بأن يحفظ السّرّ ويكون جاهزًا من أجل أبيه في أيّ لحظة، فقد تعطّلت السفينة قليلًا في ميناء آخر وقد يتأخر في عودته.

ثم أخبرهما أرشي كيف أنّ تلك البرقية ظلّت في جيبه طوال وقت العشاء، وكيف كان عليه أن يثق بفيبي، وكم كانت ذكية بأن جعلت القبطان يختبئ في الخلف حتى ينتهي أرشي من الخطبة، فيدخل بطريقةٍ مفاجئة ليترك أثرًا أكبر.

جلس الكبار يتحدثون طوال المساء، لكنّ الشباب كانوا مصمّمين على قضاء الكريسماس بمرح كما اعتادوا على ذلك في هذه المناسبة. هكذا، بعد ساعة من محادثة ممتعة بدأوا يشعرون بالملل وتشاوروا معًا في عرض صامت واخترعوا طريقة استطاعوا من خلالها تفكيك هذا الاجتماع الجادّ.

اختفى ستيف، وفي وقت أقرب مما يتصوّر الأولاد، استيقظ داندي وسمع صوت «مزمار القربة»(7.3) عاليًا في الصالة، وجاء النافخ الجميل القويّ ليقود كلّ آل كامبل إلى حفلة في الخارج.

- «اسحبها بلطف يا ستيف... أيّها الرجل، أنت تعزف لحنًا غريبًا لكنّك تفعل ذلك بصخب شيطانيّ مزعج»، صاح العمّ جيم ويداه على أذنيه فقد كان الأمر جديدًا عليه و«فاجأه الصوت بعنف» على حدّ تعبيره. لذا أخرجَ ستيف مزمار القربة بهدوء قدر استطاعته

مكتبة ياسين

والأولاد صنعوا دائرة لأداء رقصتهم الشعبيّة.

كان القبطان جيم بحّارًا حقيقيًّا، ومع ذلك لا يمكن أن يقف مكتوف الأيدي عندما يحصل شيء مفعم بالحيوية. لذا عندما انطلق نافخ المزمار في لحنه، جرى مادًّا ذراعيه كجناحي طائر رائع ووقف في منتصف الصالة قائلا: «من يستطيع أن يرقص للأمام وللخلف»(74)؟. ولم ينتظر ردًا، بدأ يصفر بشكل ممتع حتّى إنّ السيدة جيسي جلست تضحك كفتاة صغيرة. روز وتشارلي التزما مكانيهما في الخلف، وذهب الأربعة الباقون بعيدًا بروح ومهارة ألهمت البقيّة «للاقتحام» بأسرع ما يمكن.

كانت تلك بداية رائعة، وكان لديهم العديد من الرّقصات الأخرى قبل أن ينال التّعب من أيّ منهم. حتّى فن سي أعجب بالعمّة بلينتي واعتبرها السيّدة الأكثر شجاعة بين تلك الصّحبة، فالسمنة تعتبر من صفات الجمال في بلده. اعترفت الرّوح العجوز المرحة بأنّها شعرت بالإطراء الشديد بإعجابه، وصرّح الصّبية أنّها «وضعت قبعتها عليه» وما كان ليجرؤ على أن يلحق بها تحت الهدال وينهض على أطراف أصابع قدميه ليحيي بشجاعة خدّها السمين.

لقد ضحكوا جميعًا على دهشتها، وعلى الطريقة الّتي كانت تومض بها عينا فن سي الصغيرتان السوداوان على هذا الحدث. أما تشارلي فقد كان مصمّمًا على الإمساك بروز، وقد وضع لها كلّ أنواع العثرات ورشي الفتيان الآخرين لمساعدته. لكنّ روز كانت واعية تمامًا

مكتبة ياسين

ونجت من كلّ فخاخه بينما تنظر باحتقار شديد لهذه العادات الحمقاء.

مسكينة فيبي لم تستطع أن تعرف كيف تتعامل مع الموقف. وكان أرشي هو الوحيد الذي استفاد من ذلك بشكل أساسي عندما كانت تقف ببراءة تقدّم الشاي للعمّة ميرا التي تصادف أنها كانت تحت الغصن القاتل.

لم يكن قد انزعج من وصول أبيه، لا شكّ في أنّ هذا الرئيس المحترم كان سيفعل ذلك لأنّه اعتذر في الحال بأفضل طريقة، وأمسك بالصينية التي كادت تسقط من يد فيبي.

دعا جيمي بجرأة جميع السيدات للحضور وإلقاء التحيّة عليه، أما العمّ جيم فقد كان يتصرّف كما لو كانت الغرفة بأكملها بستانًا من الهدال. وضع العمّ أليك القليل منه على قبعة العمّة بيس ثم قبّلها بهدوء، بدت النكتة الصغيرة تسعدها كثيرًا لأنّها كانت تحبّ أن يكون لها نصيب من حالة المرَح التي تسود المنزل، وكان أليك ابن أخيها المفضّل. تشارلي وحده فشل في اصطياد طائره المخجول، وفي كثير من الأحيان، كلما هربت منه صار أكثر تصميمًا على إيقاعها في شرك. وعندما فشلت كلّ الحيل، جعل أرشي يقترح لعبة «الغَرامات».

«أنا أفهم تلك المراوغات»، قالت روز لنفسها، وكانت على أهبة الاستعداد للهروب في أيّ لحظة لأنّها تعلم جيدًا أن لا أحد من أولئك الصبية سيدافع عنها.

قال ويل غير مدرك للمؤامرات العميقة التي تدور حوله: «الآن دعونا نعوّضهم ونلعب شيئًا آخرًا».

مكتبة ياسين

أجاب البرنس الذي كان ينصب فخًّا جديدًا: «جولة أخرى ثم سنفعل ذلك».

بمجرد طرح السؤال على روز، انطلق صوت جيمي في الصالة في بكاء مرير وهو يصرخ: «أوه، تعالي يا روز بسرعة، بسرعة». ذهبت روز إليه وقد فاتها السؤال فلم تعرف الجواب، واستقبلها جيمي وهو يصرخ «غرامة! غرامة!»، فقد انضمّ الخائن الصغير الآن إلى المتآمرين.

«الآن حاصرتها»، فكّر الوغد الصغير وهلّلت روحه المحبّة للدّعابة. لكنّ روز، بعد أن فقدت دبابيسها، وجّهت إليه نظرة تحدٍّ صارم كان من شأنها أن تخيف أيّ شخص عدا البرنس المتهوّر. ومع ذلك جعلته يفكر مرتين ثم يقرّر أن يدع روز، فقد كانت ماهرة جدًا.

- «هذا رهن جميل جدًا، أيّ شيء عليَّ فعله لاسترداده؟».

سأل ستيف ممسكًا بدبابيس روز من فوق رأس تشارلي، لأنّه كان قد أصرّ على أن يكون الحكَم بينهما، وبهذا احتفظ لنفسه بالدبابيس.

- «شيء رائع أم بالغ الروعة؟».

- «بالغ الروعة».

- «حسنًا، سوف يكون عليها أن تأخذ ماك العجوز تحت الهدال وتقبّله على نحو جميل، فما رأيك، ألن يغضب؟».

ضحك هذا الولد الشرّير لأنّه تسبّب في إزعاج شخصين غير مؤذيين.

مكتبة ياسين

كانت حالة من التأثّر تسود بين الصغار في ركنهم، فجميعهم يعلمون أنّ ماك سيكون «غاضبًا» لأنّه يكره هذا النّوع من الهراء وقد ذهب للتّحدث مع الكبار عندما بدأت اللّعبة. وفي هذه اللّحظة كان يقف بجوار المدفأة يستمع إلى مناقشة، وتبدو عليه الحكمة كبومة صغيرة وهوغير واعٍ تمامًا بالمؤامرات ضده.

توقّع تشارلي أنّ روز ستقول: «لن أفعل». لذلك كان بالأحرى مندهشًا وليس ممتنًا. وبعد نظرة إلى الضحيّة، ضحكت فجأة وذهبت إلى مجموعة من الرجال المهذّبين وسحبت عمّها تحت الهدال وفاجأته بقبلة حماسية.

قال الرجل المهذّب البريء الذي بدت عليه السعادة بهذا الشرف غير المتوقع: «شكرًا لكِ يا عزيزتي».

قال تشارلي: «أوه، هذا ليس عدلًا».

لكنّ روز قاطعته بشكل لطيف قائلة: «أنت قلت 'ماك العجوز' لاعتقادك بأنّه فعل غير محترم إلا أنّني فعلته. تلك كانت فرصتك الأخيرة وقد فقدتها».

- «بكلّ تأكيد أضاع فرصته، وعندما كان يتحدّث سحبت روز الهدال وألقته في المدفأة بينما كان الصبية يسخرون من البرنس المكتئب ويمجّدون روز الذكية جدًا».

سأل ماك الصّغير وهو يتمشّى بجوار مكتب بنّي وينضم للضّحك الذي التحق به الكبار: «ما هي المزحة؟».

لكن كان هناك صراخ متواصل وعندما تمّ شرح الأمر له، نظر ماك إلى روز متأمّلا من خلال نظارته

مكتبة ياسين

وقال بلهجة فلسفية: «حسنًا، لم يكن عليّ أن أهتمّ كثيرًا حتّى وإن فعلها».

كان ذلك يدغدغ الفتيان بشكل كبير، ولا شيء سوى مظهره جعلهم يتوقّفون عن ممازحة تلك «الدودة المسكينة» الذي لم ير أيّ شيء مضحك في الاستسلام الذي ظهر عليه في هذه المناسبة العصيبة.

بعد وقت قليل، اكتُشف جيمي ممدّدًا على أريكة في الركن نائمًا كالزغبة. اقترح الجميع العودة إلى المنزل واتخذوا خطوة بالفعل تجاه تحقيق ذلك. كانوا جميعًا يقفون في الصالة، يتباطؤون في مشيهم مستمتعين بتلك الليلة من الليالي السعيدة حينما غنّى صوت رقيق أغنية «البيت السعيد» فتوقفوا واستمعوا. كانت فيبي، المسكينة فيبي الصغيرة، التي لا تملك بيتًا ولا تعرف حبّ الأب أو الأم، ولا الأخ أو الأخت، تقف وحيدة في هذا العالم الواسع، ومع ذلك ليست حزينة أو خائفة بل استقبلت القليل من السعادة بامتنان وغنّت وهي تخز عملها من دون سخط.

أتخيّل أنّ العائلة السعيدة التي تقف هناك معًا تذكرت هذا وشعرت بجمال تلك اللّحظة، فحينما بلغ مسامعهم هذا الصوت المنفرد بكلّ ما يحمله من عاطفة في هذه الأغنية، أكملت الأصوات كلّها الأغنية برقّة وعذوبة. بدا البيت القديم كما لو أنّه صدى لكلمة «بيت» في آذان كلّ من الفتاتين اليتيمتين اللّتين قضتا للتوّ أوّل كريسماس لهما تحت سقفه الدافئ.

مكتبة ياسين

الفصل الواحد والعشرون

الذعر

قالت السيدة ميرا وهي تنظر داخل المكتب الذي يجلس عليه الدكتور يقرأ جريدته في صباح أحد أيام فبراير: «أخي أليك، أنت بالتأكيد لا تقصد السّماح لتلك الطفلة بالخروج في يوم شديد البرودة كهذا».

أجاب الدكتور أليك بثقة مطلقة: « لمَ لا؟ إذا كانت مريضةً حسّاسةً مثلك لن يمكنها تحمّل هكذا برودة، أما فتاتي البطلة فبالتأكيد يمكنها تحمّلها خصوصًا وأنّها ترتدي ملابس تناسب الطقس البارد».

ردّت العمّة ميرا وهي تحكّ أرنبة أنفها البنفسجية بقفازها الداكن: «لكن ليست لديك أيّ فكرة عن قسوة الرّياح، إنّ البرد يخز عظامي».

- «لا أشكّ في ذلك يا سيّدتي إذا كنتِ ترتدين الكريب والحرير بدلًا من الفرو والفانيلا. من عادة روز أن تخرج في كلّ أنواع الطقس ولن يكون أسوأ من ساعة تزلج تنطلق فيها مسرعةً».

تذمّرت العمّة ميرا وهزّت بيأس قبعتها الكبيرة: «حسنًا، أحذّرك بأنّك تتلاعب بصحّة الطفلة وتعتمد كثيرًا على التحسّن الظاهر الذي حققته هذا العام. إنّها مخلوقة حسّاسة بالرغم من كلّ ذلك، وسوف تسقط عند أول هجوم جدّي كما حدث لأمّها المسكينة».

قطّب الدكتور أليك جبينه كما يفعل دائمًا عندما يكون الكلام حول روز، وردّ على العمّة: «أقبل تلك

مكتبة ياسين

المخاطرة».

- «تذكّر ما أقوله لك الآن، سوف تندم عليه».

وبهذا التنبّؤ الفظيع غادرت العمّة ميرا مثل الظلّ الأسود.

الآن يجب الاعتراف أنّه من بين إخفاقات الطبيب، هذا الكره الذكوريّ للنّصح الذي وجّه إليه. هو دائمًا يستمع باحترام للعمّات الكبيرات وغالبًا يستشير السيدة جيسي، لكنّ السيدات الثلاث الأخريات ذقْنَ نفاد صبره بعد تحذيرات مستمرّة وشكاوى وإرشادات. العمّة ميرا على وجه الخصوص، يفعل عكس كلامها من أوّل كلمة إلى آخر كلمة. لم يستطع أن يتحكّم بنفسه، ودائمًا ما يسخر من كلامها علانية.

ما حدث الآن عيّنَة على ذلك. لقد كان يفكّر للتّو في أنّه من الأفضل لروز أن تؤجل خروجها حتّى تهدأ الرياح ويصبح الجوّ أكثر دفئًا، لكنّ العمّة ميرا تحدّثت فلم يستطع مقاومة نفسه في الاستهانة بنصيحتها وترك روز تتحدّى البرد. لم يكن لديه خوف من أن يؤذيها البرد لأنّها كانت تخرج كلّ يوم، وكان من دواعي سروره أن يراها تجري في الطريق وزلاجتها فوق ذراعها فتشبه سكان الأسكيمو في بذلة مصنوعة من الجلد الطبيعي بينما تبتسم للعمّة ميرا وتتبختر بثقة كالغراب.

بعد نصف ساعة بينما كان يقود عربته ليرى المرضى القلائل الذين وافق على معاينتهم كرمى لمعرفة قديمة، فكّر الدكتور أليك: «آمل ألّا تبقى الطفلة في الخارج طويلا، فهذه الرياح كفيلة بأن تجعل البرد يخترق

مكتبة ياسين

عظام الطفلة أكثر ممّا يفعل مع عظام العمّة ميرا».

شغلت تلك الفكرة رأسه عدّة مرات في ذلك الصباح لأنّه كان حقًا يومًا صعبًا. فهو نفسه، وبرغم معطفه الجلديّ، كان يرتجف. لكن كان لديه أيضًا إيمان كبير بحسّ روز الجيّد، إذ لم يحدث أنّها تصرفت مرّة مثل (كازابيانكا) (75) على الرغم من اختلاف الحالتين، ذلك أنّ روز تتزلج على الجليد بينما كازابيانكا كان يحترق في مكانه.

كان ماك قد اتّفق مع روز على موعد ومكان لمقابلتها ولعب مباراة تزلج بعد أن ينتهي من دروسه. لقد وعدته أن تنتظره، وفعلت ذلك بإخلاص كلّفها كثيرًا لأنّ ماك نسي موعده. فبعد أن أنجز دروسه انغمس في تجاربه الكيميائية حتّى حدث حريق نتج عن الغازات وتسبّب في إخراجه من المختبر. عندها تذكّر روز فجأةً وكان سيسرع إليها بكلّ سرور، لكنّ أمّه نهته عن الخروج لأنّ برودة الرّياح الحادّة ستؤذي عينيه.

- «سوف تنتظر وتنتظر يا أمي. إنّها تلتزم بكلمتها دائمًا وأنا قلت لها أن تنتظر حتّى أجيء». أوضح ماك وهو ينظر إلى الأشكال الصغيرة التي يراها مشوّشة على قمّة التلّ.

- «بالتأكيد لن يسمح لها عمّها بالخروج في يوم عاصف كهذا، ولو فعل ذلك سوف يدفعها إحساسها للمجيء إلى هنا من أجلك، أو ستعود إلى المنزل عندما لا تظهر أنت».

مكتبة ياسين

علّقت العمّة جين وبدا كلامها منطقيًا.

قال ماك بقلق: «أتمنى لو أنّ ستيف يذهب لملاقاتها لأنني لم أستطع أن أذهب».

ردّ داندي الذي عاد للتّو من المدرسة بينما يحاول خلع حذاءه: «ستيف لن يبرح مكانه، شكرًا لك. أصابع قدميه تتجمّد ويريد أن يتناول عشاءه».

أذعن ماك لكلام أمّه. لكنّ روز انتظرته بإخلاص حتّى موعد العشاء. بذلت قصارى جهدها لتبقى دافئة، ظلّت تتزلج حتى تعبت، مرضت، ثم وقفت تشاهد الآخرين حتّى أحسّت أنّ البرد يخترق مسامها. حاولت الحصول مرة أخرى على الدفء عن طريق الهرولة للأعلى وللأسفل في الطريق لكنّها فشلت، وأخيرًا استراحت متعبةً تعسة تحت شجرة صنوبر تنتظر وتراقب. إلّا أنّ عدم ظهور ماك أكّد لها أنّ انتظارها كان عبثًا.

حينما فكرت في العودة إلى المنزل في آخر المطاف كان البرد قد خدّرها، وبالكاد استطاعت أن تشقّ طريقها عكس الرياح التي تُجمّد الزهور في هذا الصقيع الذي لا يرحم.

كان الدكتور أليك يستمتع بالدفء بجوار المدفأة بعد عودته عندما سمع صوت بكاء خانق جعله يهرول ناحية الباب وينظر بقلق في الصالة. رأى روز على الدّرج مع نصف أشيائها ترتجف، تفرك يديها لتدفئ أصابعها النصف مجمّدة وهي تحاول ألّا تبكي.

أخذها العم أليك بين ذراعيه: «عزيزتي، ما الذي

مكتبة ياسين

- «ماك لم يأتِ، وأنا أشعر ببرد شديد. لا أستطيع الاقتراب من المدفأة لأنّ هذا يجعلني أشعر بالألم. عندما احتضنها عمّها انفجرت روز بالبكاء بينما كانت أسنانها تصطك وتلوّن أنفها المسكين باللّون الأزرق الداكن لدرجة تجعل قلب المرء يتألّم لرؤيتها».

بسرعة قام الدكتور أليك بتمديدها على الأريكة في الصّالة ولفّها في معطف جلد الدبّ وراح يفرك يديها اللتين تؤلمانها بينما قامت فيبي بفرك قدميها الباردتين. العمّة بلينتي صنعت لها شرابًا دافئا مريحًا والعمّة بيس أرسلت جوربها الفرو وبطانية مطرزة «من أجل الغالية».

شعور العم أليك بالنّدم جعله يهتمّ بمريضته حتّى أعلنت أنّها بخير مرّة أخرى. لم يسمح لها بالنهوض من أجل تناول العشاء. لقد أطعمها بنفسه، ونسي طعامه وهو جالس يشاهدها بينما تسقط في النوم لأنّ مشروب العمّة بلينتي جعلها تشعر بالنعاس.

مع أنّها استغرقت في نوم عميق، بقي العم أليك إلى جانبها لأنه كان خائفًا من أن تصاب بالحمّى خاصّة أنّ تنفسها كان سريعًا وغير منتظم، وبين الحين والآخر كانت تتأوه قليلًا وكأنّها تتألم.

أيقظتها العمّة بلينتي وهي تخفي فوقها، فرفعت روز ذراعيها كطفلة مريضة تتمسّك برقبتها وسألتها: «من فضلك، هل يمكنني الذهاب إلى السرير؟»».

مكتبة ياسين

أجابت السيدة العجوز بفرح بعدما أحسّت بأنّ خبرتها أهّلتها لإعطاء أوامر: «إنّه أفضل مكان لكِ الآن يا عزيزتي، خذها إلى غرفتها يا أليك. لقد أعددت الماء الساخن لها وبعد الاستحمام ستشرب كوبًا من شاي المريميّة(76) الخاص بي وتُلفّ في بطانية بعيدًا عن البرد».

سألها العم أليك وهو يحملها إلى الطابق العلوي: «هل تتألمين يا عزيزتي؟».

همست روز ويدها الصغيرة الساخنة على خدّه: «أشعر بالألم في جنبي عندما أتنفس وأشعر بتَيبس غريب، لكنّ وضعي ليس بهذا السوء لذا لا تقلق يا عمّي».

لكنّ الطبيب المسكين بدا مضطربًا ولديه سبب لذلك. حاولت روز أن تضحك على دوللي حينما اقتحمت الحجرة ممسكة بـ«مدفأة السرير»(77)، لكنّها اضطرّت لوضعها على الأرض بسبب الحرارة والألم الذي شعرت به نتيجة حملها وتعرّضها للنار وهو ما جعلها تصرخ.

تنهدت العمّة بلينتي التي تعدّ حوض الاستحمام: «(إنه التهاب الجنبة)(78)».

تأوّهت دوللي وهي تزيح أغطية الفراش لتضع مدفأة السرير ذات المقبض الطويل كما لو كانت عازمة على اصطياد هذا المرض الغادر: «التهاب رئوي!».

سألت فيبي وكادت تُسقط سطلًا من الماء الساخن من الفزع لأنّها لا تعرف شيئًا عن المرض: «هل هذا

مكتبة ياسين

خطير؟»». فقد روّعتها كلمات دوللي وطريقة لفظ اسم المرض.

- «هشش»».

أمرهم الطبيب بالسكوت، فسكتت كلّ التنبؤات وجعلت الجميع يعملون بهمّة. ثمّ أضاف عندما بات الحمّام جاهزًا والبطّانية تخزّن الدفء: «بعد أن تنهي الحمام، وتصبح في سريرها أخبروني. سآتي لأتمنى لها ليلة سعيدة»».

نزل يمشي ذهابًا وإيابًا في الصالة، ثم ذهب للتحدّث إلى العمّة بيس شارحًا أنّ ما تمرّ به روز هو «فقط برد»»، رغم أنّه كان يشدّ لحيته ويقطّب جبينه، وهي علامات لا تخفى على العمّة وتؤكّد على اضطراب كبير بداخله.

- «أعتقد أنه من الحظ السعيد للغاية تجاوز العام من دون سقوط. أنا ألعن حماقتي! لماذا لم آخذ بنصيحة ميرا وأبقي روز في المنزل. ليس من العدل أن تعاني الطفلة بسبب ثقتي المفرطة الخاطئة. ينبغي ألّا نتألم، التهاب رئوي! حقًا! أنا أتحدّى ذلك»».

ثم هز قبضته في وجه تمثال هنديّ قبيح تصادف وجوده أمامه كما لو أنّ هذا الإله البشع لديه عداء مضمر تجاه إلهته الصغيرة التي يؤمن بها.

بالرغم من تحدّيه ذاب قلبه عندما عاد ليرى روز مرة أخرى، فقد رأى أنّ الألم أسوأ، وأنّ الاستحمام والبطاطين ومدفأة السرير وشاي المريمية الساخن... كلّ

مكتبة ياسين

ذلك كان عبثًا.

لساعات عديدة لم تنعم الطفلة المسكينة بالراحة وراحت الوساوس تهاجم عقول مَن في البيت وهم يحومون حولها بوجوه مليئة بالقلق الشديد. وفي وسط اشتداد حدّة أعراض المرض، جاء تشارلي برسالة من أمّه وقابلته فيبي على السلم وهي تنزل بيأسٍ وفي يدها لاصقة الخردل التي لم تجلب أيّ راحة.

- «ما الذي يحدث؟ تبدين كئيبة كشاهد قبر».

تكلّم بينما كانت فيبي تشير له بيدها لتوقفه عن التصفير.

- «الآنسة روز مريضة للغاية».

- «إنّها الشيطان بعينه».

- «لا تقل ذلك يا سيد تشارلي، إنّها غلطة ماك».

وأخبرته فيبي بالقصّة الحزينة بكلمات قليلة حادّة لأنّها شعرت بالغضب الشديد من كلّ الأولاد في تلك اللّحظة.

قالي تشارلي بإشارة من يده: «سأخبره بنتيجة تصرّفه، وأرجوكِ لا تبالغي في ردّة فعلك».

أضاف بقلق بينما تهرول العمّة بلينتي في الصالة العلويّة وهي تخضّ زجاجة في يدها بعنف: «لكنّ مرض روز ليس خطيرًا، أليس كذلك؟».

أجابت فيبي بلمحة يائسة للاصقة: «أوه، للأسف الأمر كذلك. لم يقل الدكتور الكثير لكنّه لم يسمّه «بردًا»

مكتبة ياسين

على الإطلاق. إنّه «التهاب الجنبة»، الآن أنا أخشى من أن يكون (التهاب راؤوي) (٧٩) غدًا.»

انفجر تشارلي في ضحكة خانقة على النطق الجديد لـ(الالتهاب الرئوي) ممّا أثار سخط فيبي الشديد. فقالت بلهجة تراجيدية والشّرر يخرج من عينيها السوداوين: «كيف طاوعك قلبك أن تضحك وهي في مثل هذا الألم الرهيب. اصغ لذلك الصوت ثم اضحك إذا كنت تجرؤ».

أنصت تشارلي فسمع أنينًا ضعيفًا. تتبّع الأنين محاولًا أن يجعل وجهه رصينًا مثل فيبي.

- «أوه، يا عمّي أرجوك أوقف هذا الألم ودعني أرتاح لدقيقة، لا تخبر الأولاد أنّني لم أكن شجاعة. أنا أحاول أن أتحمّله لكنّه ألمٌ قويٌ جدًا ولا يسعني إلا البكاء».

عندما سمع تشارلي هذا الصوت المنكسر، تلعثم: «لكن.. ولد.. يحب...». لم يستطع أن يُكَوّن جملته، وقال بغضب وهو يدعك عينيه بأكمامه: «أبعدي هذا الشيء المقيت من تحت أنفي، الخردل يؤذي عينيّ».

قالت فيبي غير مخجلة من دموعها المنسابة بسبب رائحة تلك اللاصقة التالفة: «ألا ترى كيف تبدو هذه اللاصقة، فهي لن تعطي مفعولًا لأكثر من مرة واحدة كما قال الدكتور، وأنا ذاهبة أبحث عن واحدة أفضل».

- «سوف أذهب». وغادر تشارلي كالرصاصة. وقد أراحه ابتعاده عن الأنظار لبضع دقائق.

عاد متخلّصًا من كلّ المشاعر التي أزعجته وأعطاها

مكتبة ياسين

صندوقًا من أفضل أنواع الخردل التي يمكن الحصول عليها، وغادر «ليؤنّب» ماك، فهو يرى أنّها مهمّته القادمة.

فعل ذلك بقوة وغضب لدرجة أنّ «الدودة المسكينة» شعر باليأس وندم من أعماق قلبه. حتّى إنّه ذهب إلى سريره شاعرًا أنّه منبوذ من بين الرجال ويستحقّ «علامة قابيل»(80) على حاجبه.

بفضل مهارة الطبيب وتفاني مساعديه، تحسّنت حالة روز في منتصف الليل وكان الجميع يأمل أن ينتهي السوء. فيبي تعدّ الشاي داخل مدفأة المكتب، ولأنّ الدكتور نسي أن يأكل أو يشرب منذ أن مرضت روز، أصرّت العمّة بليني أن يتناول «كوبًا من الشاي المنعش» بعد كلّ ما فعل.

سمعت فيبي نقرة على النافذة فنظرت إلى الأعلى ورأت وجهًا يحدّق في الداخل. لم تكن خائفة، فبعد لحظة اتضح لها أنّه ليس شبحًا ولا لصًا إنّما هو ماك الذي بدا شاحبًا في ضوء القمر الشتويّ.

قال بصوت خفيض: «أرجوكِ، افتحي ودعيني أدخل»، وعندما وقف في الصالة أمسك بذراع فيبي هامسًا بتجهّم: «كيف حال روز؟».

أجابت فيبي بابتسامة كانت بمثابة أشعة شمس غامرة لقلب الفتى المسكين القلق: «شكرًا لله، إنّها أفضل».

- «وهل ستكون بخير غدًا؟».

ردّت فيبي وهي تحرص على نطق الكلمة بشكل صحيح

مكتبة ياسين

هذه المرة: «أوه يا عزيزي، لا.. لا.. تقول دوللي إنّها متأكدة أنّ روز ستصاب بحمى روماتيزم إن لم يصبها التهاب رئوي».

امتقع وجه ماك وتسرّب إليه الندم مرة أخرى فأخذ نفَسًا عميقًا وقال بريبة: «أظنّ أنّني لن أستطع رؤيتها».

- «بالطبع لا، خاصّة في هذا الوقت من الليل الذي نأمل أن تنال فيه قسطًا من النوم».

ما كاد ماك يفتح فمه لينطق بشيء حتّى داهمته عطسةٌ انطلقت بصوت عالٍ بدّد صداه هدوء البيت.

قالت فيبي تؤنّبه: «لماذا لم توقف عطستك؟ لا بدّ أنك أيقظتها».

تأوّه ماك وقال: «لم يكن ذلك بإرادتي، إنّه سوء حظّي!». واستدار ليغادر قبل أن يتسبّب وجوده المؤسف بالمزيد من الضرر. لكن سمع صوت من الأعلى يقول بهدوء: «ماك، تعال روز تريد أن تراك». فصعد السلم فورًا.

سأله الدكتور بهمس: « لماذا جئت إلى هنا في هذه الساعة يا ولدي؟».

قال بوجه وصوت مضطربين: «لقد كانت غلطتي وإن ماتت سأكون السبب في موتها. لم أستطع النوم، لذا جئت لأعرف كيف حالها ولا يعلم أحد بمجيئي سوى ستيف».

غير أنّ الدكتور لم يطاوعه قلبه على تأنيبه. وقبل أن يتمكن من قول شيء آخر، ناداه صوت ضعيف:

مكتبة ياسين

«ماك».

دعاه الدكتور ليدخل الحجرة. وبسرعة قال له: «ابق دقيقة من أجل إرضائها ثم غادِر بعدها لأنّني أريدها أن تنام».

بدا وجهها على الوسادة شاحبًا جدًا وطفوليًّا، والابتسامة التي رحّبت بها بماك كانت خافتة جدًا لأنّها كانت تتألم، غير أنّها تحدثت مع ابن عمتها.

- «أعرف عطستك المضحكة وخمّنت أنّك جئت لتطمئن على صحّتي رغم تأخّر الوقت. لا تقلق، أنا أشعر بالتّحسن الآن ومرضي غلطتي أنا وليس لك فيه ذنب، فأنا لم أكن بحاجة لأكون بتلك السخافة وأنتظر كلّ تلك المدّة في ذلك البرد القارس لمجرد أنّني قلت سأفعل».

سارع ماك إلى الشرح ملقيًا اللّوم على نفسه متوسّلًا إليها ألّا تموت.

لقد كانت محاضرة تشارلي قد تركت انطباعًا عميقًا في عقل الولد المسكين.

نظرت روز إليه بتعبير رقيق في عينيها وقالت: «لم أكن أعلم أن موتي يمثل خطرًا لأيّ شخص».

تعثر ماك: «أوه، أرجوكِ، أتمنى ألّا تموتي. الناس يرحلون فجأة كما تعلمين، ولن يرتاح لي بال إلا إذا سامحتِني».

كانت روز تبدو كملاك بشعرها الذهبي المنساب على الوسادة ووداعة المعاناة على وجهها الأبيض الصغير.

مكتبة ياسين

نظرت إليه بضوء رقيق في عينيها، ورأت كيف أنّ حزنه الصامت مثير للشفقة: «لا أعتقد أنّني سأموت، لن يسمح لي عمّي، ولكن لو حدث ذلك تذكّر أنّني سامحتك». ثم سحبت رأسه للأسفل وأضافت بهدوء: «لم أقبّلك تحت الهدال لكنّني سأفعل الآن لتعرف أنّني سامحتك وأنّني أحبك كما تحبّني».

هذا اليائس المسكين ماك لم يسعه إلّا أن يتمتم بكلمات الشكر ويخرج من الغرفة بأسرع ما يمكن ليتحسّس طريقه إلى الأريكة المستقرّة في ركن الصالة البعيد، ويرقد هناك لينام، فقد تعِب من كثرة محاولاته ألّا يكون «كالأطفال».

مكتبة ياسين

الفصل الثاني والعشرين
شيء لتفعله

أيًّا كان الخطر الذي نجم عن هذا البرد المفاجئ، سينتهي سريعًا رغم أنّ العمّة ميرا رفضت تصديق ذلك، واعتزّ الدكتور أليك بفتاته مضاعفًا يقظته وحنانه لأشهر بعد تلك الحادثة.

استمتعت روز بكونها مريضة. فبمجرد انتهاء فترة الألم بدأت المتعة، لمدّة أسبوع أو أسبوعين عاشت حياة أميرة صغيرة في صوانها يخدمها الجميع ويسلّونها ويحرسونها بطريقة مبهجة. وعندما استدعيَ الدكتور لرؤية صديق قديم كان مريضًا بشكل خطير، شعرت روز وكأنّها طائر صغير حرم من جناح أمّه في تلك الظهيرة عندما كانت العمّات يأخذن القيلولة وكان المنزل هادئًا والثلوج تتساقط.

قالت روز لنفسها: «سأذهب للبحث عن فيبي فهي لطيفة، وحتّى لو كانت مشغولة فهي تحبّ مساعدتي لها. وإذا كانت دولي غير موجودة يمكننا أن نصنع الكراميل ونفاجئ الأولاد عندما يجيئون».

رمت كتابها على الأرض وشعرت بأنّها جاهزة بشكل ما للعودة إلى بعض النشاط.

اتخذت احتياطاتها بإلقاء نظرة خاطفة على المكان قبل دخولها المطبخ، لأن دولي لا تسمح لها بالعبث فيه. لكنّ الأجواء كانت هادئة ولا أحد هناك سوى فيبي التي تجلس خلف الطاولة ورأسها ملقى على ذراعيها

مكتبة ياسين

بحيث تبدو نائمة. كانت روز على وشك إيقاظها بـ«بوو» عندما رفعت فيبي رأسها وحدّقت عينيها المبلّلتين بمئزرها الأزرق وعادت إلى ما كانت تعمل عليه بحزمٍ يدلّ على اهتمامها الشديد بما تقوم به. لم تستطع روز معرفة هذا الشيء وكاد الفضول يقتلها وهي ترى فيبي تكتب بقلم حبر على قطعة من الورق البنّيّ وقد بدا كأنّها تنسخ شيئًا من كتاب صغير.

فكّرت روز وقد نسيت إعداد الكراميل، «يجب أن أعرف ما هو هذا الشيء المهم، ولماذا بكت وزمّت شفتيها ثم اندمجت في العمل بكلّ قوتها».

دخلت المطبخ قائلة بسرور: «فيبي، أيمكنك السماح لي بمساعدتك في شيء أقترحه أم أخرج وأعود من حيث جئت؟».

- «أوه، لا يا عزيزتي، أنا دائمًا أحبّ أن تكوني معي عندما يكون ما تقترحينه ممكنًا. ما الذي تريدين فعله؟». وفتحت فيبي الدّرج كما لو كانت على وشك أن تخفي أشياءها الخاصة بعيدًا عن الأنظار.

لكنّ روز أوقفتها وصرخت مثل طفل فضوليّ: «دعيني أرى! ما هذا؟ لن أقول إن كنتِ تفضّلين ألّا تعرف دولي».

أجابت الفتاة على مضض: «أحاول فقط أن أدرس قليلًا، لكنّني غبية جدًا ولا أستوعب».

وعلى مضض سمحت لصاحبة المنزل بفحص أدواتها التي كانت تحاول أن تعمل بها، لوح مكسور على سطح

مكتبة ياسين

الطاولة، قلم رصاص لا يزيد عن بوصة أو اثنتين، تقويم سنويّ قديم للقراءة، قطع من الورق البنّيّ أو الأصفر تمّت مساواتها بسلاسة في خيط واحد كدفتر للنسخ، ونُسخ كثيرة لإيصالات متنوعة كُتبت بخط يد العمة بلينتي الأنيق مع زجاجة صغيرة من الحبر وقلم حبر باهت، تلك أدوات فيبي. فلا عجب أنّها لم تواصل تعليمها، ولم تواصل الكتابة بقلم الحبر خاصّتها، رغم إرادتها القويّة وإصرار المريضة التي جفّفت دموعها البائسة.

قالت فيبي بتواضع وقد ظهر احمرار خديها وهي تحاول أن تجفّف حبر بعض حروفها الملتوية التي كتبتها، غير أنّه بقيت نقطة أو اثنتين لم تجفّا بعد: «ربما تضحكين لو أردتِ يا آنسة روز. أعرف أنّ أشيائي غريبة ولهذا السبب خبأتها، لكنّني لا أخشى أن ترى تلك الأشياء ولا أخجل من شيء سوى كوني متخلّفة عمّن في مثل عمري».

برفق قلّبت روز بيدها أوراق كتاب النسخ الصغير البائس، ووضعت يدها الأخرى على كتف فيبي وقالت: «أأضحك عليكِ! أشعر برغبة أكبر في البكاء حين أفكر كم أنا فتاة أنانية لأنّني أمتلك الكثير من الكتب والأشياء ولا أتذكر أبدًا أن أمنحك بعضًا منها. لماذا لم تأتِ وتطلبي منّي بدلًا من المجاهدة بمفردك بهذه الطريقة؟ هذا خطأ كبير منكِ يا فيبي ولن أسامحك عليه أبدًا إن فعلته مرة أخرى».

قالت فيبي بعيون ممتنّة: « لا يمكن أن أطلب أيّ شيء

مكتبة ياسين

أكثر ممّا تعطينني، لأنّك لطيفة معي طوال الوقت أيّتها الغالية».

- «أوه، يا له من شيء أفخر به! لم يكنِ من الممتع اكتشاف هذا السرّ، غير أنّني استمتعت كثيرًا باكتشافه. والآن انظري هنا، لديّ خطة ويجب ألّا تقولي لا والا سأوبّخك. أنا أريد أن أعلّمك كلّ ما أعرفه. هذا لن يستغرق وقتًا طويلا».

وضحكت روز بينما تضع ذراعها حول رقبة فيبي وربّتت على رأسها الداكن الناعم باليد الصغيرة اللطيفة التي تحبّ العطاء.

قالت فيبي: «هذا سيكون حلمًا!». ولمع وجهها من مجرد الفكرة. لكنّها أضافت وقد بدا في نبرتها بعض الخوف: «فقط أخشى أنّني لا ينبغي أن أتركك تفعلين ذلك يا آنسة روز. سيستغرق الأمر وقتًا، وربما لن يعجب الدكتور».

صاحت روز متشوّقة: «هو لا يريدني أن أدرس كثيرًا، ولا أظنّ أنه سيعترض على أن أدرّسك. على أيّ حال يمكننا أن نجرّب الآن إلى أن يأتي، لذا أحضري أشياءك واذهبي إلى حجرتي وسنبدأ من اليوم. سأحبّ هذا كثيرًا وسوف نقضي وقتًا ممتعًا معًا، أليس كذلك؟».

كان مشهدًا جميلًا أن ترى فيبي تجمع أشياءها المتواضعة في مئزرها وتنهض كما لو أنّ تلك الرغبة التي نبتت في أعماق قلبها كبرت وملأتها بالسعادة. والمشهد الأجمل كان رؤية روز تعمل بمرح، وتبتسم كأنّها

مكتبة ياسين

حورية جميلة تلوّح للآخرين وتغنّي وهي تمشي:

الصعود إلى حجرتي مليء بالمنحنيات

العديد من الأشياء المشوّقة سأريها لكِ عندما تصلين إلى هناك

تقدّمي.. تقدّمي يا عزيزتي فيبي

ردّت فيبي بحماسة: «أوه، سوف أتقدّم». وأضافت وهما يدخلان الصوان: «أنتِ أعزّ عنكبوت على الإطلاق وأنا أسعد ذبابة».

أمرتها روز مسرورة من احتمال أن يكون «الشيء الذي تفعله» مفيدًا وممتعًا: «سأكون صارمة للغاية، لذا اجلسي على هذا الكرسي ولا تقولي كلمة واحدة حتّى يتمّ تجهيز المدرسة ويحين موعد فتحها».

جلست فيبي بشكل رزين في مكانها، بينما وضعت معلمتها الجديدة كتبًا وألواحًا ومحبرة جميلة وكرة أرضيّة صغيرة، مزّقت على عجل قطعة من إسفنجة كبيرة عندها، سنّت أقلام رصاص بنشاط أكثر منه بمهارة، وعندما تمّ تجهيز كلّ شيء قامت بوثبة جعلت تلميذتها تضحك.

- «الآن فُتحت المدرسة وينبغي أن أسمعك تقرئين حتى أعرف في أيّ فصل سأضعك يا آنسة مور».

هكذا بدأت روز. وبهيبة جليلة وضعت الكتاب أمام تلميذتها وجلست في كرسيّ مريح وفي يدها مسطرة طويلة.

كان أداء فيبي جيدًا، تتعثّر بين الحين والآخر بسبب

مكتبة ياسين

كلمة صعبة، تنطق كلمة «متطابق» «طابق»(٨١) بطريقة رصينة دغدغت روز، رغم ذلك لم تصدر منها أيّ ابتسامة. الدّرس الذي أعقب القراءة كان محبِطًا، لا وجود للقواعد النحويّة عند فيبي، وأفكارها عن الجغرافيا غامضة للغاية على الرغم من أنّ التلميذة حاولت جاهدة التحدّث مثل المتعلمين، لدرجة أنّ دولي وصفتها بأنّها «قطعة عالقة لا تعرف مكانها».

لكنّ روز التي وجدت أنّه عليها أن تصحّح لنفسها أيضًا، وشعرت أنّه يجب أن تهتمّ بنطقها للمفردات لو أرادت أن تكون نموذجًا لفيبي يحتذى به، وأن تشجّعها. قالت: «دولي إوزّة قديمة لذا لا تهتمي لكلامها، فهي تنطق كلمات بدائية بشكل ساذج للغاية طوال الوقت وتصرّ على أنّ نطقها صحيح. أنتِ تتحدثين بشكل مقبول يا فيبي، لقد لاحظت ذلك، والقواعد سوف تساعدك على تمييز الصحيح من الخاطئ».

عندما جاء دور علم الحساب فوجئت المعلمة الصغيرة أنّ تلميذتها أسرع منها في بعض المسائل، فقد واظبت في عملها على أعمدة حسابات الجزّار والخبّاز حتى تمكّنت من فهم عمليّات حساب بشكل سريع وصحيح لدرجة أدهشت روز وشعرت أنّ التلميذة ستتفوّق قريبًا في هذا الفرع على المعلّمة لو استمرّت بالوتيرة نفسها.

مدح روز لفيبي أبهجها كثيرًا وأشعل حماستها لدرجة أنّهما لم تشعرا بمرور الوقت حتّى ظهرت العمّة بلينتي تصيح وهي تحدّق في الرأسين المنحنيين فوق لوح واحد.

مكتبة ياسين

- «يا إلهي، ماذا يحدث؟»».

- مدرسة يا عمّتي، أنا أدرّس فيبي وهذا يمثّل لي في الحقيقة متعة كبيرة»».

صاحت روز وهي تنظر بوجه مشرق نحو عمّتها.

لكنّ فيبي كانت مبتهجة أكثر رغم أنّها عقّبت بنظرة حزينة:

- «ربما كان عليّ أن أطلب الإذن أولًا عندما اقترحت الآنسة روز تعليمي، هل أتوقف يا سيدتي؟»».

- «بالطبع لا أيّتها الطفلة، أنا سعيدة لرؤيتك مغرمة بكتابك وسعيدة لمساعدة روز لكِ. كانت والدتي المباركة تجلس مع خادماتها وتعلّمهن أشياء كثيرة بالطريقة القديمة الجيدة التي تبدّلت كثيرًا اليوم. فقط لا تهملي عملك يا عزيزتي ولا تدَعي الكتب تعطّلك عن واجباتك»».

بينما تحدث العمّة بلينتي بوجهها الطيّب المشرق، كانت تنظر إلى الفتاتين باستحسان. لمحت فيبي الساعة ووجدتها تشير إلى الخامسة، فعلمت أنّ دولي ستنزل الآن وهي تتوقع من فيبي أن تلحق بها لتجهيزات العشاء، وبسرعة أسقطت فيبي قلم الرصاص من يدها وقفزت قائلة:

«أرجوك، أيمكنني الذهاب؟ سوف أعود بعد الانتهاء من الأعمال المنزلية»».

لكنّ روز قالت: «انتهى اليوم الدراسي»». وأضافت بنبرة امتنان: «أشكرك شكرًا جزيلًا»».

مكتبة ياسين

هرولت فيبي وهي تغنّي جدول الضرب.

بهذه الطريقة بدأ التدريس، ولمدة أسبوع استمرّ الفصل المكوّن من طالب واحد بسرور كبير ومريح لجميع المعنيين. بالنسبة للتلميذة كان وقتًا مبهجًا. فقد كانت تأتي لمتابعة دروسها كما الوليمة، بينما بذلت المعلّمة الشابّة قصارى جهدها لتكون جديرة بالتقدير على ما تقوم به. فيبي من جهتها تسير خلف معلّمتها وتعتقد اعتقادًا راسخًا أنّ الآنسة روز تعرف كلّ شيء عن التعلّم.

بالطبع عرف الفتيان ما حدث ومازحوا الفتاتين بخصوص تلك «المدرسة» كما سمّوا المؤسسة الجديدة. لكنّهم بصفة عامّة يعتقدون أنّها شيء جيد، وعرضوا عليهما إعطاء دروس مجانية في اليونانية واللاتينية، وقرروا بينهم وبين أنفسهم أنّ روز كانت واثقة من نفسها حينما أعطت «للطائر فيبي» هذا التشجيع العظيم.

روز من جهتها كان لديها شكوك حول مدى قناعة عمّها بشأن هذا الأمر، وحاولت أن تجهّز خطبة تتملّقه فيها وتحاول أن تقنعه بأهمية ما تفعله، وإلى أيّ مدى هو مفيد. لكنّها لم تحصل على فرصة لإلقاء خطبتها لأنّ رأي الدكتور أليك جاء فجأة خارج توقّعاتها تمامًا.

كانت تجلس على أرضيّة المكتبة، على حجرها كتاب كبير تتأمل فيه وليس عندها أيّ خبر عن وصوله الذي طال انتظاره، حتّى فوجئت بيدين كبيرين دافئتين تحت ذقنها، فأدارت رأسها إلى الخلف بلطف حتّى يتمكن هذا الشخص من تقبيل خدّها بينما قال صوت أبويّ نصف معاتب: «ها هي فتاتي تجلس وتتأمل موسوعة

مكتبة ياسين

متربة في حين أنّها يجب أن تهرول لمقابلة شخص عجوز لطيف لا يقدر أن يعيش دقيقة من دونها».

أسقطت روز الموسوعة على الأرض ووقفت لترمي بنفسها بين ذراعي الدكتور أليك في عناق لا يعطيه المرء إلّا لأعزّ مخلوق في العالم بأكمله، وصاحت:

- «أوه عمّي، كم أنا مسرورة بعودتك، لماذا لم تخبرنا بموعد وصولك أو حتّى لم تصرخ لتناديني؟ لا تتصوّر كم شعرت بالحنين لك في غيابك؟ والآن أنا سعيدة جدًا بعودتك ويسعدني أن أعانق رأسكَ العزيز بتجعيداته».

كان جالسًا على كرسيه المريح وروز على ركبته تبتسم وتتحدّث بأسرع طريقة تقدر عليها، وهو يتطلّع إليها برضا ويربّت على خدّها المستدير الناعم، أو يمسك بيدها الصغيرة مبتهجًا لرؤيتها وردية اللون وممتلئة وقوية.

- «هل قضيت وقتًا ممتعًا؟ هل أنقذت مرضاك؟ ألستَ سعيدًا لعودتك إلى المنزل مرّة أخرى، وخاصّة إلى فتاتك لتعذبك؟».

- «نعم لكلّ تلك الأسئلة، والآن أطلعيني على أخبارك أيّتها الشريرة الصغيرة. تقول العمّة بلينتي إنّكِ تريدين استشارتي بشأن بعض المشاريع الجديدة والرائعة التي تجرّأتِ على البدء بها في غيابي».

- «أتمنى ألّا تكون قد أخبرتك».

- «ولا كلمة، غير أنكِ كانت لديك بعض الشكوك حول مدى صحّة قيامك بهذا الأمر، وأنك أردتِ المجيء إليّ والاعتراف به. الآن اعترفي وتقبّلي النتائج».

مكتبة ياسين

أخبرته روز عن المدرسة بطريقتها الجميلة والمخلصة، ونوّهت عن تعطّش فيبي للمعرفة وسرورها بمساعدة روز لها، وأضافت بإيماءة حكيمة:

- «وهذا أيضًا ساعدني كثيرًا يا عمّي، فهي نبيهة ومتشوّقة. لذا يجب أن أبذل قصارى جهدي وإلّا فإنّها ستتقدم عليّ في بعض الأشياء. اليوم مثلًا أخذت كلمة «قطن» وسألت عن كلّ ما يتعلق بهذه الكلمة فكنت خجلة من أنّني أعرف القليل فقط عنه. إنه نبات ينمو في الجنوب ويصنع منه القماش، هذا ما كنت أقرأ عنه عندما جئت وغدًا سوف أخبرها بذلك وأخبر نيلي أيضًا. لذا كما رأيت، هي تشجّعني على مزيد من التعلّم أيضًا. إنّها فرصة جيدة لمراجعة ما تعلّمته بطريقة ممتعة أكثر من مراجعتي بمفردي»».

- «أنتِ فتاة صغيرة ماكرة! هذه هي الطريقة التي تمكرين عليّ بها، أليس كذلك؟ هذه ليست دراسة على ما أظن؟»».

بدت روز قلقة وحازمة على حدّ سواء بينما كانت تنتظر عقوبتها: «لا يا سيدي، إنّه تدريس. أنا أحبّ ذلك وأفضّله أكثر من الاستمتاع بمفردي. إلى جانب ذلك، كما تعلم، لقد تبنّيت فيبي ووعدتها بأن أكون أختًا لها، لذا أنا ملزمة بتنفيذ وعدي، أليس كذلك؟»».

من الواضح أنّ الدكتور أليك قد فاز بالفعل إذ استفزّها. فراحت روز تصف اللوح القديم وكتاب النسخ ذا الورق البنّيّ بطريقة مثيرة للشفقة. ولأنّ الرجل الرائع كان قد قرر إرسال فيبي إلى المدرسة قبل

مكتبة ياسين

وقت طويل من انتهاء القصة، فقد عاتب نفسه لنسيانه واجبه تجاه فتاة صغيرة من فرط محبته لفتاة أخرى.

وعندما حاولت روز أن تبدو وديعة وفشلت تمامًا، ضحك وقرص خدها وأجاب بهذه الطريقة اللطيفة التي أضافت ذلك الدفء المعروف به: «يا فتاتي، ليس لديّ أيّ اعتراض أبدًا. في الحقيقة، لقد بدأت التفكير في أن أدعك تعودين إلى كتبك مرة أخرى، باعتدال، منذ أن تحسّنت أحوالك، وهذه طريقة ممتازة لاكتشاف قدراتك. فيبي فتاة شجاعة ونشيطة وينبغي أن تنال فرصة عادلة في العالم، لو استطعنا منحها تلك الفرصة ستجد أصدقاء لها لا يخجلون من صداقتها».

قالت روز بشوق: «أعتقد أنّها وجدت البعض فعلًا».

- «ماذا؟ هل ظهر أحد في غيابي؟»».

سأل الدكتور أليك على الفور، فقد كان هناك إيمان راسخ في العائلة بأنّ فيبي ستثبت أنّ «لها شخصيتها» عاجلًا أم آجلًا.

أجابت روز سعيدةً بالموافقة: «لا، صديقتها المفضلة ظهرت عندما عدت للمنزل يا عمّي. ولا أستطيع التعبير عن شكري لك لكونك عطوفًا مع فتاتي. لكنّها ستستطيع، لأنّني أعلم أنّها ستكون امرأة نفتخر بها، هي قويّة جدا وصادقة ومحبّة».

- «بارك الله فيك! لم أفعل أيّ شيء بعد للأسف، لكنّني سأفعل الآن. سأكمل ما بدأته بخطوة بسيطة، ينبغي أن تذهب إلى المدرسة طالما أحبّت ذلك، كيف

مكتبة ياسين

ترين تلك البداية؟».

- «سيكون 'حلمًا' كما قالت فيبي. إنّ أمنية حياتها أن تحصل على تعليم جيد وستطير من السعادة عندما أخبرها بذلك، أتسمح لي بأن أفعل؟ سيكون من الرائع رؤية الغالية وهي تفتح عينيها الكبيرتين وتصفّق بيديها على هذه الأخبار الرائعة».

- «ما من عاقل يضع إصبعه في كعكة جميلة، طبعًا عليكِ أن تفعلي ذلك بنفسك، لكن لا تتسرّعي أو تبني لنفسك قلاعًا في الهواء يا عزيزتي، فعلينا الالتزام بالصبر والوقت المناسب حتى لا تفسد تلك الكعكة الجميلة».

- «نعم يا عمّي، معك كلّ الحقّ سأخبرها حينما تبدأ المدرسة وعندها ستبدأ الطيور في الغناء».

ضحكت روز وهي تتحرّك في الغرفة تحاول التنفيس عن مشاعر البهجة التي جعلت عينيها تلمعان، ثم توقفت فجأة وسألت بجدية: «إذا ذهبت فيبي إلى المدرسة، فمن سيقوم بعملها؟ أنا على استعداد أن أقوم بذلك ما استطعت».

- «تعالي وسوف أخبركِ بسرّ. لقد كبرت دوللي جدًّا وصار مزاجها عكِرًا للغاية لذا قرّرت العمّات إحالتها إلى التقاعد لتعيش مع ابنتها التي تزوّجت زواجًا سعيدًا. رأيتها هذا الأسبوع وأبلغتني أنّها تريد أن تأخذ والدتها للعيش معها. لذا في الربيع سوف يكون لدينا تغيير كبير، سيكون لدينا طاهية جديدة وخادمة مناسبة».

- «أوه، وأنا؟ كيف يمكنني العيش من دون فيبي؟

مكتبة ياسين

ألا تستطيع البقاء عندنا حتى أتمكن من رؤيتها فقط؟ سوف أتكفل بجميع نفقاتها، أنا مغرمة بها».

ضحك الدكتور أليك على هذا الاقتراح. وكم كان مدى رضا روز حينما أوضح أن فيبي ستبقى لتقوم على خدمتها وحدها من دون أي واجبات عليها أن تؤديها في ساعات الدوام والدراسة. وأضاف:

- «إنها مخلوقة يُفتخر بها وبكلّ تصرفاتها المتواضعة. حتّى نحن، لم نكن لنصنع معها معروفًا كهذا لو لم تكن أهلًا له. كلّ هذه الترتيبات من أجل أن يكون كلّ شيء في مكانه منسجمًا ومريحًا كما ترين. وسوف تدفع ثمن التحاقها بهذه المدرسة ولو عن طريق تمشيط هذه الضفائر المجعدة عشرات المرات كلّ يوم لو سمحتِ لها بذلك».

«خططك دائمًا حكيمة ولطيفة، لذا دائمًا ما تثبت جدارتها وهذا ما يجعل الناس يمنحونك سلطة القرار. أنا حقًا لا أعرف كيف تعيش الفتيات الأخريات من دون عم أليك». قالت روز وهي تتنفس بعمق وتفكر بأولئك الذين فاتتهم هذه النعمة العظيمة.

حينما أُخبِرت فيبي بهذه الأخبار الرائعة، بدت كأنّها ستطير من البهجة كما تنبأ تشارلي أنّها قد تفعل، لكنّها تماسكت لأنّ الأمر كان مبهجًا أكثر من أن تجد كلمات مناسبة لتعبّر عن سرورها. ثمّ قالت بنبرة فيها عاطفة صادقة: «إنّه شيء عظيم وجميل إلى حدّ لا يكفي أن أشكركم عليه».

كان إشراق وجه فيبي كيفما تحرّكت يدلّ على مدى

مكتبة ياسين

سعادتها من تحقّق تلك الأمنيات الرائعة. وازدادت رغبتها بأن تتفانى في خدمة أولئك الذين منحوها هذه البهجة.

كانت السعادة تتدفق من قلبها كما لو كانت موسيقى يغنّي على أنغامها صوتها الجميل المبتهج الممتَنّ من دون حاجة لأيّ كلمة.

لم تتعب من العمل بكامل رغبتها في خدمة أولئك الذين فتحوا لها طريق الحلم. يداها الماهرتان مشغولتان دائمًا في العمل بحبّ لأجلهم، ووجهها يفيض وسامة ولطفًا كصورة للإخلاص، فقد أثبتت كم تعلّمت فيبي جيدًا الدروس العظيمة من الحياة عن الامتنان.

مكتبة ياسين

الفصل الثالث والعشرون

صنع السلام

- «ستيف، أريدك أن تخبرني بشيء».

قالت روز لداندي الذي يصنع وجوهًا لنفسه في المرآة وهو ينتظر الإجابة عن الملاحظة التي أتى بها من أمّه للعمّة بلينتي.

- «ربما أقدر وربما لا، على حسب هذا الشيء».

- «ألم يتشاجر أرشي وتشارلي؟».

- «أستطيع القول إنّنا نحن الرفاق قد يكون لدينا بعض الخلافات كما تعلمين».

واندمج ستيف في هرش رموشه الصفراء بسبب تورّم في عينه اليمنى.

- «لا، الأمر ليس هكذا، أريد أن أعرف كلّ شيء عن الشجار، أعتقد أنّ الأمر أكثر أهمية من مجرد خلافات بسيطة. تعال هنا وأخبرني من فضلك يا عزيزي».

تذمّر ستيف وهو يشدّ شعر رأسه كما كان يفعل دائمًا عندما يكون مرتبكًا: «هذا مزعج! أنتِ لا تريدين منّي أن أكون واشيًا، أليس كذلك؟».

- «بل أريد ذلك».

كانت إجابة روز حاسمة لأنّها عرفت من طريقته أنّ تخمينها على صواب وعزمت على إقناعه وإخراج السرّ منه.

مكتبة ياسين

- «لا أرغب في أن تخبر الجميع بما حدث، لكن بالنسبة لي عليك أن تخبرني لأنّ من حقّي أن أعرف. أنتم الأولاد بحاجة إلى شخص يعتني بكم وسأفعل ذلك. فالفتيات صانعات السلام ويعرفن كيف يعاملن الناس. عمّي قال ذلك، وهو لا يخطئ أبدًا».

كان ستيف على وشك إطلاق صيحة ساخرة من فكرة الاعتناء بهم، لكنّ فكرة مفاجئة ألجمته، إذ فكّر بطريقة يمكن بها إرضاء روز والخروج بمنفعة لنفسه في الوقت ذاته.

- «ما الذي سأحصل عليه لو أخبرتك كلّ شيء؟».

سأل مع احمرار مفاجئ في وجنتيه ونظرة مضطربة من عينيه لأنّه كان نصف نجلٍ من الاقتراح.

نظرت روز مندهشة من هذا السؤال: «ماذا تريد؟».

- «أودّ أن أقترض بعض المال. لم يكنِ عليَّ التفكير في الطلب منكِ، لكنّ ماك لا يملك سنتًا واحدًا منذ أن أنشأ مختبره الكيميائي القديم الذي سينفجر في وجهه في أحد الأيام. وعندها أنتِ والخال ستجدون متعتكم في أن تجمعوا أشلاءه مرة أخرى». حاول ستيف أن يجعل الفكرة كما لو أنّها فكرة مسليّة له.

قالت روز بإصرار على معرفة السرّ: «سأقرضك بكلّ سرور، هيا احكِ لي».

من الواضح أن ستيف ارتاح كثيرًا بهذا الوعد. ربط ستيف شعره بهيجة وقف مرة أخرى ذاكرًا الموضوع بإيجاز.

مكتبة ياسين

- أوافق على ما قلتِ. من حقّك أن تعرفي لكن لا تخبري الأولاد بأنّني أفشيت السرّ وإلا سيقطع البرنس رأسي. أرشي لا يحبّ بعض زملاء تشارلي الذين قطع علاقته بهم. هذا أثار غضب البرنس وجعله يقرر أن يزعج أرشي. لهذا السبب لا يتحدّثان مع بعضهما، وهذا هو سبب الشجار.

سألت روز بقلق: «هل هؤلاء الصبية سيئون؟».

- «لا أظن ذلك، إنّهم فقط متهوّرون، فهم أكبر من الرفاق لكنّهم مثل البرنس. إنّه فتى مرح، يغنّي بصوت جميل ويرقص جيجز(82) ويلعب أيّ لعبة مشهورة. إنّه يهزم مورس في البلياردو وهذا شيء يستحق التباهي به لأن مورس يعتقد أنّه يعرف كلّ شيء. رأيت المباراة، كانت ممتعة جدًا!».

كان ستيف متحمّسًا جدًا لبراعة تشارلي الذي كان معجَبًا به بشكل كبير ويحاول تقليده.

روز لم تعرف نصف خطورة تلك المواهب وهذه الميول لدى أشخاص مثل تشارلي، لكنّها تشعر بالفطرة أنّ شيئًا ما يجب أن يكون خاطئًا طالما رفضه أرشي.

قالت روز بحدّة: «لا أظنّ أنّ الأمر مقتصر على أنّ البرنس يحبّ أيّ شخص يلعب البلياردو أفضل من أرشي، لا أظنّ أنّني أعرف الكثير عن مشاعر كلّك».

هزّ ستيف رأسه بينما كانت عيناه تلمعان نتيجة تذكّر بعض المواقف 'للمجموعة المرحة'، فأضاف: «بالطبع لا يفعل، لكن كما ترين تشارلي وأرشي يتفاخران بنفسيهما

مكتبة ياسين

كثيرًا ولن يستسلما أبدًا. أفترض أنّ أرشي على حقّ لكنّني لا ألوم تشارلي لأنّه يحبّ أن يكون مع الآخرين أحيانًا، فهم مجموعة مرحة جدًا».

تنهّدت روز: «أوه يا عزيزي، لا أعرف ما يمكنني فعله حيال ذلك لكنّني أتمنّى أن يهدأ الحال بين الصبية، فالبرنس لا يمكن أن يلحق أيّ ضرر بأرشي فهو عطوف وحسّاس».

- «تلك هي المشكلة، أرشي يعِظ والبرنس لا يطيق ذلك. لقد وصف أرشي بأنّه قسّ متزمّت وأرشي وصفه بأنّه ليس رجلًا نبيلًا. يا إلهي، ألم يكن كلاهما مجنونين. اعتقدت للحظة أنّهما سيتعاركان وينتهي الأمر في ساعتها. أتمنى لو كان ذلك ما حدث بالفعل. كنت أنا وماك سنقوم بتسوية خلافنا بضربة أو شيء كهذا فوق الرأس وبعد ذلك تصير الأمور على ما يرام».

لم تستطع روز إلّا أن تضحك عندما كان ستيف يصفع وسادة أريكة ضخمة صفعات عديدة ليوضح المعنى الذي يقصده. أوقفَ الصفعاتِ وابتسم لها بشفقة لجهلها الأنثويّ بهذه الطريقة المختصَرة لتسوية الخلاف.

قالت بمزيج من الإعجاب والحيرة على وجهها: «يا لهم من أولاد مرحين».

ستيف اعتبر قولها بمثابة مجاملة لنوعه، فأجاب مشرئبًّا: «نحن اختراع ذكيّ جدًا يا آنسة ولا يمكنك الاستمرار من دوننا». ثم حوّل الحديث إلى الموضوع الذي يهمّه، فأضاف: «كم المبلغ الذي سوف تقرضينه لي؟ لقد أخبرتك بما كنت تريدين والآن حان وقت الدّفع».

مكتبة ياسين

- «بالطبع سأقرضك. كم تريد؟»، وسحبت روز محفظتها.

تصنّع ستيف مظهرًا رجوليًا كان من المضحك رؤيته فيه، وقال: «هل يمكنك إعطائي خمسة دولارات؟ أريد دفع القليل من ديوني لأخفّف بعض الضّغط عنّي».

سألت روز ببراءة: «أليست كلّ الديون واجبة الدفع؟».

- «نعم بالطبع، لكن هذا دَين بسيط وسوف يتمّ سداده في أقرب وقت». قال ستيف وقد وجد صعوبة في الشرح.

- «أوه، لا تراهن، هذا ليس صحيحًا وأنا أعرف أنّ والدك لا يحبّ ذلك». وأمسكت روز بسرعة باليد التي كانت قد وضعت المال فيها للتّو وقالت: «عِدني ألّا تفعل ذلك مرة أخرى، من فضلك أعطني وعدك».

- «حسنًا، لن أفعل، لقد أزعجني الأمر كثيرًا. كنت أمزح، شكرًا جزيلًا يا ابنة خالي، أموري تسير على ما يرام». ثم غادر ستيف على عجل.

كانت روز قد قرّرت أن تكون صانعة سلام، وها هي قد سنحت لها الفرصة.

كانت تقضي اليوم مع العمّة كلارا التي كانت تسلّي بعض الضيوف الشباب ودعت روز لمقابلتهم. فقد رأت أنّه حان الوقت لتتغلب ابنة أخيها على خجلها وتنفتح قليلًا على المجتمع. انتهى العشاء وغادر الجميع. كانت العمّة كلارا تستريح قبل ذهابها لحضور حفلة

مكتبة ياسين

مسائية وروز تنتظر تشارلي حتّى يوصلها إلى المنزل.

جلست وحيدة في غرفة الاستقبال الأنيقة، شعور لطيف بشكل خاص وجميل لأنّها ارتدت أفضل فستان لها، ووضعت زوجًا من الحلي الذهبية أعطتهما لها العمّة للتّو ووشاحًا موشّى ببراعم ورود صغيرة وكأنّها الجميلة فان تيسل التي يعجب بها الجميع. تنورتها مناسبة لها بالضبط. جلست متّكئة على كرسيّ فاخر، معجبة بشبشب في قدميها مليء بورود كبيرة بحجم وردة الداليا.

جاء تشارلي متمايلًا يبدو نعسانًا وغريبًا كما اعتقدت روز. عندما رآها تحمّس وقال بابتسامة: «اعتقدت أنكِ مع أمّي لذا ظللت أمازح الفتيات حتّى أربعين غمزة. بعد أن تخلّصت من هؤلاء الفتيات، الآن أنا في خدمتك يا روزاموندا متى شئتِ».

أجابت روز وهي تلاحظ احمرار خدَيّه وعيونه الثقيلة: «تبدو كما لو أنّ رأسك يؤلمك، لو كان الأمر كذلك لا تشغل بالك بي، أنا لست خائفة من الجري إلى المنزل بمفردي فالوقت مبكر جدًا».

غابت الابتسامة، وقال مربكًا: «كأنّني أسمح لنفسي أن أتركك تفعلين ذلك. صحيح أنّ الشمبانيا دائمًا تصيبني بالصداع، غير أنّني أظنّ أنّ الخروج واستنشاق الهواء سيضبط الأمر».

سألت روز بقلق: «لماذا تشربها إذًا؟».

- «يكون من الصعب التّحكم في ذلك حينما تكونين

مكتبة ياسين

مضيفة، أرجوكِ لا تبدئي محاضرتك الآن يكفيني أرشي بمفاهيمه القديمة.. لا أريد المزيد».

كانت نبرة تشارلي حادّة وأسلوبه يختلف عن طبيعته المرحة لدرجة أشعرت روز بالصّدمة، فأجابت بوداعة: «لن ألقي محاضرة، كلّ ما في الأمر أنّك عندما تحبّ أحدًا لا تستطيع تحمّل رؤيته على هذه الحال».

هذا الكلام جعل تشارلي يتراجع في الحال، فقد كانت شفتي روز ترتعدان قليلًا رغم أنّها حاولت إخفاء ذلك بأن شمّت زهرة سحبتها من وشاحها.

قال بالطريقة الصريحة القديمة التي كانت تفوز دائمًا: «إنّني دبٌ عاديّ، أنا آسف لكوني حادًا يا روزي».

قالت روز وهي تنظر إليه بينما هو يستند بمرفقيه على رفّ فوق الموقد ويميل عليها: «أتمنى أن تعتذر لأرشي أيضًا وتكونا صديقين حميمَين مرة أخرى، أنت لم تكن حادًا أبدًا عندما كان أرشي صديقك المقرّب».

في غمضة عين وقف منتصبًا والعيون الثقيلة اشتعلت بشرارة غاضبة وتكلّم بتعالٍ وجبَروت: «من الأفضل ألّا تتدخلي في ما لا تفهمينه يا ابنة العم».

- «لكنّني أفهم، ويضايقني كثيرًا أن أراك باردًا جدًا وحادًا مع شخص لطالما كان الأقرب إليك. لقد كنتما معًا طوال الوقت والآن أنتما بالكاد تتكلّمان، أنت مستعد دائمًا لطلب العفو منّي فلماذا لا تطلبه من أرشي، خاصة إذا كنت أنت المخطئ».

- «أنا لست مخطئًا». كانت إجابته قصيرة وحادّة.

مكتبة ياسين

لذلك عاد ليضيف بنبرة أكثر هدوءً ولكن متغطرسة للغاية: «الرجل النبيل يطلب العفو من سيّدة عندما يكون واقفًا معها، لكن لا يطلب العفو من رجل، وخاصة إذا أهانه».

تنهّدت روز محاولة جعله يضحك: «آه، يا قلبي، يا لك من ولد صعب!»، وأضافت بلطف: «أنا لا أتحدث عن الرجال، بل عن الأولاد، وواحد منهم يدعى البرنس الذي يجب أن يكون قدوة حسنة لأقاربه».

لكنّ تشارلي لم يلِن وحاول تغيير الموضوع بقول خطير بينما يحاول فكّ القرط الذهبيّ من سلسلة ساعة الجيب: «لقد رجعت في كلامي وأعفيكِ الآن من وعدك أيضًا. أنا آسف لكنّني أعتقد أنه كان وعدًا أحمقَ في الأساس ولم أكن أنوي الحفاظ عليه. اختاري زوجًا من الأقراط المناسب لكِ كتسوية عادلة. لكِ الآن كلّ الحقّ في ارتدائها».

شعرت روز بالخزي والحزن الشديدين لتحطّم أمنياتها، فلم تأخذ أقراطها التي عرضها عليها هذا الجاحد، وتكلّمت بحدّة: «لا يمكنني ارتداء واحد فقط، وهو أمر لا يهمّ على أيّ حال فأرشي سوف يحفظ عهده أنا متأكدة من ذلك».

هزّ كتفيه وألقى بالقرط في جيبها محاولًا أن يبدو باردًا وغير مبال، لكنّه فشل تمامًا لأنّه كان يخجل من نفسه، وكان مزاجه سيئًا بصفة عامّة. أرادت روز أن تبكي لكنّ كبرياءها منعها وصارت غاضبة جدًا. حاولت تهدئة نفسها بالكلام بدلًا من الدموع. نهضت

مكتبة ياسين

من كرسيها وبدت شاحبة ومنفعلة. تخلّصت من القرط وقالت بصوت حاولت من دون جدوى أن يبدو هادئًا:

«أنت لست الفتى الذي ظننته وأنا لا أحترمك ولو قليلًا. لقد حاولت مساعدتك على أن تكون نبيلًا لكنّك لم تساعدني، ولن أحاول أكثر من ذلك. قلت عن نفسك كثيرًا إنّك رجل نبيل لكنّك لست كذلك فقد رجعتَ في كلمتك ولن أثق بك مرة أخرى. أنا لا أريدك أن توصلني إلى المنزل، أفضّل أن ترافقني ماري، ليلتك سعيدة».

وبهذه الصفعة الرهيبة الأخيرة خرجت روز من الغرفة تاركة تشارلي مندهشًا كما لو أنّ حمامة فعلتها على وجهه. فهي نادرًا ما تغضب، وعندما يغلبها هذا المزاج يترك لدى الفتيان أثرًا عميقًا. لأنّه ليس ردّ فعل طفوليّ، إنّما غضبٌ ناتج عن شعور حقيقيّ بالظلم أو بخطأ الآخرين في حقّها.

اختفت زوبعتها الصغيرة في نوبة بكاء أو اثنتين بينما كانت تأخذ أشياءها من الخزانة. وعندما خرجت بدت أكثر إشراقًا، وعلى عجل تمنّت ليلة سعيدة للعمّة كلارا التي كانت تحت يد مصفّف الشعر، ثم تسلّلت لتبحث عن ماري الخادمة. لكنّ ماري كانت في الخارج فتسلّلت روز بعيدًا من الباب الخلفيّ تشجع نفسها على الهروب من تشارلي.

لقد كانت مخطئة، فلم تكد تغلق البوابة وراءها حتى سمعت خطوات شخص. كان البرنس بجوارها يقول بنبرة ندم وتوبة قضت على غضب روز كالسحر: «لن

مكتبة ياسين

يضطرك أحد للحديث معي لو لم تحبّي ذلك، ولكن يجب أن أوصلك إلى المنزل حتّى تشعري بالأمان يا ابنة العم».

استدارت على الفور ومدّت يدها وأجابت من أعماق قلبها: «أنا كنت الشخص المخطئ، أرجوك سامحني ودعنا نكن أصدقاء مرة أخرى».

كانت هذه الكلمات أفضل من عشرات الخطب عن جمال العفو. وفعلت في تشارلي أكثر ممّا تفعله خطبة طويلة، فقد أظهرت له كيف أنّ التواضع قيمة وأثبتت أنّها تمارس ما تدعو له. صافح يدها بحرارة ووضعها على ذراعه.

وكما لو كان حريصًا على استعادة رأيها الجيد عنه مرة أخرى، قال:

- «انظري هنا يا روزي، لقد أرجعتِ الأقراط وسأحاول من جهتي إعادتها مرة أخرى، لكن أنتِ لا تعرفين مدى صعوبة تحمّل السخرية منكِ».

- «نعم، أعرف، أنّابيل تزعجني في كلّ مرة أراها فيها بسبب عدم ارتدائي القرطين».

تنهد تشارلي وقال: «لكنّ ثرثرتها لم تكن بنصف سوء غضبك. يتطلّب الأمر الكثير من الشجاعة لتتخلّصي من الأشياء التي تعيقك».

- «أعتقد أنّ لديك تلك الشجاعة. كلّ الأولاد يقولون إنّك أشجع السّبعة».

- «لذلك أنا بصدد إجراء بعض التعديلات، غير أنّني

مكتبة ياسين

لا أتحمل أن يسخر أحد من ذلك».

- «إنّه أمر صعب، لكن حينما يكون المرء على حقّ عليه أن يفعل ذلك من دون الاهتمام بأحد».

- «ليس بالنسبة لي، ربما لرجل تقيّ مثل أرشي».

قالت روز وقد كانت تتمعّن بكلماتها: «من فضلك لا تطلق عليه أسماءً، أعتقد أنّ لديه ما يسمّى الشجاعة الأخلاقية وأنت لديك شجاعة جسديّة. شرح لي عمّي الفرق بينهما، والشجاعة الأخلاقية هي الأفضل رغم أنّها لا تبدو كذلك».

لم يحبّ تشارلي ذلك وأجاب سريعًا: «أنا لا أعتقد أنّه يستطيع الصمود في وجه تلك المغريات لو كان لديه رفاق كهؤلاء».

- «ربما لهذا السبب يبتعد عنهم ويريدك أن تفعل مثله».

كانت روز قد تمكّنت منه، وشعر تشارلي بذلك لكنّه لم يستسلم. بدا أنّه لا يرى الأشياء في الظلام بوضوح، لكنّه يعرف أنّه من السهل جدًا أن يُفصح عمّا يعتقده في داخله بالفعل حينما يكون مع روز فقط.

قال تشارلي بنبرة مؤلمة: «لو كان أخي لكان له الحق في التدخل».

صاحت روز: «أتمنى لو كان كذلك».

ردّ تشارلي فورًا: «وأنا أيضًا»، وضحك كلاهما على هذا التناقض.

مكتبة ياسين

جعلهما الضحك أفضل، وعندما تحدّث البرنس مرة أخرى فعل ذلك بلهجة مختلفة تمامًا، لا فخورة ولا مشاكسة.

- «كما ترى، من الصعب عليّ ألا يكون لدي أخوة وأخوات. حال الآخرين أفضل لأنّهم ليسوا بحاجة إلى الخروج للبحث عن أصدقاء لو لم يرغبوا في ذلك. أنا وحيدة تمامًا وسأكون ممتنة جدًا لو كانت لي حتّى أخت صغيرة».

اعتقدت روز أنّ حالها مثير للشفقة، قالت كلمة «حتّى» في الجملة الأخيرة كأنّما تعنيها. وأضافت بنبرة بين الجدّية والخجل نالت من ابن عمّتها في الحال:

- «تخيّل لو أنّني أخت صغيرة، أعرف أنّني سخيفة لكن ربما أفضل من لا شيء، وأحبّ أن أتخيّل نفسي كذلك كثيرًا».

- «وأنا كذلك، سأفعل مثلك، فأنت لست سخيفة لكنّك فتاة حساسة ونحن جميعًا نفخر بأنّك أختٌ لنا». ونظر تشارلي إلى أسفل ناحية الرأس المجعّد بعاطفة حقيقية.

قفزت روز من المتعة وخلعت قفازين من الجلد الطبيعي واضعة واحدًا على الآخر وقالت بسعادة: «هذا لطف منك ولم تعد بحاجة لتكون وحيدًا، سأحاول أن أملأ مكان أرشي حتى يعود وأنا أعرف أنّه سيعود بمجرد أن تسمح له».

- «حسنًا، سأصارحكِ القول، عندما كان رفيقي لم

مكتبة ياسين

أشعر أبدًا أنّني بحاجة لأخوة أو أخوات، حتى إنّني لم أرد شيئًا آخر، لكن عندما تخلّى عنّي شعرت أنّني مخنوق إن لم أكن بائسًا مثل كروزو العجوز قبل حلول يوم الجمعة».

هذا الاندفاع أكّد لروز فوزها بعودة تشارلي القديم إليها مرة أخرى، لكنّها لم تقل المزيد، مسرورة بما توصلت إليه. افترقا وهما صديقان ممتازان وعاد البرنس إلى منزله متسائلا: «لماذا لا يمانع المرء في قول أشياء لفتاة أو امرأة قد يموت حتى لا يعرفها عنه رفيق؟».

كان لدى روز أيضًا بعض الأفكار الحكيمة حول هذا الموضوع. غطّت في النوم وهي تفكّر في وجود الكثير من الأشياء الغريبة في هذا العالم وشعرت أنّها بدأت في اكتشاف بعضها.

في اليوم التالي، صعدت متعبة أعلى التلّ لترى أرشي وأخبرته بما اعتقدت أنّه الأفضل في حديثها مع تشارلي وتوسّلت إليه أن ينسى ويسامح.

قال أرشي بطريقته المتّزنة: «كنت أفكر في أنّه ربما يجب عليّ ذلك، رغم أنّني على حقّ فأنا إلى حدّ بعيد مغرم بتشارلي وهو أفضل فتى عرفته في حياتي، مشكلته أنّه لا يستطيع أن يقول لا وهذا سيفسد أشياء كثيرة معه إذا لم ينتبه». وعندما بقيت روز على صمتها، أضاف: «بينما كان والدي في المنزل، كنت مشغولًا جدًا معه، لذا انضم البرنس إلى مجموعة لا أحبّها. إنّهم مستهترون يعتقدون أنّ ذلك عمل رجولي، يتملّقونه ويقودونه للقيام بمشاركتهم اللعب من أجل المال،

مكتبة ياسين

المراهنة، التسكّع. أنا أكره قيامه بهذه الأفعال وحاولت أن أمنعه، لكنّه قرّر أن يسير في الطريق الخاطئ لذا وقعنا في عراك».

قالت روز: «إنّه مستعد للتصالح ولكن توقّف عن وعظه. اعترف لي بخطئه لكنّني لا أعتقد أنّه سيعترف لك بذلك صراحة».

بدا أرشي قلقًا وقال: «أنا لا أهتم لذلك، فلو امتنع عن هذه الأشياء وعاد، سوف أمسك لساني ولن أعِظ. أتساءل إذا كان مدينًا لهؤلاء الزملاء بمال، لو كان كذلك لن يستطيع البعد عنهم حتّى يتمكن من السداد. أتمنى ألّا يكون الأمر كذلك لكنّني لا أجرؤ على سؤاله وربما ستيف يعرف فهو دائمًا يلاحق البرنس، يؤسفني أن أقول ذلك».

- «أعتقد أن ستيف يعرف بالفعل فقد كان يتحدّث عن نوع من الديون عندما أعطيته...».

هنا توقفت روز قليلا وتحوّلت إلى اللون القرمزي، لكنّ أرشي أمرها بأن «تعترف» وتخبره بالقصة كاملة لأن لا أحد يجرؤ على عصيان الرئيس. ولشدّ ما أحزنها بأن وضع لها خمس دولارات في جيبها بالقوة وقد بدا عليه السخط والحزم بينما يقول: «لا تفعلي ذلك مرة أخرى وأرسلي ستيف إليّ، إذا كان يخشى الذهاب لأبيه. ليس لتشارلي علاقة بذلك، لن يقترض فلسًا واحدًا من فتاة ولكنّ الضرر هو ما يفعله ستيف، الذي يعشقه ويحاول أن يكون مثله في كلّ شيء. لا تقولي كلمة، سأجعل كلّ شيء على ما يرام ولا أحد

مكتبة ياسين

يجب أن يلومك».

- «أوه، أنا دائمًا أجلب المشاكل رغم أنّني أحاول المساعدة».

تنهدت روز مكتئبة للغاية بسبب زلّة لسانها. أراحها أرشي عندما شرح لها أنّه مِن الأفضل دائمًا قول الحقيقة. وجعلها مبتهجة للغاية بوعده لها بأنّه سيتواصل مع تشارلي بأسرع ما يمكنه.

لقد وفى حقًا بكلمته. ففي عصر اليوم التالي نظرت روز إلى الخارج من النافذة ورأت المشهد البهيج لأرشي والبرنس قادمين من الطريق ذراعًا بذراع كعادتهما يتحدّثان كما لو كان كلامهما تعويضًا عن الصمت الحزين في الأسابيع الماضية.

تركت روز عملها وهرولت إلى الباب ففتحته على مصراعيه وهي تبتسم لهما بسعادة، فأشرقت وجوه الفتيان بينما يصعدان السلم بشوق لإظهار أنّ كلّ شيء على ما يرام.

قال أرشي وهو يصافحها بقوة: «ها هي صانع السلام». لكن تشارلي أضاف بنظرة جعلت روز فخورة وسعيدة: «وأختي الصغيرة».

مكتبة ياسين

الفصل الرابع والعشرون
أي شيء

- «عمّي، لقد اكتشفت الأسباب التي من أجلها خُلقت الفتيات».

قالت روز اليوم بعد مصالحة أرشي والبرنس.

- «حسنًا يا عزيزتي، ما هي الأسباب؟».

سأل الدكتور أليك بينما كان يتمشّى في الصالة كعادته اليوميّة.

أجابت روز وهي مبتهجة للغاية وتتحدث بارتياح: «للاعتناء بالأولاد». ثمّ أضافت قبل أن تسمح لعمّها بالكلام: «لقد ضحكت فيبي عندما أخبرتها بذلك وقالت إنّها تعتقد أنّ الفتيات يجب أن يتعلّمن رعاية أنفسهن أولًا. أفهم هذا، فهي ليس لديها سبعة أبناء عمومة مثلي».

- «إنها على حق بالطبع وأنتِ أيضًا يا روزي يجب أن تعتني بنفسكِ، فالأمران يسيران معًا. وبالنسبة للفتيان أنتِ تقومين بالكثير لأجلهم من دون أن تعي ذلك».

قال الدكتور أليك وهو يتوقّف ليومئ برأسه ويبتسم لصاحبة الوجه المشرق الجالسة على كرسي الخيزران القديم تستريح من مباراة «القتال والريشة» المليئة بالحيوية بدلًا من الخروج للجري الذي منعته العاصفة.

- «أحقًا فعلتُ ذلك؟ أنا سعيدة... لكن في الحقيقة يا عمّي أشعر كما لو أنّ عليّ الاعتناء بالأولاد لأنّهم

مكتبة ياسين

يلجؤون إليّ في كلّ أنواع المشاكل ويطلبون النصح منّي وأنا أحبّ ذلك كثيرًا. أنا أحيانًا لا أعرف ماذا أفعل، وسأستشيرك على انفراد ثم أفاجئهم بحكمتي».

- «حسنًا يا عزيزتي، ما هي أول مشكلة تريدين استشارتي حولها؟ أرى أنّ لديك شيئًا ما في عقلك الصغير، تعالي وأخبري عمّك».

وضعت روز ذراعها في ذراعه وأخبرته عن كلّ شيء وهي تسير معه جيئة وذهابًا. تسأل عمّا يمكن أن تفعله مع تشارلي ليبقى مستقيمًا وتكون أختًا حقيقية له.

سألها الدكتور عندما انتهت من كلامها: «هل يمكنكِ اتخاذ قرار بخصوص الذهاب عند العمّة كلارا والبقاء هناك لمدة شهر؟».

- «أجل يا سيدي، لكنّني لا أحبّ أن أتركك وأترك هذا المنزل، هل حقًا تريدني أن أذهب؟».

أجابها: «أفضل علاج لتشارلي هو جرعة يومية من روز، هل ستذهبين لتتأكدي من ذلك؟». وضحك الدكتور أليك.

- «هل تقصد أنّني إذا كنتُ هناك وحاولتُ أن أجعل الأمر ممتعًا فسيبقى في المنزل ويبتعد عن الأذى؟».

- «بالضبط».

- «لكن هل يمكنني أن أجعل الأمر ممتعًا؟ ربما هو يريد الأولاد».

- «ليست مشكلة على الإطلاق، سيتواجد الأولاد

مكتبة ياسين

لأنّهم يتجمعون وراءك مثل النّحل وراء ملكتهم، ألا ترين ذلك؟».

- «تقول العمّة بلينتي إنّهم لم يعتادوا المجيء إلى المنزل ولا حتى لمرات أقلّ بكثير قبل وصولي، لكنّني لم أشعر أبدًا أنّني أحدثت فرقًا وبدا لي وجودهم هنا أمرًا طبيعيًا».

- «تواضعك لا يجعلك تدركين قدرتك على جذب الأولاد».

وداعب الدكتور خدّها الوردي برفق، سعيدًا بفكرة أنّ روزي تكبر بسعادة وأنّها محبوبة جدًا من الجميع. ثم أضاف:

- «الآن إذا حركّا المغناطيس ناحية العمّة كلارا سيذهب الفتيان إلى هناك، أنا على يقين من انجذاب الحديد للمعدن وسوف يكون تشارلي سعيدًا في المنزل ولن يهتمّ بأصحابه المؤذين».

كان الدكتور يعرف جيدًا مدى صعوبة فطام صبيّ يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا من تذوّقه الأول لما يسمى «رؤية الحياة»! تذوّقٌ للأسف غالبًا ما ينتهي برؤية الموت.

أجابت روز بحسن نية متجاوزةً تجهلها: «سوف أذهب يا عمّي. فدائمًا تطلب العمّة كلارا ذلك مني وسوف تكون سعيدة برؤيتي. هناك يجب أن أرتدي ملابسي، وأتناول العشاء في وقت متأخر، وأرى الكثير من الأصدقاء، وأن أكون عصريّة جدًا. لكنّني سأحاول

مكتبة ياسين

ألا أدع ذلك يؤذيني وإذا قابلني لغز أو شعرت بقلق ناحية شيء ما يمكنني أن أركض إليك».

هكذا تقرّر الأمر. ومن دون كلام كثير عن السبب الرئيسي لتلك الزيارة انتقلت روز إلى العمّة كلارا وفي ذهنها أنّ لديها عملًا تفعله، ومتشوّقة جدًا لإتمام المهمة على أكمل وجه.

كان الدكتور أليك على حقّ بخصوص النحل، فالأولاد بالفعل يتبعون ملكتهم حتّى أذهلوا السيدة كلارا بمواظبتهم على إجراء المكالمات والذهاب معًا لتناول العشاء وإقامة حفلات السمَر.

كان تشارلي مضيفًا مخلصًا وحاول إظهار امتنانه من خلال كونه لطيفًا جدًا مع «أخته الصغيرة». فقد خمّن لماذا جاءت، ولمست قلبه مساعيها الساذجة «لتساعده أن يكون نبيلًا».

غالبًا ما تتوق روز للعودة إلى المنزل القديم حيث أبسط الملذات والمزيد من واجبات الحياة المفيدة. لكنّها اتّخذت قرارها على الرغم من رأي فيبي «الفتيات خلقن من أجل الاعتناء بالأولاد». روحها الأمومية الصغيرة وجدت متعة كبيرة في تلك المهمة الجديدة.

كان مشهدًا جميلا أن ترى الفتاة الجادّة ذات الوجه الجميل بين قطيع من الفتيان طويلي القامة، تحاول الفهم لمساعدتهم وإرضائهم. فهي بمودة صبورة صنعت معجزة صغيرة لم يدركها أحد. السلوك الخشن المتداول والعادات غير المبالية أُلغيت أو تمّ تجاوزها على أقلّ تقدير في حضور تلك السيدة اللطيفة الصغيرة. وكلّ

مكتبة ياسين

الصفات الرجولية تشجعها بإعجابها الشديد، ترجّح الرأي الجيد ويُكسبه استحسانها له قيمة مضافة تجعل الجميع يتقبّله.

حاولت روز محاكاة الصفات الحسنة التي أثنت عليها فيهم، وحاولت التخلّي عن غرورها الأنثوي ومخاوفها، وحاولت أن تكون قويّة، عادلة، صريحة وشجاعة، بالإضافة إلى كونها متواضعة، عطوفة وجميلة.

أدّت هذا الدور بشكل رائع حتّى بعدما انقضى الشهر طلب كلّ من ماك وستيف من روز أن تكون موجودة وقت زيارتهما، وقد فعلت ذلك شاعرة بأنّها اشتاقت لسماع كلام العمّة جين والعمة كلارا الحازم عند مغادرتها: «أتمنى الاحتفاظ بك طوال الحياة يا عزيزتي».

بعد زيارة ماك وستيف، أخذها أرشي وشركاؤه بعيدًا لبضعة أسابيع وكانت سعيدة معهم. شعرت كما لو كانت تفضل البقاء معهم مدى الحياة، لو كان العمّ أليك موجودًا أيضًا. بالطبع لا يمكن إهمال العمّة ميرا، وبإحباط لم تظهره، ذهبت روز إلى «الضريح» كما أطلق الأولاد على مسكنها الكئيب. لحسن الحظ كانت قريبة جدًا من المنزل وكان الدكتور أليك هناك بالصدفة مما جعل وقت الزيارة أقلّ بكثير مما توقعت.

بينهم كانت العمّة ميرا تضحك من أعماق قلبها أكثر من مرة إذ أسعدتها روز بالجلوس في أشعة الشمس والغناء في المنزل وطهو كلّ أنواع الطعام، وتسلية السيدة بمحاضرات قصيرة مضحكة في علم وظائف

مكتبة ياسين

الأعضاء حتى نسيت أن نتناول حبوب المنوّم لأنّها نامت بشكل طبيعي. فبعد تمشيات طويلة ونزهات لم تكن بحاجة إلى منوّم.

انتهى الشتاء سريعًا وجاء مايو قبل أن تستقرّ روز في المنزل مرة أخرى. فأطلقوا عليها «روز الشهرية» لأنّها قضت شهرًا مع كلّ واحدة من العمّات تاركة وراءها ذكريات جميلة عطرة لدرجة أنّهم جميعهم أرادوا عودة زهرة العائلة مرة أخرى.

ابتهج الدكتور أليك كثيرًا بكنزه المستردّ. لكنّ الوقت يقترب وسنة التجربة أوشكت على الانتهاء. كان لديه سرّ دفين وهو أنّ روز ربما ترغب في صنع منزلها الخاص خلال الاثني عشر شهرًا القادمة مع عمّتها جيسي أو حتّى العمّة كلارا من أجل تشارلي. لم يقل شيئًا، لكنّه انتظر بكثير من القلق اليوم الذي يجب فيه اتخاذ قرار بشأن الأمر. وبينما كان ينتظر بذلَ قُصارى جهده لإنهاء المهمّة التي كان قد بدأها بشكل جيد.

كانت روز سعيدة جدًا. كانت في الخارج طوال اليوم تقريبًا تستمتع بجمال صحوة الكون، فقد كان الربيع مشرقًا وجاء مبكرًا وكأنّه حريص على القيام بدوره. براعم أبو فروة حول نوافذها، اللون الأخضر أطلّ كالسحر في الحديقة بين يديها. تتفتح الزهور بأسرع ما يمكن، تغنّي الطيور فوق رأسها بمرح. ويصيح الكورال كلّ يوم بأصوات مبهجة: «صباح الخير يا ابنة العمّة، أليس الطقس بديعًا؟».

لا أحد يتذكر تاريخ هذا الحدث الحافل الذي نتج عنه

مكتبة ياسين

خوض الدكتور أليك تجربته مع روز (لا أحد يتذكر لكنّه يفعل على الأقل). لذا تمّت دعوة العمّات لتناول الشاي في أحد أيام السبت. جئنَ وكنّ يجلسن معًا في حوار عائليّ مفعم بالطمأنينة عندما دخل الأخ أليك وفي يديه صورتان.

قال وهو يعرض واحدة على العمّة كلارا التي تصادف وجودها بالقرب منه: «هل تتذكرين هذه؟».

- «أجل بالطبع. إنّها تشبه روز جدًا عندما أتت بتعبيرها الحزين غير الطفوليّ، وجهها الصغير وعينيها الداكنتين الكبيرتين».

مرّرن الصورة فيما بينهنّ واتفق الجميع على أنّها «كانت مثل روز منذ عام». بعدما تفرجن على الصورة الأولى، أظهر الدكتور الصورة الثانية التي لقيت استحسانًا كبيرًا وقلن إنّها «ساحرة»، بالتأكيد كانت كذلك. كانت على تناقضٍ صارخ مع الصورة الأولى، فقد كان وجهها مبتسمًا ومبهجًا، مليئًا بالحيوية والصحة من دون أيّ علامة على الكآبة على الرغم من عينيها اللّتين كانتا مليئتين بالتأمل والتفكير العميق والخطوط حول شفتيها التي تشي بالطبيعة الحسّاسة.

وضع الدكتور أليك الصورتين فوق رفّ المدخنة ورجع إلى الوراء خطوة أو اثنتين يتفحصهما برضا لا نهائي لدقائق عديدة ثم استدار ناحيتهن قائلًا باختصار وهو يشير للوجهين في الصور: «انتهى الوقت. هل برأيكن نجحت تجربتي يا سيداتي؟».

صاحت العمّة بلينتي: «الحمد لله كانت تجربة ناجحة».

مكتبة ياسين

علّقت العمّة بيس وهي تبتسم بموافقة كاملة: «جميل يا عزيزي».

تذمّرت العمّة ميرا وقالت: «لقد تحسّنت بالتأكيد لكنّ المظاهر خادعة فهي ليس لها تأسيس تبني عليه».

قالت العمّة جين بلطف غير قادرة على نسيان ما فعلته روز لماك: «أنا أوافق على نجاح التجربة فيما يتعلق ببند الصحة».

تردّدت العمة كلارا شاعرة أنّها لا تستطيع أن تضيف شيئًا أفضل مما قيل، ثم تكلمت: «أنا سأذهب بخيالي بعيدًا لأنّني حقًا أعتقد أنّ أليك قد فعل عجائب للطفلة، وستكون أجمل في غضون سنتين أو ثلاث».

صاحت العمّة جيسي: «كنت أعلم أنّه سينجح وأنا سعيدة جدًا لأنكنّ جميعًا تسمحن له بذلك فهو يستحق مجدًا أكثر مما تمنحنه». وراحت تصفق بحماسة شديدة لدرجة أن جورب جيمي الصغير الأحمر كان يلوح مثل لافتة النصر في الهواء.

وقف الدكتور أليك وانحنى انحناءة رائعة وبدا ممتنًا جدًا وهو يقول بجديّة:

- «شكرًا، لكنّ السؤال الآن هو، هل يمكنني الاستمرار؟ فقد كان كلّ ذلك مجرّد بداية. لا أحد منكنّ يعرف العقبات التي واجهتها والأخطاء التي اقترفتها وحجم الدراسة التي منحتها للأمر والقلق الذي لازمني. الأخت ميرا محقّة في شيء واحد هو أن روز مخلوقة حساسة تزهرها أشعة الشمس وتذبل سريعًا

مكتبة ياسين

من دونها. ليس لديها نقاط ضعف خاصة غير طبيعة والدتها الحسّاسة التي ورثتها، وتحتاج إلى رعاية أحكم وأدق للحفاظ على روحها الحساسة التي تسكن هذا الجسد الصغير. أعتقد أنّني وجدت العلاج المناسب وبمساعدتكن سوف نبني امرأة جميلة ونبيلة تكون فخرًا وراحة لنا جميعًا».

توقف الدكتور أليك ليلتقط أنفاسه لأنّه تكلّم بكثير من الجديّة حتى بحّ صوته وهو يقول الكلمات الأخيرة.

بدت تمتمة العمّات اللطيفة مشجعة له. واستمرّ بابتسامة جذابّة لأنّ الرجل الطيب كان يحاول بمكر أن يكسب كلّ السيدات ليصوّتن له عندما يحين الوقت.

- «الآن... أنا لا أريد أن أكون أنانيًا أو متعسّفًا لأنّني الوصيّ عليها، سأترك لروز حرّية الاختيار بنفسها. كلّنا نريدها، وإن هي أرادت أن تصنع منزلها مع أيّ منكن بدلًا مني، يجب أن تفعل ذلك. في الواقع، أنا شجعت زياراتها في الشتاء الماضي حتّى ترى ما نعرضه عليها جميعًا وتحكم بنفسها على المكان الذي ستكون فيه أكثر سعادةً. أليست تلك أكثر الطرق عدلًا؟ هل توافقون أنّنا ينبغي أن نتصاع لاختيارها كما أفعل؟».

كلّ العمّات كنّ في قمّة الحماسة لأن تقضي روز وقتها بينهنّ طوال السنة، فقلن معًا: «أجل، سوف نوافق».

- «حسنًا ستصل حالًا وبعدها سنصل إلى حلٍ حول مسألة السنة التالية. ضعوا ذلك في اعتباركنّ، فقد حظيت ببداية عظيمة وسوف تزدهر سريعًا لو جرت الأمور بسلاسة على هذا النحو. لذا أتوسل إليكنّ لا

مكتبة ياسين

تفسدنَ الأمر لكن تعاملن مع فتاتي الصغيرة بحكمة ولطف فلو نالها أيّ أذى سيتحطّم قلبي».

وبينما كان يتحدث أدار الدكتور أليك ظهره فجأة وتأثّر وجهه بفحص الصور مرة أخرى. لكنّ العمّات تفهمن كم أنّ الفتاة الصغيرة عزيزة على الرجل الوحيد الذي أحبّ أمها لسنوات طويلة، ووجد سعادته الآن في الاعتزاز بالصغيرة روز التي كانت تشبهها كثيرًا.

أومأت السيدات الطيبات برأسهنّ وتنهدنَ وأبلغن بعضهنّ البعض بأنّه لن تشتكي أيّ منهنّ إذا لم يقع عليها الاختيار أو حتى يحاولنَ أن يسرقنَ من الأخ أليك «فرحة قلبه» كما كان الأولاد يسمّون روز.

بعد ذلك خرجت أصوات سعيدة من الحديقة ولوّنت الابتسامات الوجوه الجادّة. استدار الدكتور أليك على الفور قائلًا وهو يلقي برأسه للخلف:

- «ها هي الآن قد وصلت وحانت لحظة السؤال».

كان عيد الأول من مايو، فذهب أبناء العمومة سريعًا للحصول على نصيبهم من الغنائم.

- «هذه هي وردتنا الاسكتلندية الجميلة بجميع أشواكها حولها».

قال الدكتور أليك وهو يتفحصها بفخر وحنان غير عاديَيْن، بينما ذهبت روز لتري العمّة بيس سلة مليئة بالزهور والأوراق الطازجة وأشنيات نادرة.

- «أوقفوا تلك الفوضى في الصالة أيّها الأولاد واجلسوا بهدوء إذا رغبتم في البقاء هنا لأنّنا مشغولون».

مكتبة ياسين

قالت العمّة بلينتي وهي تهزّ إصبعها ناحية العشيرة المشاغبة التي يشكّلها الأولاد المفعمون بالمرح بسبب أشعة شمس الربيع والتمارين الصحيّة.

- «بالطبع نختار البقاء هنا، لا شيء يجعلنا نفوّت شاي السبت».

قال الرئيس، بينما يعمل على استعادة النظام بين أعوانه بإيماءة أو كلمة أو حتى إشارة عادية.

- «ما الأمر؟ محكمة عسكريّة؟».

سأل تشارلي ناظرًا إلى جميع السيدات بنظرة إجلال وفضول لأنّ وجوههنّ انطبعت عليها أمور مشوّقة للغاية.

شرح الدكتور أليك بكلمات بسيطة حاول أن تكون موجزة وهادئة قدر استطاعته، لكنّ تأثيرها كان مدهشًا رغم أنّ كلّ واحدة من السيدات بدأت في اللّحظة نفسها في رشوة وإغواء وتملّق روز بكلمة «يا غالية» لتختارها.

- «ينبغي أن تأتي من أجل أمّنا ومن أجلنا أيضًا، فأنتِ تعلمين أنّه أصابها الملل منّا لأنّنا جميعًا صبيان». قال أرشي مستخدمًا أقوى منطق استطاع أن يفكّر فيه في تلك اللحظة.

- «أوه، لو جئتِ معنا لن ننتقدكِ أبدًا ولن نتكلم معكِ بشكل غير لائق، وطبعًا سنتوقف عن تسميتك «قطة خائفة»». توسل جوردي وويل وهما يحاولان الابتسام بشكل شوّه وجهيهما».

- «وأنا سأغسل يديّ قبل أن ألمسك، وسأجعلك

مكتبة ياسين

دمية لي لأن بوكي قد رحلت، وسوف أحبك بقوة». صاح جيمي وهو يتشبّث بها بوجهه السمين المليء بالعاطفة.

قال تشارلي بنغمة متوتّرة، وبنظرة تجد روز أنّه من الصعب جدًا مقاومتها: «ينبغي أن يعيش الأخوة والأخوات معًا عندما يكون الأخ بحاجة إلى شخص يجعل له المنزل ممتعًا».

انبرى ستيف بنبرته الحازمة كمن يقدم تضحية نبيلة عظيمة:

- «لقد عاشت عندكم مدة طويلة وحان دورنا الآن. ماك يحتاجها أكثر منك يا برنس فهي «ضوء عينيه» كما يقول. تعالي يا روز لتعيشي معنا ولن نستخدم دهن المسك الذي تكرهينه مرة أخرى طيلة وجودك».

حرّك ماك نظارته قائلًا بنبرةٍ فيها العاطفة والصدق:

- «تعالي يا ابنة خالي وسوف ندرس الكيمياء معا، تجاربي لم تعد تنفجر الآن كثيرًا والغازات ليست سيئة على الإطلاق عندما تعتادين عليها».

في هذه الأثناء كانت روز تقف مكتوفة الأيدي، تتساقط الزهور من يديها وتنتقل عيناها من وجه متشوّق إلى آخر، بينما كانت الابتسامات تتوزع عليها لتغريها بالذهاب إليهم. أثناء الضحك الذي تبع اقتراح ماك الوسيم، نظرت إلى عمّها. كانت عيناه مثبتة عليها بتعبير عن الحبّ والشوق الذي وصل إلى أعماق قلبها. فكّرت: «آه أجل، هو يريدني أكثر، وكثيرًا ما تمنيت أن

مكتبة ياسين

أمنحه شيئًا يحبّه جدًا والآن أستطيع أن أفعل».

لذا عندما صدرت من العمّة بيس إيماءة مفاجئة، حلّ الصمت وقالت روز ببطء، وقد انتشح خداها بلون جميل وهي تلقي نظرة توسّل حول الغرفة وكأنها تطلب العفو من الأولاد:

- «من الصعب جدًا الاختيار عندما يكون الجميع مغرمين بي، لذا أعتقد أنّني سأذهب إلى الشخص الذي يبدو أنّه بحاجة إليّ أكثر».

- «لا يا عزيزتي، اذهبي إلى الشخص الذي تحبينه وتشعرين أنك ستكونين سعيدة معه أكثر».

قال الدكتور أليك بسرعة، بينما تشنّف العمّة ميرا وتتمتم «يا كارولين المباركة»، ما جعل روز تتوقف وتجول بنظرها.

- «خذي وقتك يا ابنة الخال لا تتعجّلي في اتخاذ قرارك وتذكّري كودلين صديقك».

أضاف تشارلي متفائلًا».

- «لا أريد أيّ وقت! أنا أعرف من أحبّ أكثر ومن سأكون أكثر سعادة معه، أنا أختار عمّي، فهل سيختارني؟».

نطقت روز كلماتها بنبرة أثارت التعاطف بين المستمعين في جو مليء بالثقة والحبّ.

لو كان لديها حقًا أي شك في اختياره لها فإنّ نظرة الدكتور أليك كانت تكفي من دون الحاجة حتّى إلى كلمة واحدة. فتح ذراعيه على مصراعيهما وجرت

مكتبة ياسين

تحتمي به شاعرة أنّها في بيتها. لم يتكلم أحد لمدة دقيقة، لكنّ العمّات تبادلن إشارات حثّت الأولاد على الالتفاف حول العم وابنة الحال يغنّون وتغنّي معهم بإلهام مفاجئ نشيدًا من الطفولة «فتّحي يا وردة». بالطبع، وضع هذا النشيد نهاية لكلّ المشاعر التي اعتملت في وجدانهم. وانغمست روز في الضحك وهي في حضن الدكتور أليك حتّى ترك زر معطف الدكتور أليك علامة لطيفة على خدّها. وعندما رأى تلك العلامة طبع عليها قُبلة وقال:

- «هذه هي عنزتي الجميلة وتلك علامتي التي وضعتها حتّى لا يستطيع أيّ شخص سرقتها».

دغدغ ذلك الصبية وبدأوا بالغناء:

عند العمّ عنزة صغيرة

لكنّ روز أسكتت الضوضاء ونزلت وسط الدائرة التي أحدثها الفتيان ورقصت بشكلٍ جميلٍ بينما أتت فيبي تحمل ماءً عذبًا لتروي به الزهور. بدأت بالتغريد والضحك كما لو أنّ كلّ طيور السماء جاءت لتنضم إلى مرَح أبناء العمومة الثمانية في فصل الربيع.

تمت

(1) أبو الحنّاء الأوروبي أو أبو الحنّاء اختصارًا، ويُعرف أيضًا في أيرلندا وبريطانيا باسم أبو الحنّاء أحمر الصدر.

(2) القيق الأزرق، وهو طائر من فصيلة الغربان، يمتاز بريشه الأزرق والأبيض وبأن له عرفًا على رأسه.

مكتبة ياسين

(3) السمّنة، ويعرف هذا النوع من الطيور بأن ريشه العلوي بني اللون أما ريشه السفلي كريمي اللون أرقط (منقط باللون الأسود) وهو معروف بصدحه وكأنه يغنّي أغنية متكررة.

(4) المِمْراح، وهو طائر مُغرِّد، وموطنه الأصلي في أمريكا الشمالية.

(5) (The Gypsy's Child) طفل الغجر، كتاب للروائية الأمريكية إليزابيث ستيوارت فيلبس وارد، وهي كاتبة أمريكية نسوية مبكرة.

(6) اسم دلّع يخص ستيف ويعني المتأنق.

(7) حصان شتلاند وهو أحد أصغر أنواع الخيل في العالم يبلغ ارتفاعه أقل من متر.

(8) The Highland Fling، رقصة اسكتلندية منفردة اكتسبت شعبية في أوائل القرن التاسع عشر.

(9) A Dulcy Melody، موسيقى شعبية شهيرة تعزف حتى الآن.

(10) إشارة إلى سيدة البحيرة هي قصيدة سردية للسير والتر سكوت.

(11) إشارة إلى ويليام والاس الذي استطاع إسقاط قلعة مونتروز 1927 إبان معركته لتحرير اسكتلندا من التاج الإنجليزي، وقد ألهمت الشخصية السينما في فيلم (Brave Heart) بطولة وإخراج النجم ميل جيبسون.

(12) بوني دندي، عنوان قصيدة وأغنية كتبها والتر سكوت في عام 1825.

(13) حلوى صلبة صغيرة مصنوعة من السكر ومغطاة به بالكامل، لا تأخذ شكل البرقوق بالضرورة.

مكتبة ياسين

(14) أغنية اسكتلندية شهيرة تشير إلى مسيرة بوني برينس تشارلي إلى إنجلترا عام 1745.

(15) يشبهها بنبات العسلة جنس من نباتات الزينة يتبع الفصيلة الخبازية.

(16) كان الدواء يوضع في كؤوس من خشب الكواسيا، أمر شائع في القرن التاسع عشر.

(17) Parritch في النص الأصلي وهو طبق مصنوع من دقيق الشوفان أو حبوب أخرى مطبوخة في الماء أو الحليب بقوام كثيف.

(18) تُعتبَر القديسة مرثا شفيعة المهتمين بخدمة المحتاجين.

(19) قسم عن الرومان قديمًا أو (بحق زيوس) يقصد به التعبير عن الدهشة الشديدة.

(20) كانت تستعمل قديما كعلاج لكثير من الأمراض قبل تطور الطب واكتشاف آثارها المدمرة.

(21) الشيلم، نبات من الفصيلة النجيلية والحبوب الشتوية الصالحة للأكل من قبل البشر، يشبه القمح.

(22) وردت في النص الأصلي (Madame Prunes and Prisms) وهو الكلام أو الفعل الرسمي أو الحكيم عن قصد. نشأت العبارة في رواية Little Dorrit لتشارلز ديكنز كمثال على الكلام السليم.

(23) قماش البروكار الدمشقي، من أفخم الأقمشة على مستوى العالم، يُنسج من خيوط الحرير الطبيعي المستخلص من شرانق دودة القز، وتدخل في نسجه أحيانًا خيوط الذهب والفضة.

(24) أملاح الشم، المعروفة أيضًا باسم النشادر أو كربونات النشادر، هي مركبات كيميائية تستخدم لإثارة الوعي.

مكتبة ياسين

(25) مرجانة زوجة علي بابا في الحكاية التراثية الشهيرة.

(26) Paul Pry مسرحية ساخرة للمسرحي الإنجليزي جون بول في القرن 19، تحكي عن سيدة عجوز تسلّي نفسها بالتجسس على جيرانها.

(27) نوع من الكلاب من سلالة كلاب الرعي التي نشأت في جزر شتلاند في اسكتلندا.

(28) البرنقيل هو محار يعيش في المياه المالحة، يلتصق بالأشياء تحت الماء. ويوجد على دعامات أرصفة الموانئ والصخور والسلاحف والحيتان السفن.

(29) الباجودا هي القبعة الصينية الشهيرة.

(30) محرفة من اسم في النص الأصلي fun see والتي تعني بالإنجليزية سنرى المتعة.

(31) عيد الفوانيس هو مهرجان تاريخي أواخر القرن التاسع عشر، يخرج فيه الجيران لتعليق فوانيس ورقية، كانت تضاء أولًا بالشموع ولاحقًا بالأضواء الكهربائية. ظل حتى أربعينيات القرن الماضي.

(32) إشارة إلى تشابه بعض الحروف وسوء الخط.

(33) الفردوس المفقود ملحمة شعرية للكاتب الإنجليزي جون ملتون كتبها في العام 1667.

(34) أول كتاب نشر للفيلسوف ورجل الدولة والفقيه فرانسيس بيكون1597.

(35) مدرسة دام كانت عبارة عن نموذج مبكر من المدارس الابتدائية الخاصة في البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. وكانت تتخذ موقعها في كثير من الأحيان في منزل المعلم، الذي عادةً ما تملكه امرأة.

مكتبة ياسين

(36) الأخطاء مقصودة.

(37) نيكولاس نيكلبي، أو حياة ومغامرات نيكولاس نيكلبي، هي رواية للأديب الإنجليزي تشارلز ديكنز.

(38) رقصة شعبية شهيرة تشيكية الأصل.

(39) الكبوسين أو اللادن أو السلبية أو أبو خنجر (الاسم العلمي: Tropaeolum) هو جنس من النباتات.

(40) العسل الخشبية نبات عطري له أزهار هي مزيج من الأبيض والأصفر والوردي (woodbine).

(41) إشارة إلى رواية روبنسون كروزو.

(42) وليام كيد المعروف بلقب كابتن كيد هو ملاح وقرصان وأحد أعلام القراصنة في الأدب الغربي.

(43) Lookout Rock نقطة على مكان مرتفع يمكن من خلالها رؤية المراكب والزوارق القادمة، تتميز بمشاهدها الرائعة.

(44) يتحركون في صفوف منتظمة وهم يرتدون زيّ البحر البرتقالي كصف من الكركند.

(45) جيمس كوك، أو القبطان كوك من أشهر البحارة والمستكشفين الإنكليز. تعرّض كوك للهجوم وقُتل في العام 1779 خلال رحلته الاستكشافية الثالثة في المحيط الهادئ أثناء محاولته اختطاف الرئيس الحاكم لجزيرة هاواي، كالانيوبوتو، من أجل استعادة قاطع مأخوذ من إحدى سفنه بعد أن أخذ طاقه الأخشاب من أحد المقابر.

(46) الاعتقاد بأن كيد قد ترك كنزًا مدفونًا ساهم بشكل كبير في نمو أسطورته، أشار العديد من الكتّاب الأمريكيين والاسكتلنديين اللاحقين إلى الأسطورة في العديد من القصص الشهيرة التي تتعلق بهذه الفترة، كما ألهمت العديد من عمليات

مكتبة ياسين

البحث عن الكنوز التي أُجريت في الواقع.

(47) ديفيد لفنغستون (David Livingstone) مستكشف اسكتلندي لوسط أفريقيا. أول أوروبي يرى شلالات فيكتوريا، وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم.

(48) ويليام هوبسون، قبطان شهير ولد في إيرلندا، شارك بشكل رئيسي في قمع القرصنة في جزر الهند الغربية، وقيادة السفينة الشراعية Whim.

(49) جيمس وات، مخترع شهير عمل على تصنيع المحركات البخارية وفقًا لتصميم Watt الحاصل على براءة اختراع.

(50) اركورايت Arkwright - نجح في استخدام الطاقة المائية، التي كانت السبب في توسّع تجاري كبير.

(51) روبرت فولتون، مهندس ومخترع أمريكي يُنسب إليه الفضل في تطوير أول قارب بخاري ناجح تجاريًا في العالم.

(52) برنارد باليسي، صانع خزّار فرنسي ومهندس هيدروليكي وحِرفيّ، اشتهر بأطباقه المزينة بحيوانات صغيرة بين النباتات.

(53) كابتن دوف قائد تاريخي اشتُقّت منه شخصية شعبية تنسب لها بطولات أسطورية.

(54) نسبة إلى السير جون فالستاف هو شخصية خيالية ساخرة ظهرت في ثلاث مسرحيات لوليام شكسبير، كان فارسًا سمينًا وعبثيًا ومتفاخرًا.

(55) نشيد ذو قافية فلكورية لتنشئة الأطفال، من القرن الرابع عشر.

(56) مدينة قديمة حقيقية، يعود أصلها إلى اجتماع المدينة الذي عقد في بروفيدنس في 3 يوليو 1663، عندما كانت سميثفيلد الحالية لا تزال تعتبر «المناطق الخارجية» لمستوطنة بروفيدنس، في

مكتبة ياسين

ذلك الاجتماع، مُنح ويليام هوكينز خمسين فدانًا من الأرض بشرط أن يقوم هوكينز بتحسين الأرض والعيش عليها لمدة ثلاث سنوات على الأقل.

(57) الأُشْنَة وجمعها الشيبيات هي الطحالب الخضراء المجهرية أو الجراثيم الزرقاء.

(58) Over The Hills And Far Away (في النص الأصلي) أغنية اسكتلندية تراثية من القرن السابع عشر، صدرت أكثر من نسخة حديثة لها لفرق موسيقية مختلفة مع تغيير في الكلمات.

(59) القصة في سفر العدد، العهد القديم، عن بلعام والحمار.

(60) هي حكاية أطفال إنكليزية تقليدية، بالإضافة إلى أنها موضوع مشهور في التمثيل الإيمائي. الحكاية التقليدية تدور حول طفلين تم التخلي عنهما في الغابة ويموتان ثم تغطيهما أوراق الشجر.

(61) تقصد عين الرب god لكن نطقتها بهذه الطريقة لصغر سنها.

(62) نسبة لقصة الجرة الأرجوانية (The Purple Jar) هي قصة قصيرة مشهورة بقلم ماريا إيدجوورث. تدور القصة حول فتاة صغيرة تدعى روزاموند تحتاج إلى زوج جديد من الأحذية لكنها تنجذب إلى جرة أرجوانية تراها معروضة في نافذة متجر، وعندما تمنحها والدتها خيار إنفاق أموالها على الأحذية أو الجرّة، فإنها تختار الجرّة الأرجوانية. وعندما تعود الفتاة إلى المنزل، تكتشف أن الجرة لم تكن أرجوانية ولكنها شفافة ومليئة بسائل داكن والحذاء القديم يعذبها ولم تعد قادرة على المشي فيه.

(63) (liberry) في النص الأصلي بدلًا من (library مكتبة) لأن حجم الصغير يعطقها كذلك.

(64) فراجوت، ابن مهاجر أمريكي إسباني ومحارب قديم في الحرب الثورية، أحد أبطال الحرب الأهلية. كان فراجوت أول

مكتبة ياسين

شخص يشغل منصب نائب الأميرال والأدميرال الكامل في البحرية الأمريكية.

(65) Dick Dauntless: مغامرة بحرية قصيرة دموية وحشية للأولاد.

(66) (أيام توم براون في المدرسة)، رواية مغامرات من تأليف توماس هيوز.

(67) في النص الأصلي مفردات بالعامية الأمريكية كانت مبتذلة في هذا الوقت، غير أنها تستعمل الآن بشكل عادي.

(68) جان لويس رودولف أجاسيز، عالم أحياء وجيولوجي أمريكي.

(69) تشارلز سومنر، سياسي، عضو مجلس شيوخ أمريكي.

(70) إشارة إلى مسرحية شكسبير، (ماكبث) أخبر ماكبث أنه سيبزم فقط عندما يأتي بيرنام وود إلى دنسينان.

(71) نبات بري من جنس الشوكران من الفصيلة الخيمية، له رائحة غير مستحبة.

(72) نبات يتميز بأوراقه المصقولة شائكة الأطراف وزهره الصغير الأبيض.

(73) مزمار القِرْبة أو مزمار القرب، آلة موسيقية اسكتلندية تراثية، تعزف عن طريق النّفخ.

(74) رقصة شعبية اسكتلندية، هي عبارة عن خطوات منتظمة على إيقاع معين للأمام والخلف.

(75) (Casabianca) هي قصيدة للشاعرة الإنكليزية فيليسيا دوروثيا هيمانز، يرفض الشاب كازابيانكا ترك موقعه على السفينة من دون أوامر من والده حتى تحترق. تخلّد القصيدة ذكرى حادثة حقيقية وقعت في العام 1798 أثناء معركة النيل بين الأسطولين

مكتبة ياسين

البريطاني والفرنسي.

(76) المَرِيمِيَّةُ هو نوع نبات من جنس القصعين.

(77) مدفأة السرير شائعة في المناطق الباردة، وخاصة في أوروبا. تتألف من حاوية معدنية، تكون مزودة بمقبض مثل مقلاة القلي الحديثة مع غطاء صلب أو مثقوب بدقة. وتوضع تحت أغطية السرير لتدفئتها أو تجفيفها قبل الاستخدام.

(78) التهاب الجنبة، مرض تلتهب فيه الجنبة، وهي نسيج من طبقتين رقيقتين يفصل الرئتين عن جدار الصدر. وقد يسبب ألمًا حادًا في الصدر يزداد سوءً أثناء التنفس.

(79) نطقَتها pewmonia في النص الأصلي pneumonia.

(80) لعنة قايبل وعلامة قايبل عبارتان نشأتا من قصة قايبل وهابيل في سفر التكوين. في القصص، إذا قام شخص ما بإيذاء قايبل، فإن الضرر سيعود على الشخص سبعة أضعاف.

(81) في النص الأصلي تكتب identical وتعني متطابق أو متشابه بهذه الطريقة (identickle).

(82) Jigs رقصة شعبية إيرلندية اكتسبت شعبيتها لأول مرة في إيرلندا في القرن السادس عشر.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook